الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 62 - March 2004

مجلة شهرية . العدد الثانى والستون . السنة السادسة . مارس ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات



التضليل بالأرقام .. وتقرير التنمية الإنسانية العربية

جلال أمين

غذاء أكثر..وجوعى أكثر : من يملك ثمن الخبز ؟

أحمد مستجير

الأمير الصغير.. والكاتب الذى اختفى

محمد المهدى

التفاتة إلى الهند

سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة السادسة
العدد الثانى والستون
مارس ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- احمد درويش... أستاذ الأدب المقارن بجامعة الإسكندرية.
- احمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة بجامعة القاهرة.
- ايمن الصياد .. صحفى.
- باتريشيا جاتسبى... محررة علمية فى مجلة ديسكفر.
- جلال امين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- حازم الببلاوى.. الأمين التنفيذى للجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا.
- حمدى عزام .. دبلوماسى مصرى سابق.
- داليا داساكاى... أستاذ مساعد فى العلوم السياسية بجامعة جورج واشنطن.
- سلامة احمد سلامة .. صحفى.
- سمير حنا صادق.. أستاذ الطب المعملى بجامعة عين شمس.
- عايدة العزب موسى... صحفية.
- علاء الدين وحيد... كاتب.
- غازى صلاح الدين العتبانى ... وزير سودانى سابق.
- فهمى هويدى .. صحفى.
- لويس ميناند.. أستاذ الأدب الإنجليزى فى جامعة سيتى، وكاتب بمجلة نيويوركر.
- ليلى حافظ .. صحفية.
- محمد المهدى... مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى. سعد الدين شحاته. أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير. اليمن ٣٠٠ ريال. فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

"نون"

التفاتة إلى الهند

سلامة أحمد سلامة



■■ ما تكاد تهبط بك الطائرة في أي من العواصم أو المدن الخليجية، حتى يطالعك الوجود الأسيوي الكثيف في كل مكان.. في المطارات، في المحال التجارية، في الفنادق، في المطاعم، في المكاتب الحكومية والإدارات العامة.. في الحافلات وسيارات التاكسي. يخيل إليك أن أهل البلد الأصليين قد هجروها في أجازة وتركوها بين أيدي مئات الألوف من الأيدي العاملة الأسيوية: من الهند وباكستان والفلبين وتايلاند وغيرهم من الأجانب الذين يمثلون قوة العمل الحقيقية في كثير من الأعمال الصغيرة والكبيرة على حد سواء. ولكن الطابع الهندي هو أكثر ما يثير الاهتمام ويلفت النظر: الوجوه الهندية، واللسان الهندي، والعمامة الهندية، والطعام الهندي، والرائحة الهندية المميزة.

ولا يقتصر الأمر على هذا الوجود البشري الذي يملأ المكان، بل هو وجود اقتصادي وثقافي واجتماعي يتحول إلى وجود سياسي غير ظاهر وإن كان بالغ التأثير.. نشأ وترعرع على مر العقود الثلاثة الماضية بدرجة ملحوظة، حين تدفق مئات الألوف من الأيدي العاملة المدربة وغير المدربة إلى بلاد الخليج بعد ظهور الثروة النفطية، وتحول المجتمعات الخليجية إلى مجتمعات للرفاهية والثراء.. تحتاج إلى من يخدمها ويدبر شئونها من الأيدي العاملة. أكثر من ٦ ملايين يعملون في مختلف المستويات الوظيفية والإدارية والخدمية، يتدفقون من شبه القارة الهندية إلى دول الخليج، ويمثلون أكبر جالية أجنبية في أي منطقة في العالم، يصل حجم تحويلاتها إلى البلد الأم في الهند نحو ١٤ بليون دولار سنوياً.

يظل الوجود الأسيوي في الخليج، والهندي بوجه خاص، وجوداً مميزاً بطبيعته التي لا تعبر عن نفسها بطريقة زاعقة لافتة، وإن تغلغل في صميم الحياة الخليجية وتسرب في دمائها وعروقها.. وذلك على عكس الوجود العسكري الأمريكي النافر الذي يفرض نفسه بقوة السلاح. وعلى العكس أيضاً من الوجود الثقافي والاسترزاقي لجاليات عربية، والذي يكون مستفزاً أحياناً ومثيراً للغيرة والشقاق أحياناً أخرى بحكم الحاجة إلى الانتماء إلى هوية سياسية وحضارية عربية يصعب التخلص منها.

علاقة العرب بالهند إذن علاقة ذات حضور قوي هادئ في الحاضر وذات جذور تاريخية ضاربة في الماضي سعى علماء العرب إلى دراسة علوم الهند وحكمتها وفلسفتها. واتجه الرحالة العرب لاكتشافها والتعرف على جوانب الحياة فيها، من أمثال المسعودي وابن حوقل واليعقوبي والمقدسي والبيروني وابن بطوطة. وكان البيروني ذلك العالم الضليع في الرياضيات والفلك من أكثر العلماء العرب الذين اهتموا بالثقافة الهندية وعكفوا على دراسة تاريخها وعادات أهلها.

وفي العصر الحديث عرف العرب نضال الزعيم الهندي المهاتما غاندي الذي قاد بلاده إلى الاستقلال، وانتهج أسلوب «العصيان المدني» كأسلوب سلمي لا يلجأ إلى العنف في مقاومة الاستعمار البريطاني. وحصلت الهند على استقلالها التام على يدي جواهر لال نهرو تلميذ غاندي ورجل الدولة، الذي شكل بعد ذلك مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والزعيم اليوغوسلافي جوزيب بروز تيتو حركة عدم الانحياز.

ويخطر ببال المرء الآن أن الظروف التي أحاطت بالعالم العربي في تلك الحقبة . الخمسينيات من القرن العشرين . والظروف الدولية التي تحيط به الآن في بدايات القرن الواحد والعشرين، تكاد تتشابه في كثير من مخاطرها وتهديداتها. فبينما كانت الأحلاف العسكرية تحاصر مصر والعالم العربي حينذاك، وتعمل جهدها للإيقاع بالقوى الوطنية الطامحة إلى الاستقلال، نلاحظ في الوقت الحاضر كيف وطد النفوذ العسكري الأمريكي نفوذه وقواعده في الدول العربية دون حاجة إلى أحلاف عسكرية.. في المرحلة السالفة كان التهديد الشيوعي والخطر السوفيتي هو «البعبع» الذي يخيف به الغرب الأقطار والحكومات العربية، ويضغط عليها بكل الوسائل للانضمام إلى أحلاف عسكرية غربية تتعاون مع حلف الأطلنطي. وفي هذه الأيام يبرز «الإرهاب» والتطرف الديني، كمصدر للخطر الذي يهدد الدول العربية ويهدد المصالح الأمريكية والغربية.. ويروج لها الغرب باعتبارها التحول الجديد الذي يجب أن يتكاتف العالم للوقوف ضده ومحاربته. ومن ثم تتصاعد الدعوة الموجهة إلى العالمين العربي والإسلامي، إن لم يكن للانضمام إلى حلف الأطلنطي، فللدخول في شراكات مبهمة مع الولايات المتحدة أو مع أوروبا لتحرير الشرق الأوسط من خطر الإرهاب ومصادره الكامنة في نظم حكم سياسية متخلفة وعاجزة عن انتهاج نظم ديمقراطية حرة.

وإذا كانت فكرة الحياد الإيجابي أو عدم الانحياز هي المفهوم الذي تمسك به نهرو وعبد الناصر وتيتو في ذلك الوقت، على أساس أنه الوسيلة الوحيدة لكي تنأى دول أفريقيا وآسيا بنفسها عن الصراع النووي الناشب بين العملاقين، فإن التشرذم الذي طرأ على تجمع الدول الأفريقية والأسيوية، وانكسار أحد العملاقين وهو الاتحاد السوفيتي، وسيطرة قطب واحد أعظم يملك مقاليد القوة العسكرية والتفوق العلمي والتكنولوجي هو الولايات المتحدة، والتغيرات الجذرية التي طرأت على موازين القوى وعلى المشهد العالمي بأسره، قد أفقدت دول العالم الثالث زمام المبادرة والمناورة وبددت ما كان لمبدأ عدم الانحياز من مفعول سحري، وأنشأت فجوات واسعة بينها جعلها تتناثر في جزر منعزلة متباعدة، كل منها يبحث عن مصلحته ويسعى إلى اتقاء الشرور والمخاطر المحيطة به من كل اتجاه. وذلك في وقت يعاني فيه النظام الدولي ومؤسساته من حالة وهن شديد، وخضوع كامل لسيطرة القوة العظمى الوحيدة في العالم.

لم تصمد كتلة الدول غير المنحازة طويلاً أمام العواصف الدولية الجارفة، التي هبت بسقوط الاتحاد السوفيتي وكتلة دول حلف وارسو، وما سبقها من سقوط حائط برلين. ولم تنجح الجهود التي بذلت بعد ذلك لإقامة تكتلات تحل محلها مثل مجموعة الـ ٧٧ أو دول الجنوب في مواجهة دول الشمال. وربما كان للتداعيات التي أعقبت حرب

التفـــاتة إلـى الهنـــــد



أكتوبر ٧٣ والزيارة التى قام بها الرئيس السادات إلى إسرائيل عام ٧٩، دور هام فى تفكيك عرى فكرة عدم الانحياز، بعد أن أعلن الرئيس السادات أن ٩٩ بالمائة من أوراق اللعبة فى يد أمريكا وأنها وحدها القادرة على تحقيق السلام العادل فى الشرق الأوسط.

وكانت هذه الفترة الحاسمة هى بداية التغيير التى وضعت دول عدم الانحياز أمام مفترق طرق؛ وهى الفترة التى بدأت الطريق تتباعد فيها بين مصر والهند، وبين العالم العربى والهند. وقد أدركت الهند - على عكس مصر - أن عدم الانحياز ليس إلا ثوبًا شفافًا رقيقًا لا يحمى أصحابه من برد الشتاء أو قيظ الصيف. ومن ثم فلابد من بناء قوة ذاتية قادرة على الدفاع عن نفسها ضد الأخطار القائمة والمستقبلة. ولم تكن أمريكا تخفى امتعاضها من دول عدم الانحياز واستخفافها بها.. وفى رأى دالاس وزير الخارجية الأمريكية حينذاك ومهندس الحرب الباردة، أن عدم الانحياز فكرة لا أخلاقية، فأنت فى الصراعات الدولية إما مع جانب أو ضده، ولا مجال للوقوف فى الوسط. ومازالت هذه هى الفكرة التى يؤمن بها الرئيس بوش وجماعة المحافظين الجدد، والتى تكررت على لسان بوش وباول بصيغ مختلفة فى الحرب ضد الإرهاب وفى أزمة الحرب ضد العراق. وهكذا فما أن **سقط الاتحاد السوفيتى** حتى أصبح الحديث عن عدم الانحياز مجرد كلام فى الهواء أو ملء للفراغ.

يقول مصدر هندى كبير مسئول، يعتبر العقل السياسى الذى يقف وراء السياسات الناجحة التى انتهجها إتال بيهارى فاجباى رئيس وزراء الهند للخروج من قفص العزلة الذى وجدت نفسها فيه فى السنوات التى تبعت سقوط النظم الاشتراكية والشيوعية فى موسكو وأوروبا الشرقية، إن هذه الفترة هى التى وقع فيها التحول فى العلاقات بين الهند وعدد كبير من دول عدم الانحياز ومن بينها مصر. فبينما اتجهت مصر إلى تدعيم علاقاتها مع الولايات المتحدة، اتجهت الهند إلى تدعيم علاقاتها مع موسكو. وخاصة بعد أن فرض الغرب عليها حظرًا اقتصاديًا بسبب قيامها بأول تفجير نووى عام ١٩٧٤. وأدى ذلك إلى نشوب أزمة اقتصادية اقترنت بارتفاع الأسعار نتيجة لارتفاع أسعار النفط، وسقطت حكومة أنديرا غاندى نتيجة لإعلانها حالة الطوارئ بسبب حملة التعقيم الإجبارى للرجال. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يخذل فيها الشعب الهندى حزب المؤتمر الذى حكم منذ الاستقلال، ويفتح الطريق أمام أحزاب المعارضة بزعامة حزب «بهارتيا جاناتا» الهندوسى ذى النزعات الدينية المتعصبة.

وإذا كانت مصر قد شهدت اغتيال الرئيس السادات على يد الجماعات الإسلامية المتطرفة فى أكتوبر ١٩٨١. فقد شهدت الهند اغتيال أنديرا غاندى على يد اثنين من حراسها السيخ المتعصبين عام ٨٤، وشهدت ظهور نزعات انفصالية بين السيخ، وحركات دينية قومية بين الطائفة الهندوسية. وتعرضت الهند لفترة مضطربة لقى فيها راجيف غاندى مصرعه خلال حملته الانتخابية، ولم يكن راجيف قد تأهل سياسيًا لتحمل المسئولية السياسية. ومن هنا لم يدم حكم حزب المؤتمر طويلاً ولكنه خطا أول خطوة فى إقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل عام ٩٢ ومحاولة إصلاح العلاقات مع أمريكا، وأدى ضعف الحزب وتفكك أجنحته إلى صعود حزب بهارتيا جاناتا اليمينى إلى الحكم بعد اشتعال نزعات تطرف هندوسية أدت إلى تدمير مسجد بابرى التاريخى فى أيودهيا، وهى بقعة يدعى الهندوس أنها كانت موضع ولادة الإله «راما» المعبود المقدس عندهم. وهو ما أدى إلى وقوع مذابح طائفية دامية بين الهندوس والمسلمين مازالت تفعل فعلها فى التوتر بين الطائفتين حتى الآن.

مجمل القول إن الهند شهدت أوقاتًا صعبة لا تقل صعوبة وعسرًا عن الأوقات التى شهدتها مصر وأجزاء عديدة من الوطن العربى. ولكن من الثابت أن الهند بقيت على مدى العقود الأربعة الماضية منذ قيام الكيان الصهيونى، من أقرب المدافعين عن الحقوق العربية والقضية الفلسطينية فى مختلف المحافل الدولية. كما أنها لم تجعل من مبدأ الحياد وعدم الانحياز مبررًا للتخلف عن تصميمها على الحصول على القوة النووية. وإذا كانت الظروف الداخلية لهذه الدولة المليارية الكبرى والتهديدات التى أحاطت بها، سواء ببروز الصين كقوة نووية صاعدة اقتصاديًا وعسكريًا تمثل منافسًا قويًا فى آسيا، فضلاً عن علاقة بكين الوثيقة بباكستان، التى ظل نزاعها الدامى مع الهند بسبب قضية كشمير مصدرًا لمصادمات وحروب عديدة، والتى أخذت تطور بدورها برامجها النووية حين أجرت تفجيرها الأول عام ٧٦ أى بعد عامين من الهند.. قد ضاعفت من أسباب التعاون بين الهند وروسيا حين كانت دولة عظمى، فإنها أيضًا لم تتردد فى قبول المقاربات التى عرضتها إسرائيل على الصعيدين الاستخباراتى والعسكرى، حين تعرضت الهند لعقوبات اقتصادية بسبب برامجها النووية. وقد تطور هذا التعاون مع إسرائيل ليس فقط فى مجال المعلومات حول نشاطات «الإرهابيين»، وكيفية مواجهتهم ورصد أنشطتهم ولكن أيضًا فى تزويد الهند بتجهيزات رصد إلكترونية متقدمة لضبط المتسللين إلى أراضيها عند الحدود مع كشمير، وطائرات استكشاف بدون طيار، وأجهزة إنذار مبكر وصواريخ أرض. جو وغيرها من المعدات التى ضاعفت صادرات إسرائيل إلى الهند من السلاح بما يتجاوز صادراتها إلى تركيا، **وكانت الصفقة الأخيرة** التى تمت بعد زيارة شارون لدلهى فى أواخر العام الماضى تجاوز المليار دولار لشراء نظام رادار من طراز فالكون من إسرائيل. غير أن العلاقات التجارية لا تقتصر على السلاح، إذ تحقق تجارة الماس والأحجار الكريمة وحدها ١,٢ مليار دولار، تستوردها إسرائيل من جنوب أفريقيا ليتم صقلها وتقطيعها فى مراكز متخصصة لتقطيع الماس والأحجار الكريمة فى جايبور وغيرها من المدن الهندية ويعاد تصديرها إلى إسرائيل وأوروبا.

وفى هذا السياق يصعب تجاهل الموقفين العربى والإسلامى من قضية كشمير التى استغلتها باكستان فى الحصول على تأييد الدول العربية لأسباب دينية، وهو ما أدى إلى توسيع الفجوة فى العلاقات الهندية العربية، وزاد من مشاعر العداء الهندوسى للمسلمين فى الهند، والذين يزيد عددهم (١٤٠ مليونًا) عن تعداد باكستان نفسها. ولم يتوقف العرب طويلاً أمام اختلاف الوضع فى القضية الكشميرية عنه فى القضية الفلسطينية، بل انحازوا إلى باكستان بدافع من التعاطف الدينى، وصور الكثيرون مقاومة الكشميريين ضد الوجود العسكرى الهندى على أنه مثل نضال الشعب الفلسطينى ضد إسرائيل، مع أن جذور المشكلة الكشميرية أبعد ما تكون تاريخيًا وسياسيًا عن المشكلة الفلسطينية. إذ نشب الخلاف حول كشمير منذ اللحظة الأولى لانفصال باكستان كدولة مسلمة عن الهند، عندما قرر المهراجا الذى يحكم كشمير قبل الاستقلال أن ينضم إلى الهند. واستولت الهند على نصف أراضى كشمير تقريبًا، وباكستان على النصف الآخر. وفشلت بعد ذلك كل الجهود بما فيها وساطات الأمم المتحدة فى حل المشكلة الكشميرية التى تحولت إلى قضية كبرياء قومى دينى عند باكستان، وإلى قضية حفاظ على الوحدة والسيادة لدى الهند.. التى خشيت من أن يؤدى التفريط فى انفصال كشمير إلى تفكيك الدولة الهندية المتعددة الأديان والأصول والأعراق، وتشجيع النزعات الانفصالية لدى طوائف أخرى مثل السيخ!

على أن الولوج إلى النزاع الهندى الباكستانى حول كشمير قد يوقعنا فى مستنقع من الحجج والحجج المضادة لا قرار له، ويصرفنا عن مناقشة القضية الجوهرية التى تدعونا إلى لفت أنظار العالم العربى إلى التطور الهائل الذى شهدته الهند، والذى يوشك أن يضعها فى مصاف الدول العظمى خلال النصف الأول من القرن الحادى والعشرين، شأنها شأن الصين. فالعالم يشهد بمزيج من الإعجاب والدهشة والتوجس قيام شعبين عريقين من رقدة العدم: يشهد كيف نهض التنين الصينى من سباته ليحقق معدلات نمو غير مسبوقة (ما بين ٩ - ١٢٪ سنويًا) وينافس دولاً كبرى فى مجالات تجارية واقتصادية كانت حكرًا عليها، ويطور ترسانة مخيفة من الأسلحة النووية، ويحقق طفرة كبيرة فى مستويات المعيشة للشعب الصينى. ثم هو يشهد بدرجة لا تقل انبهارًا وذهولاً كيف ينطلق الفيل الهندى بجسمه الضخم (أكثر من مليار نسمة) وأقدامه الثقيلة، وذكائه المعجون بقدر كبير من الدهاء وسعة الحيلة، مع التمسك بالتقاليد والكبرياء القومى، ليشق طريقه وئيدًا واثقًا إلى صدارة العالم على قدمين واثقتين.. فى

أكثـر من ٦ مـلايين يعمـلون فى مختلف المستويات الوظيفيـة والإدارية والخدمية، يتدفقـون من شبـه القـارة الهندية إلى دول الخليـج، ويمثـلون أكبـر جالية أجنبيـة فى أى منطقـة فى العـالم، يصل حجم تحويلاتها إلى البلد الأم فى الهند نحو ١٤ بليون دولار سنوياً

التفاتة إلى الهند



مجالات جديدة حققت هدفها القومى الأساسى وهو الاكتفاء الذاتى من الحبوب والحاصلات الزراعية بعد سنوات من الفاقة والمجاعة، ثم امتلاك قوة نووية مدعومة بوسائل حملها من الصواريخ بعيدة المدى، ومصحوبة بنهضة تكنولوجية فى مجال الاتصالات والمعلومات بمعدلات نمو اقتصادى قد لا تصل إلى معدلات النمو فى الصين وإن اقتربت منها (ما بين ٥ - ٧٪).

وعلى الرغم من الوضع الاجتماعى المعقد والمركب الذى يسود الهند، حيث «يتعايش فيها الفقراء والعلماء، المتدينون والمثقفون، المنبوذون والصفوة، العمالة البسيطة ورجال الأعمال الكبار، أصحاب الصناعات الصغيرة وأصحاب الشركات المتعددة الجنسيات، أكبر الكتاب والأدباء فى اللغة الإنجليزية مع نسبة من الأمية تصل إلى ٤١٪، إلا أنها تفرز طبقة متوسطة قوية متعلمة تتراوح بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ مليون نسمة، أى أكبر عدداً من الشعب الأمريكى هى التى تحمل على عاتقها عبء التقدم وتحافظ على تقاليد الديمقراطية السياسية العريقة، وتفرز آلاف الكفاءات من المهندسين ومبرمجى الكمبيوتر والخبراء والعلماء، فى جو من الاستقرار السياسى المثير للإعجاب، والذى لم يعرف حالة انتكاس واحدة إلى الديكتاتورية والقمع وأحكام الطوارئ الذى عرفته عشرات من الدول التى نالت استقلالها فى وقت متزامن مع الهند، وذلك برغم الحروب التى خاضتها (أربع حروب مع باكستان والصين) والمذابح الطائفية التى لم تتوقف بين المسلمين والهندوس، وأجواء القلق والتوتر التى تعصف بالقارة الأسيوية، وتحصر الهند بين الصين من ناحية، والنمور الأسيوية الصغيرة من ناحية أخرى، واليابان وكوريا الجنوبية من ناحية ثالثة.. وكلها تجرى فى سباق مع الزمن ومع التحديات الاقتصادية ومخاطر العولمة وحمى المنافسة.

لاجدال فى أن أحداث سبتمبر ٢٠٠١ كانت فرصة ذهبية غير متوقعة لإزالة كثير من العقبات فى طريق صعود الهند إلى مصاف الدول العظمى. وحين أذيعت أخبار الهجوم الذى وقع على واشنطن ونيويورك، عقد إتال بيهارى فايجباى رئيس الوزراء اجتماعاً عاجلاً مع مستشاريه، وقرر دون تردد مساندة الهند الكاملة للولايات المتحدة. وكان الدافع وراء هذا القرار هو الاستنزاف الذى سببته الحرب بالوكالة التى تجرى بين باكستان والهند فى منطقة كشمير المتنازع عليها منذ عقود، حيث ظلت أجهزة المخابرات الباكستانية تساعد «الجهاديين» الإسلاميين الذين يقودون حركة انفصالية فى كشمير ضد السيطرة الهندية. فإذا نجحت الهند فى تحويل هذا النزاع الدامى إلى فصل من فصول الحرب التى تقودها أمريكا ضد الإرهاب العالمى، واستغلال العلاقات الوثيقة بين باكستان وتنظيم القاعدة لتصوير الهند كضحية للإرهاب الأصولى الإسلامى، فإنها تكون قد تغلبت على أهم العقبات التى تعترض طريقها إلى عصر العمالقة وكسبت تأييد الولايات المتحدة.

كانت العلاقات الهندية الأمريكية قد شهدت بعض التحسن أثناء رياسة كلينتون بعد مرحلة من الفتور عقب التجارب النووية التى أجرتها الهند عام ٩٨، عندما تدخل كلينتون بقوة لدى باكستان لسحب قواتها التى دفعت بها إلى كشمير وأوشكت أن تنشب حرب بين الجانبين، وأعقبها بزيارة رسمية للهند. ثم لم يلبث بوش أن استمر فى سياسات التقارب مع الهند، التى اعتبرها فى إطار استراتيجيته الجديدة نقطة توازن مهمة فى آسيا لو ساءت العلاقات مع الصين لأى سبب من الأسباب، غير أن نقطة التحول الحقيقية فى العلاقات جاءت فى اطار «الحرب ضد الإرهاب». ودخل هذا «التحول» مرحلة تعاون أمنى وثيق بين واشنطن ونيودلهى، أفضى إلى رفع العقوبات عن الهند وإلغاء الحظر النووى - فى هدوء - على ما يعرف بالتكنولوجيا المزدوجة التى يمكن أن تستخدم فى أغراض مدنية وعسكرية فى وقت واحد، وسمحت واشنطن لإسرائيل بتزويد الهند بأنظمة جوية وأنظمة إنذار مبكر، وبمحركات لطائرات مقاتلة، وأنظمة رادار تصلح للطائرات الروسية، ولم تعلق واشنطن كثيراً حين أجرت الهند تجاربها على قذائف صاروخية من طراز «أجنى» فى نهاية عام ٢٠٠٠. وارتفع حجم الصادرات الهندية إلى أمريكا ليصل إلى ١٠ مليارات دولار مقابل ٤ مليارات واردات من أمريكا.

غير أن تطور العلاقات الأمريكية الهندية وصل إلى ذروته حين وقع الطرفان «اتفاق الشراكة الاستراتيجية» بعد زيارة قام بها فاجباى لأمريكا فى أواخر العام الماضى ٢٠٠٣، وفى أوائل ٢٠٠٤ صدر بيان حول التعاون الاستراتيجى بين البلدين فى أربعة مجالات رئيسية:

- فى مجال الهاى تك (التكنولوجية المتطورة).
- فى الاستخدام السلمى للطاقة النووية.
- فى الاستخدام السلمى لأبحاث الفضاء.
- فى مجال أبحاث الصواريخ الدفاعية (الصواريخ المضادة).

وهو ما يعد إنجازاً استراتيجياً مهماً، حصلت عليه الهند مقابل مساعداتها القيمة فى تعقب فلول القاعدة وطالبان الذين كان بعضهم قد لجأ إلى منطقة القبائل الباكستانية وإلى كشمير. ولعبت أمريكا وبريطانيا أدواراً مهمة فى حمل الرئيس الباكستانى برويز مشرف على تعديل سياساته تجاه قضية كشمير والموقف العدائى من الهند.

وفى اجتماع القمة الذى عقدته مجموعة دول اتحاد جنوب شرقى آسيا وهى منظمة للدفاع عن المصالح الاقتصادية وتعزيز التعاون الاقتصادى بينها، التقى فاجباى ومشرف واتفق الطرفان على بدء مرحلة جديدة من الحوار على طريق السلام، لحسم «النزاع حول كشمير» تخلت باكستان عن دعمها للميلشيات الإسلامية المسلحة فى كشمير، ووافقت على عدم التمسك بحق تقرير المصير لشعب كشمير، وفى المقابل وافقت الهند على تسوية القضية بالطرق السلمية وإعادة العلاقات الدبلوماسية وطرق المواصلات بين البلدين لبناء جو من الثقة.

وتحت مظلة التعاون الاستراتيجى مع أمريكا تتحرك الهند على محاور ثلاثة: حل مشاكلها الحدودية مع الصين، وتوسيع نطاق التعاون الاقتصادى (٧ مليارات دولار حجم التجارة بينهما)، والتوصل إلى تسوية سلمية لكشمير، وخلق منظمة قوية للتعاون الاقتصادى لدول جنوب شرق آسيا.

منذ انتهت الحرب الباردة، وتفككت كتلة دول عدم الانحياز، وانهارت الوحدة العربية فى غمرة خلافات طاحنة بسبب الفشل الذريع فى إدارة الصراع العربى الإسرائيلى من ناحية، وظهور تجمعات عربية خارج إطار الجامعة العربية من ناحية أخرى، اشتدت المنافسة على رهان أثبت أنه رهان خاسر، هو الولايات المتحدة الأمريكية حيناً والاتحاد الأوروبى حيناً آخر، أو الاثنين معاً فى معظم الأحيان. وفى المقابل شهدت العلاقات العربية - الأسيوية فتوراً شديداً، على مستوى التعاون السياسى والاقتصادى والثقافى، وإن بقيت الصلات الإنسانية من خلال العمالة الأسيوية الكثيفة فى منطقة الخليج، بمثابة جسر من التواصل لا ينقطع.

وخلال العقدين الأخيرين لمع نجم الصين كدولة عظمى تملك قدرة الدفاع عن مصالحها بل وفرضها إذا لزم الأمر، وأعقبتها الهند، التى أخذت تشق طريقها بسرعة كبيرة لتتبوأ مكانها كقوة عالمية صاعدة. ويتنبأ كثير من الخبراء بأنه إذا كان القرن الواحد والعشرون قد بدأ أمريكياً، فقد لا ينتصف قبل أن يكون أسيوياً. وتدرك الدولتان الكبريان فى آسيا: الصين والهند، أن مستقبلهما رهن بقيام تعاون وثيق، تلتف حوله سائر الدول الأسيوية لتشكل فى الشرق مركز قوة عالمية توازن أمريكا وأوروبا فى الغرب.

من هنا تبدو الحاجة ملحة لكى يعيد العرب النظر فى توجهاتهم لإعادة بناء نسق مستقر ومستقبلى لعلاقات وثيقة مع العملاقين الصاعدين فى آسيا، وربما كانت الهند أقرب تاريخياً وجغرافياً وثقافياً إلى العالم العربى، بل ربما كانت هى الجسر الذى يربط العرب بآسيا. ويكفى أن تنظر إلى أجمل جوهرة فى التراث المعمارى الهندى «مقبرة تاج محل» الحالمة على بعد مائتى كيلو متر من دلهى، تلك التى شيدها سلطان مسلم لحبيبته ورفيقة حياته فى القرن السابع عشر، لتدرك عمق التأثير الذى تركه الحكام المسلمون من المغول على العقل الهندى والحضارة الهندية.. ذلك المزيج الغريب المتفاعل الذى جمع بين الهندوسية والإسلام فى أمة واحدة! ■

أدركت الهند - على عكس مصر - أن عدم الانحياز ليس إلا ثوباً شفافاً رقيقاً لا يحمى أصحابه من برد الشتاء أو قيظ الصيف. ومن ثم فلابد من بناء قوة ذاتية قادرة على الدفاع عن نفسها ضد الأخطار القائمة والمستقبلة

عندما اعتمد مبدأ تقرير المصير لجنوب السودان، دلفت السياسة السودانية إلى منعطف غير مسبوق. فقد صعّد الجنوبيون مطلبهم التاريخى بتطبيق اللامركزية الفيدرالية درجة أخرى إلى مطلب يحتمل الانفصال. وما أن وافق المفاوضون الحكوميون على المطلب الجديد فى لقاءات فرانكفورت بألمانيا عام ١٩٩٢ حتى سارعت الحركة السياسية، حاكمة ومعارضة، شمالية وجنوبية، إلى تبنيه فى مواقفها وأدبياتها. ومن ثم دخل مبدأ تقرير المصير فى صلب مبادرة الإيقاد عام ١٩٩٣، واتفاقية الخرطوم للسلام عام ١٩٩٧، ثم الدستور الحالى المجاز فى عام ١٩٩٨، وأخيراً فى بروتوكول مشاكوس عام ٢٠٠٢. بمقارنة هذا التطور الجوهرى فى الموقف من مبدأ تقرير المصير تأهلت المرحلة الراهنة لأن توصف بأنها منعطف غير مسبوق يحمل فى طياته الكثير من المهام الجسام والمخاطر المعضلة. ولا يعنى هذا المقال بتوجيه القدح أو المدح لمبدأ تقرير المصير، أو الطريقة التى اعتمد بها، بقدر ما يعنى بالنظر إليه وإلى مآلاته باعتباره حقيقة سياسية عملية ماثلة ستترتب عليها نتائج مهمة ومعقدة على مستوى الإقليم وإفريقيا.



غازى صلاح الدين العتبانى

لقد أحدث الدخول السريع المستقر لمبدأ تقرير المصير فى وثائق السياسة السودانية مسلكاً مبايناً لمسلك القوى السياسية الشمالية قبيل استقلال السودان. يومذاك رفضت الأحزاب الشمالية حتى مبدأ اللامركزية الفيدرالية باعتباره دعوة انفصالية متنكرة. واليوم تتباهى تلك القوى وتتنافس فى إعلان موقفها المؤيد لتقرير المصير من منطلقات مبدئية، ومنها ما يضفى عليه قداسة خاصة باعتباره حقاً شرعياً سماوياً تكفله الأديان. لكن الحركة السياسية الشمالية فى السودان تكاد تتفق على أن المسعى نحو تقرير المصير ينبغى أن يتوج بوحدة طوعية. والتعبير بلفظة «تكاد» مقصود لأن تيارات ناشئة فى الشمال اليوم أخذت تدعو إلى الانفصال صراحة، وهو شىء فريد بالمقاييس التقليدية وينبغى أن يولى عناية واهتماماً إذا ما تحول إلى تيار نام.

الموقف المقابل للحركة السياسية الشمالية هو موقف الحركة السياسية الجنوبية. تاريخياً حدث استقطاب بين كتلة جبهة الجنوب ذات النزعة الانفصالية وكتلة حزب سانو ذى النزعة الوحدوية على أساس الفيدرالية. ربما تعدلت هذه المواقف التاريخية كثيراً نحو تقوية النزعة الانفصالية، لكن هذا مما يصعب قياس مداه وتجذره بدقة فى ظل الاستقطاب الحاد الحالى الذى أحدثته الحرب. كما أن الحالة النفسية النهائية للجنوبيين يمكن أن تتحول إيجاباً نحو الوحدة على خلفية النتائج العملية للسلام.

إزاء تلك المواقف السودانية الداخلية من تقرير المصير، تبدو المواقف الخارجية متفاوتة ومتأرجحة. فبينما ثبتت مصر على موقفها الرافض للمبدأ استناداً على اعتبارات استراتيجية معلومة، تراوح الموقف الغربى بين نظيرين متداخلين: الأول هو قبول للمبدأ بكل احتمالاته، والآخر هو قبول مقيد يرمى إلى استخدام المبدأ لانتزاع مكاسب تفاوضية من الحكومة المركزية والوقوف عند ذلك الحد، أى دون الوصول عملياً إلى نهايات انفصالية. وهذا النظير الأخير للموقف الغربى هو النسخة التى بدأت الآن تكتسب قبولاً أوسع لأسباب استراتيجية سيأتى ذكرها. ولا بد من الإشارة هنا إلى خطأ الاعتقاد الشائع بتطابق الموقفين الجنوبى والغربى. إنه اعتقاد لا يصح بصورة غير مقيدة، وليس بمستبعد أن يصطدم الموقفان فى لحظة ما بسبب اختلاف التطلعات والمصالح.

التفاعل النشط داخل هذه الأصعدة الثلاثة (الشمال، الجنوب، والقوى الخارجية)، وفيما بينها، سيحدد الإجابة النهائية لما إذا كان سيبقى السودان موحداً أم سينشطر إلى دولتين أو أكثر. ومن هنا تصدر أهمية البحث المدقق فى بواطن هذه الأصعدة الثلاثة واستطلاع تفاعلاتها وتداخلاتها.

لقد سيطر الشمال على مجريات السياسة المركزية منذ الاستقلال. أى أن الرؤى التى تبنتها الأحزاب الشمالية هى التى شكلت الخيارات الوطنية المعتمدة. ومن بين تلك الرؤى التى ترسخت عبر ممارسة متطاولة هى المركزية فى الإدارة والحكم. مرد ذلك بصورة عامة هو تأثر الطبقة السياسية التى تحقق على يديها الاستقلال بالنموذج البريطانى. وقد كان اختياراً طبيعياً ومتوقعاً خاصة أن القوى الاستعمارية غادرت على شىء من العجلة، إثر تنامى الحركة التحررية فى المستعمرات بعد الحرب العالمية الثانية، فى ذات الوقت الذى تصاعدت فيه الدعوة داخل المؤسسات السياسية للدول الاستعمارية نفسها لإنهاء الاستعمار اعتباراً بحقائق ما بعد الحرب. تلك التحولات السريعة لم تعط الحركة الوطنية وقتاً كافياً لابتلاء خياراتها الأخرى فى الحكم والإدارة والمفاضلة بين كل النظم المجربة فى العالم. وقد أعد الدستور الانتقالى بسرعة تناسبت مع السرعة التى غادرت بها الكتائب العسكرية الاستعمارية، فكان حتماً أن ينسخ واضعو الدستور من أقرب النماذج المتاحة لهم.

بخلاف خيار المركزية، طرحت الحركة السياسية الجنوبية خيار اللامركزية الفيدرالية ضمن سودان موحد، وقد كان طرحاً متقدماً بالنسبة للفكر السائد. لكن ذلك المطلب رفض لسبب رآته الأحزاب الشمالية بدهياً وهو غموض مقتضيات الفيدرالية ونتائجها على وحدة السودان. ومن هنا نشأ الصراع السياسى وتطور إلى حروب فى دورات متجددة.

ثم إن الحركة السياسية الشمالية بدأت تلين تجاه فكرة اللامركزية بسبب نمو وعيها السياسى، وأيضاً لإدراكها صعوبة حكم السودان بصيغة مركزية قابضة، بل استحالته. ظهر ذلك أولا فى مرحلة متقدمة فى الفترة الحزبية الثانية (٦٤-١٩٦٩) فى أطروحات جبهة الميثاق الإسلامى. لكن اللامركزية متمثلة فى صيغة الحكم الذاتى وجدت طريقاً للتطبيق العملى، متجاوزة الطرح النظرى، فى فترة حكم الرئيس جعفر نميرى بعد توقيع اتفاقية أديس أبابا فى عام ١٩٧٢، وسرعان ما ظهرت الحكمة من تبنى اللامركزية حينما نعمت البلاد بسلام ووحدة داما أحد عشر عاماً.

لكن تلك التجربة تعرضت لانتكاسات بأسباب يمكن تقصيها فى المركز والجنوب كليهما. فى المركز قصرت التجربة عن تطوير الصيغة اللامركزية

.. الطريق الصعب إلى الوحدة



وإجراء التعديلات الضرورية عليها، خاصة أن السياسة كانت تمضى وفق سنن تستأهل المواكبة والتجديد. ومحاولة التطوير الأساسية التى أجريت بإعادة تقسيم الجنوب إلى ثلاث ولايات فسرت بأنها نقض للاتفاقية. وفى الجنوب، احتدمت صراعات الجنوبيين القبلية وتوسلت كل فئة بالكيد للفئة الأخرى حتى تنتصر لرأيها.

الموقف فى الشمال الآن يتعرض لتحورات شبه جذرية على خلفية تطاول المشكلة وتصاعد تكاليفها وازدياد قناعة قطاع متنام من الشماليين بأن المسألة قد خرجت من كونها قضية عادلة وأصبحت أداة للابتزاز بواسطة الغرب وحلفائه المحليين. وتزداد هذه القناعة بسبب أن تقرير المصير قد أصبح الآن مبدأ مقراً يمكن الرجوع إليه فى حالة الاختلاف على شروط التعايش فى صيغة موحدة، ولم يعد من سبب لاستخدام قضية الجنوب لاقتضاء رطل لحم إضافى من فخذ الشمال نفسه. ويحتج هذا الفريق، الذى بدأ يعلو صوته مؤخراً، بأن خيار تقرير المصير، فى ظل المعطيات الراهنة، لا ينبغى أن ينظر إليه باعتباره الخيار الثانى أو الأسوأ وإنما الخيار الأول والأفضل، وإلى تلك الغاية ينبغى أن يمضى التفاوض. قد يختلف المراقبون فى تقويم هذه التحورات ومدى رسوخها وجديتها وتعبيرها عن إرادة حقيقية أو تيار جاد فى السياسة الشمالية، لكن لا اختلاف على أن هذا النوع من الخطاب الذى لم يكن مقبولاً أو متصوراً إلى وقت قريب أصبح يعبر عن نفسه بثقة غير معهودة.

هذا التيار الانفصالى الحادث بخطابه الجديد يقابله تيار آخر لم يكن معهوداً فى السياسة الشمالية إلى وقت قريب. وهو التيار الذى تشكله القوى الشمالية المؤمنة بإقامة تحالفات استراتيجية مع القوى الجنوبية والاستنصار بها فى دفع قضاياها على الساحة المركزية. هذه الظاهرة تمثلها الآن صيغة التجمع الوطنى والمحالفات السياسية الأخرى خارج التجمع بين الحركة الشعبية من ناحية وحزب الأمة، والمؤتمر الشعبى من ناحية أخرى. بالإضافة إلى تلك القوى السياسية التقليدية هنالك القوى الجهوية أو قوى الريف فى الشمال التى أخذت تنشئ علاقات أبلغ وأشد استراتيجية مع الحركة الشعبية كما يرى الآن فى بعض مناطق دارفور وجنوب كردفان. وتتفاوت درجة الارتباط فى علاقات تلك القوى كافة بالحركة الشعبية من استراتيجية إلى انتهازية ظرفية، لكنها فى كل الحالات تظل متغيراً مهما فى تشكيل الواقع السياسى وصياغة التحالفات عبر حدود الشمال والجنوب التقليدية.

وإذا أخذنا الساحة الجنوبية نجد ان الموقف من الوحدة أكثر تعقيداً مما يبدو. فالافتراض صحيح بأن العاطفة الغالبة الآن هى انفصالية، لكن الواقع الجنوبى أكثر تعددية وتنوعاً من الشمال وأقل تماسكاً داخلياً مبنياً على ثقافة موحدة. فلا التركيبة العرقية، ولا التطور السياسى والاجتماعى لمناطق الجنوب المختلفة ومجموعاته السكانية، ولا التطلعات المستقبلية، ولا العلاقات التاريخية والسكانية لتلك المناطق والمجموعات مع الشمال تجعل من الجنوب وحدة متماسكة تجاه أى قضية بعد أن يأتى السلام. أى أن الوحدة الظرفية والاستثنائية التى نشأت فى الجنوب بسبب الحرب وتجسد الخصومة مع الشمال مرشحة لانفراط كبير على سفوح جبال من التناقضات والاختلافات والصراعات الجوهرية على الرؤى والمصالح. وهذا هو الذى يفسر حقيقة أن فرص الجنوبيين بعد السلام فى إيجاد حلفاء شماليين هى أقوى من فرصهم فى استبقاء أحلافهم الجنوبية. وهذا تحديدا ما يفسر حرص الحركة الشعبية وزعيمها جون قرنق على تقوية أحلافهم الشمالية وتنميتها، لعلمهم بصعوبة إقامة أحلاف جنوبية قوية واستدامتها. ولهذا لاينبغى أن يكون مفاجئاً، فى سياق تطبيق اتفاقية السلام، أن نشهد نمو الصوت الانفصالى فى الشمال وتضاؤله فى الجنوب.

هذه التيارات المتقاطعة حيناً والمتعاضدة تارة ستجعل التصور للموقف النهائى من الوحدة سواء فى الشمال أو الجنوب أكثر تعقيداً مما هو شائع. والأهم من ذلك هو أن هذه الحقائق ستجعل الصيرورة النهائية إلى الوحدة أو الانفصال ميداناً واسعاً لتأثيرات القوى السياسية الشمالية أو الجنوبية حسب كفاءتها السياسية ومقدرتها على تشكيل الأحداث. ومن هنا لا بد من الأخذ فى الاعتبار الصعيد المؤثر الثالث وهو القوى الخارجية. فتفاعل هذه الأصعدة الثلاثة هو الذى سيملى المصير النهائى لرحلة السودان إلى الاستقرار والوحدة.

بالنسبة لمصر فإن الموقف الاستراتيجى من الانفصال ومن أداته القانونية وهو تقرير المصير سيظل كما هو. فليس هناك ما يدعو مصر لأن تتنازل عن موقفها وقد أخرجتها القوى الدولية الأخرى من معادلات الحل. قد يخفت صوت مصر فى تكرار التعبير عن موقفها من باب الواقعية السياسية، وأيضاً مراعاة لعلاقاتها مع القوى السياسية بالجنوب، لكنها يبعد أن تتنازل عن موقفها تماماً بلا مبرر واضح. وبدلاً من تبنى موقف جامد يغلب أن تدخل مصر ساحة المنافسة، وحق لها، بإنشاء علاقات متينة مع القوى الجنوبية عامة والوحدوية منها بصورة خاصة. وربما دفعت دولاً عربية أخرى، فرادى وعبر الجامعة العربية، لتبنى مواقف مشابهة، والهدف من ذلك هو التأثير على تلك الساحة المشتجرة بالمتغيرات بغية الانتصار النهائى لخيار الوحدة.

بالنسبة للدول الإفريقية عامة والمجاورة للسودان خاصة، فإنها وإن بدأت متحمسة لخيار تقرير المصير لكن احتمالات الانفصال العملى ستشكل هاجساً مقلقاً لها. والسبب هو أن الانفصال لو حدث سيكون سابقة قوية لانتهاك ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية الذى قضى باعتماد الحدود الاستعمارية اعتماداً نهائياً. ولا يجوز القياس على الحالة الإريترية لأنها كانت مسنودة بقرارات دولية، وهى بذلك كانت حالة استقلال وليست حالة انفصال. لكن الذى سيحدث فى جنوب السودان إذا ما قرر الجنوبيون الانفصال هو بالتكييف القانونى انفصال وليس استقلالاً. وهو ما سيفتح الباب على مصراعيه لانفصالات أخرى غير متناهية فى إفريقيا التى تزدحم خارطة بلدانها بخطوط التصدع العرقية والجهوية. ولا شك أن حدثاً كهذا سيفتتح فصلاً استثنائى الملامح والاحتمالات فى تاريخ إفريقيا منذ أن وجدت.



بالنسبة لمصر فإن الموقف الاستراتيجى من الانفصال ومن أداته القانونية وهو تقرير المصير سيظل كما هو. فليس هناك ما يدعو مصر لأن تتنازل عن موقفها وقد أخرجتها القوى الدولية الأخرى من معادلات الحل

بالنسبة للدول الغربية فإن نظرتها للانفصال سترتبط كالعادة بتقديرات مصالحها أكثر من اعتبارات الاستقامة على مبدأ منزه من الغرض نحو حق الجنوبيين فى الانفصال. وتقديرات المصلحة ستجعل من الانفصال كارثة على الترتيبات الغربية الراهنة لإفريقيا. ويمكن التدليل على ذلك بخمسة أسباب:

الأول: هو أن الانفصال سينشئ دولة جديدة فى جنوب الشمال الراهن. ومجرد نشوء دولة جديدة يستدعى مواءمات وتكيفات جديدة على الصعيد الإقليمى وفى الساحة العالمية. وهذه مسألة ذات تكاليف مادية وسياسية.

الثانى: هو أن تلك الدولة الناشئة من الانفصال ستكون معلولة من عدة وجوه. هناك شك فى مبدأ مقدرتها على إقامة كيان حقيقى عامل لدولة حديثة، وذلك على خلفية كثافة تباينها العرقى القوى، مقارنة بالمشكلات الشبيهة فى دولة كرواندا مثلاً وهى التى يقطنها عرقان رئيسيان فقط، أو الصومال التى يقطنها عرق واحد. وهى ستكون دولة محبوسة ليس لها منافذ إلى البحر وستبقى تحت رحمة دولة الشمال من ناحية وكينيا من ناحية أخرى فى صادراتها ووارداتها الرئيسية عبر البحر، وهى ستكون دولة بلا بنيات أساسية نسبة لحالة الجنوب المعلومة بسبب الحرب المتطاولة.

الثالث: هو أنه من المستحيل أن تظل العلاقة بين الدولة الناشئة فى الجنوب والكيان الأم فى الشمال علاقة صداقة أو تعايش. والمؤكد هو أن العلاقة ستكون مأزومة وستتطور فى فترات إلى حروب. وتاريخ الانفصال فى الدول النامية كلها يؤيد ذلك. ابدأ من الهند وباكستان، اللتين تهدد المواجهة بينهما العالم كله بحرب نووية، وكوريا الشمالية والجنوبية حالة أخرى مماثلة، مروراً بسابقة انفصال باكستان الشرقية (بنجلاديش لاحقاً) وباكستان الغربية، وتجربة اليمنين، ثم يوغسلافيا السابقة، وانتهاءً بتجربة استقلال اريتريا. لقد خلفت كل تلك التجارب جروحاً ما تزال نازفة وأدت إلى زعزعة السلم الإقليمى فى الحد الأدنى. وفى مثل هذا الصراع ستكون الدولة الجنوبية الأقرب إلى الغرب هى الأضعف بسبب موقعها الجغرافى وتكوينها العرقى وعوامل تفككها الداخلى وهشاشة تطورها التاريخى. كما أن أطماع الدولة الشمالية وتفسيرها لحقوق مجتمعات التماس الشمالية ذات المصالح فى العمق الجنوبى، ونظرتها لمشروعية الانفصال فى المبدأ، وذكرياتها المريرة عن كلفة الحرب، كل هذه العوامل ستدفع الدولة الشمالية لأن تتخذ موقفاً عدائياً، مستتراً أو معلناً، تستبيح به التدخلات المتنوعة فى الجنوب بغية تعميق الصراعات داخله.

الرابع: هو أن علاقة مأزومة كهذه ستعنى عملياً نهاية أحلام الدول الغربية فى الاستفادة من الإمكانات الاقتصادية والتنموية للسودان الموحد، فى مجال البترول وغيره. وسيعنى أن الاستراتيجية البترولية الجديدة للغرب التى تنحو إلى تقليل الاعتماد على بترول الخليج قد تحطمت على صخور الانفصال. وتتقوى هذه الحقيقة بسبب أن مناطق انتاج البترول الحالية هى حول حدود التماس بين الشمال والجنوب وهى أكثر المناطق عرضة لأن تصبح مسرحاً للمواجهة والصراع.

الخامس: هو كما ورد سابقاً فإن انفصال جنوب السودان سيوفر سابقة قانونية حاسمة تفتتح باب الانفصالات وإعادة رسم الحدود فى إفريقيا بصورة لا يبدو أن العالم الغربى مهيأ للتعامل مع تبعاتها ومقتضياتها الآن. فضلاً عن أن تبنى الانفصال قد يوقع الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص فى تناقض مصالح مع حلفائها الإقليميين فى المنطقة العربية، وهو ما لا تفضله فى سياق مصاعبها الراهنة مع الروح العدائية تجاهها فى العالمين العربى والإسلامى، وأيضاً فى سياق ما تصنفه بأنه معركتها ضد الإرهاب والتعقيدات التى واجهت حملاتها عليه فى العراق وافغانستان.

من هذا تتبين صحة الاعتقاد بأن الغرب يتبنى مبدأ تقرير المصير من منطلق يختلف بدرجة ما عما قد ينطوى عليه الموقف الجنوبى. إنه يرمى إلى استخدام المبدأ رافعة تفاوضية تحقق أكبر المكاسب له. وأكبر المكاسب للغرب ليست بالضرورة متطابقة مع المكاسب الجنوبية، بل قد تكون متقاطعة معها أحياناً. تلك المكاسب تتمثل فى شيئين رئيسيين:

أولاً: المكاسب الاقتصادية المذكورة آنفاً، وثانياً: المكاسب الثقافية بجعل ارتباط الجنوب مع الشمال فى صيغة موحدة أداة لكبح ما يصفونه بالاتجاهات المتطرفة فى الشمال. تلك الاتجاهات التى أبدت نفسها فى الثورة المهدية، ثم فى الميل العفوى فى السياسة السودانية الشمالية للاقتباس من الأطروحات العروبية والإسلامية.

إن تبنى الغرب لهذا الموقف أو بالأحرى تفضيله إياه لا يعنى أنه قد أسقط خيار الانفصال بالكلية. أو على الأقل لا يعنى أن بعض الدوائر فى الغرب قد أسقطت هذا الخيار، إذ علينا أن نتذكر أن الغرب، خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، يعج اليوم بالحركات والتيارات الدينية والإيديولوجية التى ترى الأمور بغير منظار المصالح الذى تراها به الحكومات. لكن الانفصال سيبقى الخيار المتأخر فى مرتبة الأولويات.

هذه الأصعدة الثلاثة وتفاعلاتها ستعمل على خلفية واقع نشط التحولات، ستفرزه اتفاقية السلام. إذ تتحدث الاتفاقية عن خمس خطوات هى المدخل إلى خمس مراحل مهمة لإحداث التحولات السياسية الضامنة لتطبيق الاتفاقية ولاستدامة الأيلولة النهائية للوضع فى السودان، سواءً الوحدة أو السلام المشروط بصيغ محابية أو جاذبة للجنوب.

المرحلة الأولى: هى تشكيل حكومة القاعدة العريضة، التى نص عليها بروتوكول مشاكوس، فور توقيع اتفاق السلام. وبمقتضى ذلك ستدخل إلى دائرة الحكم قوى ظلت حتى الآن فى موقع المعارضة طيلة السنوات الخمس عشرة الماضية.

المرحلة الثانية: هى إعادة صياغة الدستور الوطنى عبر الجهد الوطنى الجامع لمراجعة الدستور، وهو ما سيجرى فى الأشهر الستة الأولى بعد توقيع الاتفاقية (الفترة قبل الانتقالية) بمشاركة واسعة من القوى السياسية والاجتماعية.

المرحلة الثالثة: تمثلها مهمة تقويم تطبيق الاتفاقية من خلال لجنة مكونة من طرفى الاتفاق بالإضافة إلى ضامنى الاتفاق من الدول والمنظمات الإقليمية والعالمية، وذلك فى السنوات الثلاث الأولى من الفترة الانتقالية الممتدة ست سنوات.

المرحلة الرابعة: هى الانتخابات العامة التى ستجرى تحت إشراف حكومة القاعدة العريضة نحو نهاية النصف الأول من الفترة الانتقالية.

المرحلة الخامسة والأخيرة: هى إجراء الاستفتاء بين الجنوبيين لتقرير المصير السياسى للجنوب فى نهاية الفترة الانتقالية. وبرغم أن هذا الحدث يبدو كأنه يعنى المواطنين الجنوبيين حصراً، إلا أنه لا تخفى قابليته لإيجاد تحالفات واستقطابات واسعة داخل كل الساحة السياسية الوطنية، شمالية وجنوبية، وبين القوى الوطنية والأخرى الخارجية.

هذه المراحل الخمس توفر خلفية مزدحمة بالمعطيات والمتغيرات والمحركات التى من شأنها أن تتفاعل مع ما يحدث داخل الأصعدة الثلاثة المذكورة آنفاً،

وحصيلة تلك التفاعلات هي التي ستحدد المصير النهائي للسودان.

من هذا المنطلق ينبغي فهم التحديات والواجبات التي تميز المرحلة المقبلة حالما توقع اتفاقية السلام النهائية.

أولاً: هناك التحديات والمصاعب الناشئة من تفسير نصوص الاتفاقية قبل تطبيقها. هنا ستبرز المعضلة الرئيسية الأولى والتي تتمثل في أن نصوص الاتفاقية تجعلها أكثر من كونها محض اتفاقية سلام. فهي تحتوي على تفصيلات كثيرة ومعقدة تقترب بها من أن تكون محاولة صياغة دستور جديد متكامل. وهي بذلك تضع الأسس لتحولات كبرى في نظام الحكم والاقتصاد وما يحدثه ذلك من وقع على المجتمع كله. وفي وجود تفصيلات كهذه لا بد أن يقع تعارض، ولو جزئياً، بين المفاهيم والنصوص المكونة للاتفاقية بما قد يؤدي إلى اختلاف مشكل. وعلى سبيل المثال فإنه الآن، حتى قبل اكتمال نصوص الاتفاقية، يبرز تناقض بين المقتضى الكلي لاتفاق مشاكوس فيما يتعلق بنظام الحكم، وهو النظام اللامركزي الفيدرالي، وبين ما تقتضيه اتفاقيتا الترتيبات الأمنية وقسمة الثروة وهو النظام الكونفدرالي. ولا يخفى أن الخلاف حول اعتماد أي من المقتضيين إطاراً لتفسير النصوص يستدعي جدلاً كبيراً.

ومن ناحية ثانية تبرز المصاعب الفنية والسياسية التي تفرضها ضرورة الاتفاق بين مجموعات سياسية متنافسة حول جملة من التكوينات التي تدعو إلى إنشائها الاتفاقية، وكذلك بعض المسائل الأخرى المهمة المنصوص عليها. ويمكن تلخيص هذه الأشياء في ما يلي:

❖ تكوين حكومة القاعدة العريضة بعد توقيع الاتفاقية مباشرة

❖ إعادة تشكيل مؤسسات الحكم والتشريع كافة، في المركز والولايات والحكومة الإقليمية في الجنوب

❖ تشكيل المفوضيات الوطنية، مثل هيئة الانتخابات العامة، ومفوضية البترول.. إلخ

❖ تشكيل لجنة مراجعة الدستور في الفترة قبل الانتقالية

❖ تشكيل آلية التقويم المنصوص عليها في بروتوكول مشاكوس والتي تضم إلى طرفي الاتفاقية أطرافاً دولية وإقليمية.

❖ إجراء الانتخابات العامة في النصف الأول من الفترة الانتقالية

❖ الاتفاق حول إجراءات تقرير المصير وترتيباته في نهاية الفترة الانتقالية

❖ تبعات تطبيق اتفاقية الترتيبات الأمنية والتعقيدات التي سترتبط بها، خاصة فيما يتعلق بتقليص القوات، وإعادة إدماجها، وكذلك إعادة انتشارها

❖ الآثار العملية لتطبيق اتفاقية قسمة الثروة بين الجنوب والحكومة المركزية، والجدل الذي قد ينشأ في الولايات الشمالية حول هذه القسمة في ظل إحساس قوي بأن الولايات الشمالية قد خرجت صفر اليدين من القسمة

❖ إعادة اللاجئين من دول الجوار

❖ ترتيب أوضاع النازحين وإعادة توطينهم في الجنوب

❖ توظيف موارد التنمية وإعادة التأهيل من المصادر الداخلية والخارجية وتوزيعها بعدالة بين الولايات

❖ استمرار العمليات الإنسانية بمفاهيم جديدة وفي ظل أوضاع مختلفة عما هي عليه الآن

❖ آثار النفوذ الخارجي بسبب الضمانات والرقابة الدولية على الاتفاقية ومقتضيات التعامل معه

ثانيا، هناك التحديات المصاحبة لتطبيق نصوص الاتفاقية وإن لم تتعلق بالنصوص ذاتها. وهي يمكن تلخيصها في ما يلي:

❖ التحولات السياسية الكبرى نتيجة لوقف الحرب ودخول الحركة الشعبية وحلفائها المحليين والإقليميين والعالميين، إضافة إلى دخول قوى أخرى، إلى دائرة الفعل والتأثير في ساحة العمل السياسي المشروع

❖ التحولات الاقتصادية بسبب الاهتمام المتزايد بالسودان والإقبال عليه بالاستثمار والتنمية بعد توقف الحرب، وما يجلبه ذلك من مشكلات التكيف الاقتصادي واحتمالات النمو السريع غير المتوازن

❖ التحولات الاجتماعية والسكانية التي ستحدث حتماً نتيجة للتحولين السابقين، وبصفة خاصة مشكلات التحول السريع في مجتمعات التماس بين الشمال والجنوب من حيث علاقاتهم المحلية وتغير أنماط حياتهم والمشكلات الأمنية المترتبة على ذلك.

إن هذه التحديات والمعضلات لتبرز جسامة الأعباء التي تنتظر الطرفين الموقعين على الاتفاقية، وكذلك القوى الأخرى المشاركة في تطبيق الاتفاقية. كما أنها تبرز الواجبات الثقيلة التي تنتظر حكومة القاعدة العريضة المكونة بنص الاتفاقية لترعى تطبيقها. وهي كذلك تلقي بأعباء كبيرة على أصدقاء السودان في الإقليم والقوى الحريصة على وحدته في الصعيد العالمي. إن أدنى ما تقتضيه تلك التحديات هو التحديد الدقيق للأولويات مع تصنيف القضايا المهمة ومعرفة طبيعتها ومطلوبات التعامل معها. ويلتحق بذلك تحديد الإجراءات والتدابير الحكومية اللازمة، سواء أكانت تشريعات أم سياسات، أم خططاً، أم قرارات أم آليات تنفيذ أم منهج عمل.

وفي المقام الأول، في سياق الحديث عن كيفية التصدي لتلك التحديات، تبرز الواجبات التي تقع على الحركة السياسية السودانية العامة باعتبارها صاحبة النصيب الأوفر من مسئولية تطبيق الاتفاقية. إن نجاح تلك الحركة السياسية في مهمتها رهن بمقدرة القوى المكونة لها على تقديم نموذج مقنع في الأداء السياسي. وفي هذا الصدد فإن تلك القوى مطالبة أول شيء بأن تثبت جدارتها بممارسة الديمقراطية في الساحة السياسية العامة من خلال نجاحها في إقامة ممارسة ديمقراطية داخلية في خاصة بنائها ومؤسساتها، وأيضا من خلال مقدرتها على التوليد المطرد للحلول والرؤى المتواردة مع توارد الحوادث والمصاعب وتعقدها. ومن خلال تطويرها لخطاب مناسب غير دعائي أو تهريجي أو شعاراتي. ومن خلال مقدرتها على إيجاد الحد الأدنى الضروري بينها من قيم الممارسة السياسية ومبادئها مما لا غنى عنه لاستقرار المجتمع السياسي. وكل هذه المؤهلات مفقودة في الحركة السياسية في وضعها الراهن.

وسوى الحركة السياسية المنظمة ستنفسح مساحات واسعة لقوى المجتمع المنظمة وتياراته الحية مما درج الناس على نعته بمنظمات المجتمع المدني. فالسودان مرشح لطفرة كبرى في انتظام تياراته الحديثة الفاعلة في تشكيلات تتجاوز الحزبية السياسية التقليدية وتتجاوز بذلك سنن السياسة القديمة، وهو شيء ينبغي أن يتنبه له، ليس القادة السياسيون وحدهم، بل قادة تلك التيارات الاجتماعية المؤثرة نفسها، وكذلك أصدقاء السودان الخارجيون الذين يسعون إلى أن تسير الأمور فيه باتجاه وحدة متينة ومستقرة.

إن تلك الواجبات المتنزلة على الحركة السياسية العامة تمتد لتشمل بتكليفاتها الحركة السياسية الجنوبية، والتي سيكون لمسلكها العملي أثر خاص على مصير الجنوب والسودان كله. وعلى القوى الجنوبية أن تعي أنه بعد اتفاقية السلام لن تتوفر لها مسوغات كالسابق تلقي بموجبها اللوم على الشمال في تعقيد مشكلاتها. بل عليها أن تتصدى لتحمل مسئولياتها كاملة. وسيكون من أعقد تحديات الجنوبيين هو إقامة لا مركزية فاعلة تراعي تعددية الجنوب في إطار وجود حكومة تجمع الولايات الجنوبية كلها. وبدون ذلك فإن الصراعات القبلية والجهوية التي عصفت باتفاقية أديس أبابا مرشحة للانفجار من جديد. كما أن على الجنوبيين الاستفادة من اتفاقية قسمة الثروة ومن فرص الاستثمار الضخمة التي سيوفرها السلام من أجل التخلص نهائيا من هيكلية الاقتصاد الحكومي المهيمنة الآن على الجنوب، والتي لا تستتبع ضياع الموارد وشيوع ممارسات تضر بقيم العمل والانتاج فحسب، بل تعمق من واقع الفساد وتؤدي إلى انصراف الموارد عن المجتمع والمواطنين لتستخدم في صراعات السياسيين وفي تكريس أنماط هيمنة جديدة قديمة كانت هي السبب في بقاء الجنوب متخلفاً.

وأخيراً تقع أعباء خاصة على أصدقاء السودان في جواره العربي والإفريقي الأدنى تتلخص في دفع كل العمليات والتفاعلات الداخلية والخارجية الموجبة التي تعين على تثبيت السلام وتأكيد الوحدة. ومن ذلك بذل الحماية الكافية للسودان وهو يصعد في ذلك المرقى الوعر إلى الوحدة ووقايته من تيارات الانفصال.

إن خلاصة ما تطمح إليه هذه المقالة هو أن توضح أن المصير النهائي للسودان، موحداً أو مقسماً، رهن بعدة عوامل وتيارات متعارضة أحياناً ومتناصرة أحياناً أخرى. وهي من التعقيد بمكان كبير. بعضها، وهو الأغلب، يدفع باتجاه الوحدة إذا أحسن استخدامه، والبعض الآخر يعزز احتمالات الانفصال. والنتيجة النهائية لتلك العمليات المعقدة تحددها بصفة أساسية الكفاءة السياسية للسودانيين، قادة ومجتمعاً، ومع ذلك يبقى دور كبير لأصدقاء السودان وللقوى الدولية، خاصة تلك التي تسعى لمعالجة الشئون الداخلية لبلدان العالم بمنهج الإيجاب والمسئولية.■

جنـــــوب الســـــودان

عـــايـدة الـــعـزب مـوســى

لم يكن للحكم العسكرى بالخرطوم برئاسة اللواء عبود أى مشاريع أو برامج لحل قضية الجنوب، فعمل على قمع المعارضة فى الجنوب كما فعل فى الشمال، وأضاف إلى هذا التعجيل بنشر اللغة العربية وبسط القواعد الإسلامية اعتقاداً منه بأن هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق الوحدة فى المستقبل

■■ كتب المؤرخ البريطانى الشهير أرنولد توينبى يقول: «إن قضية السودان هى قضية أفريقيا المنقسمة إلى قسمين مجسدة فى نطاق محدود، ولذا فإن السودان يحمل مصيره بين يديه ويحمل مصير أفريقيا فى الوقت نفسه، فإذا نجح السودان فى التوفيق بين العنصرين اللذين يتألف منهما أبناؤه سيكون قد قام بعمل إنسانى رائد للقارة بأسرها، أما إذا احتدم الصراع فى السودان فسوف يؤدى ذلك إلى زيادة التوتر بين قسمى أفريقيا فى كل مكان. وسيتحول جنوب السودان إلى بؤرة تتجمع فيها عناصر البغضاء من جانب أفريقيا الزنجية ضد أفريقيا الشمالية، وإذا وصلت إلى هذا الحد فإن انشطار القارة الأفريقية قد يصبح نهائياً. لقد ألقى القدر على عاتق أبناء شمال السودان عبئاً جسيماً ولنأمل أنهم سيتمكنون من حمله».

هذا الوصف الدقيق لوضع السودان الذى مضى عليه نصف قرن يكاد ينطبق تماماً على حالة السودان اليوم. فبعد حرب أهلية امتدت لخمسين سنة بين الشمال والجنوب من عام ١٩٥٥ إلى عام ٢٠٠٣ باستثناء فترة هدوء لم تتعد عشر سنوات، يواجه السودان معضلة مفصلية، إما أن يكون أو لا يكون، إما أن يكون سوداناً موحداً أو أن ينشطر جزءين أو أكثر.

حقيقة أن السودان نجح فى الاتفاق على تقسيم عائد الثروة النفطية بنسبة ٥٠٪ لكل من حكومة الشمال المركزية والحركة الشعبية بقيادة جون قرنق، ولكن تبقى القضايا الأخرى المتعلقة بتقسيم السلطة والمناطق المهمشة (جبال النوبة وجنوب النيل الأزرق وإيبى العائمة على بحيرة بترول) مسائل ليست أقل صعوبة، ويمكن أن تستمر شهوراً إذا خف الضغط الخارجى على كل من الجانبين وخاصة الحكومة المركزية.

وإذا وقع اتفاق كامل وسلام شامل بين الطرفين، فإن السودان سيمر بفترة انتقالية تمتد ست سنوات بعدها يتحدد مصيره، إما أن يخرج منها بوحدة طوعية بموافقة أهل الجنوب أو ينفصل إلى جزءين من خلال استفتاء تقرير المصير أو يتفكك إلى عدة سودانات. فهل ستتحقق نبوءة توينبى ويتحمل السودان قدره وينقذ القارة من الانقسام إلى شمال وجنوب أم العكس؟

إن استشراف المستقبل يتطلب العودة إلى الوراء لأن ذلك من المؤكد يساعد صانع القرار فى تلمس خطواته المقبلة.

جـذور المشـكـلـة:

احتلت بريطانيا مصر فى ١٨٨٢ وأكملت احتلال السودان فى ١٨٩٨ وتم لها بذلك السيطرة على وادى النيل، فوضعت سياستها على أساس التفرقة بين شمال الوادى وجنوبه، وعلى سياسة فصل جنوب السودان عن شماله وتحطيم ذلك الامتداد الطبيعى للسودان نحو الجنوب، وخلق سودانين لكل منهما مقوماته. **وكانت هذه السياسة تهدف إلى** محاولة سلخ جنوب السودان وضمه إلى اتحاد بريطانى لشرق أفريقيا. ولكن هذه السياسة أخفقت لأن أسباب ارتباط جنوب السودان بشماله كانت أوثق بكثير من أسباب ارتباطه بالمناطق الأفريقية الواقعة جنوبه. ومن المؤسف أن السياسة البريطانية التى فشلت فى بدايات القرن العشرين فى سلخ جنوب السودان عن شماله، أخذت تظهر فى خواتيمه تزكيها الولايات المتحدة الأمريكية.

ويمكن القول إن سياسة الفصل بين الجنوب والشمال بالسودان زرعت قبل عام ١٩٢٠ وغرست البذرة، ولكن السياسة لم تتبع بحزم إلا بعد الحرب العالمية الأولى وخاصة بعد عام ١٩٢٤ أى بعد نشوب ثورة ١٩ فى مصر وما صادفت من صدى ثورى وطنى لدى أبناء السودان وظهور حركة اللواء الأبيض وعلى عبد اللطيف فى ١٩٢٤ وما ترتب على ذلك من إخراج الجيش المصرى كله من السودان فى السنة ذاتها. وقد طبقت هذه السياسة على النحو التالى:

❖ فى عام ١٩٢٢ صدر مرسوم المناطق المغلقة واعتبرت مديريات دارفور فى غرب السودان والاستوائية وأعالى النيل فى الجنوب مناطق مغلقة لا يجوز لأى شخص من غير أبنائها أن يدخلها أو يقيم بها إلا إذا حصل على ترخيص بذلك.

❖ فى عام ١٩٢٥ صدر مرسوم تصاريح التجارة فنص على أنه لا يجوز لأى شخص من غير أبناء المنطقة أن يمارس التجارة دون الحصول على تصريح يسمح له بالاتجار فى مديريات الجنوب. ومن حق الحاكم العام الإنجليزى اعتبار أى جزء من السودان مناطق مغلقة فى وجه التجارة.

❖ منع أبناء دارفور وكردفان فى الغرب من دخول بحر الغزال فى الجنوب، وكذلك منع أبناء بحر الغزال من دخول كردفان ودارفور.

❖ القبض على أى شخص من غير أهل المنطقة لا يحمل تصاريح مرور، وأمكن بذلك التحكم فى الحركة بين الشمال والجنوب وبين الجنوبيين أنفسهم.

❖ وجهت لزعماء القبائل دعوة أن يتخلوا عن أسمائهم العربية ولباسهم العربى ويحلون محله اللباس الأوروبى.

❖ منعت ممارسة العادات العربية، وحظر الزواج المختلط بين أبناء الشمال والجنوب، وتقرر أن ينتسب الأبناء إلى الأم لا إلى الأب.

❖ سارت سياسة مقاومة الإسلام جنباً إلى جنب مع سياسة مقاومة اللغة العربية، فلم يسمح لأبناء الجنوب المسلمين أن يمارسوا شعائر دينهم علناً.

عندما أصبحت سياسة الجنوب موضع التطبيق تعرضت لهجوم شديد من مختلف الجهات الرسمية وغير الرسمية إذ أدت إلى تخلف الجنوب تخلفاً شديداً مقارناً بالشمال. وفى عام ١٩٤٥ وجه الحاكم العام البريطانى فى السودان رسالة إلى السفير البريطانى فى القاهرة يقترح ثلاثة احتمالات إزاء الجنوب:

١ . دمج الجنوب فى الشمال.

٢ . دمج الجنوب فى أفريقيا الشرقية.

٣ . دمج أجزاء من الجنوب مع الشمال وأجزاء أخرى مع أفريقيا الشرقية.

وقد استبعدت هذه المقترحات فكرة أن تقوم فى السودان دولة مستقلة، وبالنسبة لدمج الجنوب فى أفريقيا الشرقية أو أجزاء منها مع أفريقيا الشرقية، رفضت هذه المقترحات فلم تبد بلاد أفريقيا الشرقية حماساً لضم جنوب السودان إليها خوفاً من أن يؤدى هذا الضم إلى زيادة مشاكلها تعقيداً وصعوبة، وأبدت أوغندا تردداً شديداً وانزعاجاً إزاء فكرة الاتحاد مع تلك البلاد الشاسعة ذات الإنتاج الضئيل، إذ رأت الإدارة الأوغندية وهى إنجليزية بأنها لا تستطيع تحمل هذا العبء الوافد، وإن إعادة تخطيط حدود الجنوب من شأنه أن يثير مشكلات قبلية حادة مع كينيا والكونغو.

كذلك وجد أن إدارة جنوب السودان كوحدة فيدرالية مع شمال السودان يصعب تحقيقها، إذ كيف تتحمل الإدارة الإنجليزية للشمال نفقات الجهاز الإدارى الجنوبى المستقل ذاتياً ولاتستطيع السيطرة عليه، وكيف يستطيع الجنوب المفتقر إلى الكادر الإدارى أن ينهض بأعباء إدارته الذاتية، وكيف يقبل الشمال بالعمل الإدارى فى الجنوب فى ظل نظام فيدرالى تسوقه احتمالات تجزئة السودان.

إذا لم يبق سوى الحاق الجنوب بالشمال مع إلغاء قانون «المناطق المغلقة»، بمعنى آخر إلغاء مخطط السياسة البريطانية فى الجنوب.

وإزاء هذا الجدل حول سياسة الجنوب عقد مؤتمر جوبا الشهير فى يونيو ١٩٤٧، حضره حكام مديريات الجنوب الثلاث و١٧ من زعماء الجنوب و٦ من أبناء الشمال، وأسفر المؤتمر عن ست مسائل جوهرية:

١ . ضرورة قيام الوحدة السياسية بين الشمال والجنوب.

٢ . الجنوب لا يبقى مستقلاً ولا يلحق ولا يتحد مع أوغندا.

٣ . أعلن المثقفون من أبناء الجنوب فى المؤتمر معارضتهم للانفصال عن الشمال، إذ يكون ذلك فى غير مصلحة الجنوب سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية.

٤ . تحدث أبناء الجنوب عن مدى تخلف مناطقهم.

٥ . ظهور شعور بعدم الثقة بنوايا الشمال وتصميم على عدم الخضوع لأوامر الشمال.

.. عبء الماضى وضغوط المستقبل

٦. طالب الجنوبيون بضمانات تكفل عدم سيطرة الشمال على الجنوب فى حالة قبولهم الاشتراك فى نشاط دستورى موحد، وطالبوا باشتراك الجنوبيين فى الجمعية التأسيسية على قدم المساواة.



قرنق

التمرد وبداية الاستقلال:

بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مصر، وقعت مصر وبريطانيا اتفاقية السودان نصت على تخيير السودانيين فى استفتاء عام بين الوحدة مع مصر وبين الاستقلال، وطبق نظام الحكم الذاتى فى الشمال والجنوب ابتداء من عام ١٩٥٣. وفى العام التالى جرت الانتخابات واختار السودانيون الاستقلال عن مصر. ومنذ ذلك التاريخ بدأ تمرد الجنوب بإضرابات ومظاهرات، وطلبت سلطات الشمال من أفراد القوة العسكرية الاستوائية مغادرة الجنوب إلى الشمال، الأمر الذى أحدث تمرداً فى صفوف العسكر الجنوبيين وانتهى الأمر بذبح كافة الشماليين فى توريت فى المنطقة الاستوائية مع زوجاتهم وأطفالهم، وجاء رد الحكومة فى الشمال عنيفاً فأعلنت حالة الأحكام العرفية، وأرسلت أعداداً ضخمة من القوات الشمالية إلى الجنوب وطالبت الجنود الجنوبيين بتسليم أسلحتهم فما كان منهم إلا أن هجروا مدينة توريت بكامل أسلحتهم إلى الغابات المجاورة، كما طالب البجا فى شرق السودان والنوبة فى غربه بحقهم فى إدارة شئونهم وظهرت بينهم أيضاً بذور التمرد.

وترجع أسباب التمرد فيما ترجع إلى الأخطاء التى وقعت فيها أحزاب الشمال والتى ترجع إلى قلة خبرتهم وجهلهم بالأوضاع فى الجنوب أكثر مما ترجع إلى سوء النية أو التدبير المتعمد، فلم يكن يشغلهم سوى التخلص من الإدارة البريطانية إلى حد دفعهم إلى نسيان الحساسيات المرتبطة بقضية الجنوب، فمثلاً لم يدع أحد من أبناء الجنوب للاشتراك فى المحادثات التاريخية التى جرت فى القاهرة بين أحزاب السودان والحكومة المصرية قبل توقيع الاتفاقية الإنجليزية المصرية فى فبراير ١٩٥٣. وقد اتخذ من غياب أبناء الجنوب عن تلك المحادثات دليل الرغبة فى الانتقاص من أهمية الجنوب وإهماله.

وعندما أعلنت فى أكتوبر ١٩٥٤ نتائج أعمال لجنة السودنة تحولت الشكوك التى استمرت أكثر من خمسين عاماً إلى عداء صريح إذ لم تغير شيئاً بالنسبة للتعيينات والمناصب التى يشغلها الجنوبيون، وأحدث هذا خيبة أمل عنيفة لدى الجنوبيين المتعلمين بل رأوا فيه تغيير سيد بسيد آخر وإحلالا للاستعمار السودانى الشمالى بدلاً من الاستعمار البريطانى المنسحب.

وخلال هذا الوقت كان الوعى لدى الجنوبيين يزداد نتيجة لما حدث من تطور سياسى ونهضة تعليمية. وتشكل عام ١٩٥٤ أول حزب جنوبى سمى «حزب الأحرار الجنوبى». وبلغت الأحداث ذروتها فى تمرد الفرقة الاستوائية فى أغسطس ١٩٥٥، وأثار التمرد المشاعر فى الشمال ولفت الانتباه إلى الجنوب وإلى ما يسوده من مخاوف ومشاعر عدائية ونبه إلى ضرورة الوصول إلى اتفاق مع أبنائه عن طريق التنازلات السياسية والإجراءات البناءة.

ومن هنا وافقت أحزاب الشمال على دراسة مشروع لإقامة اتحاد فيدرالى فى السودان، ووافق ممثلو الجنوب فى البرلمان. استناداً على هذا الوعد. على إعلان الاستقلال فى أول يناير ١٩٥٦، وكان يعنى الاتحاد الفيدرالى إيجاد وضع خاص للجنوب داخل الدولة الموحدة. ولم ترتفع فى ذلك الوقت فى الجنوب أصوات تطالب بالانفصال إلا أقلية ضئيلة بين الطبقة الجنوبية المتعلمة.

ولكن الأحزاب الشمالية بقيت كعادتها مشغولة بمناوراتها مع بعضها البعض إلى حد صرفها عن تفكير جاد فى حل مشاكل الجنوب، وخصصوا للجنوبيين ثلاثة مقاعد فقط من بين ٤٣ مقعداً فى اللجنة المكلفة بإعداد مشروع الدستور فغضب الأعضاء الجنوبيون وتقدموا بتوصية بإقامة اتحاد فيدرالى، ولكن أغلبية لجنة الدستور رفضت الطلب فى ١٩٥٧ وبدا أن قضية الجنوب قد ضاعت ورفض الأعضاء الجنوبيون المساهمة فى أعمال اللجنة وانسحبوا من الجمعية التأسيسية فى يونيو ١٩٥٨.

لذلك اتخذت المسألة الجنوبية فى الفترة من ١٩٥٣ . ١٩٥٨ أبعاداً جديدة، وجاء التمرد لما شعر به الجنوبيون من خيبة أمل وهضم لحقوقهم وكان لهذا آثاره الضارة فى الجنوب، واستخدم المبشرون ودعاة الانفصال من أبناء الجنوب هذه الأحداث لزيادة نشاطهم وتوسيع دعايتهم ضد الشمال. ووجد المتمردون الذين أفلتوا من قبضة القانون عام ١٩٥٥ ولجأوا إلى الغابات فرصة فى السخط السائد للظهور من جديد واستئناف نشاطهم.

ولم تكن الحركة المناهضة العسكرية فى الجنوب على ارتباط وثيق بقيادات الخارج بل كانت معزولة عن تلك القيادات. وتعتبر الفترة من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٣ فترة تشكيل العصابات المسلحة فى الجنوب التى نشأت على أسس قبلية والتى عُرفت بتنظيم انيانيا ومعناه «الثعبان السام»، واتخذت مقراً لها فى القطاع الجنوبى من المديرية الاستوائية على مقربة من الحدود الأوغندية. وركزت أنيانيا نشاطها على كمائن الطرق ونسف الجسور والهجوم على معسكرات جيش الشمال ونقط البوليس والهجمات العسكرية المؤقتة المحدودة.

الجنوب والحكم العسكرى الأول:

نتيجة الأوضاع المتأزمة فى السودان، فى علاقة الشمال مع الجنوب وتدهور الحالة الاقتصادية والاضطراب السياسى، تقدم جيش السودان واستولى على السلطة فى الخرطوم فى نوفمبر ١٩٥٨ بقيادة اللواء إبراهيم عبود.

ركز النظام العسكرى اهتمامه بإبعاد المجموعات الساخطة والأفراد المتذمرين من صفوف الجيش السودانى وقمع المعارضة والنشاط السياسى للأحزاب والنقابات ومنظمات الطلبة وغالب ذلك فى الشمال. وبالنسبة للجنوب فقد كان وجود الأحزاب والبرلمان من العوامل التى تحد من شطط الآراء التى ترددت فى الشمال منادية باستخدام العنف لقمع الأصوات المنادية بالاتحاد الفيدرالى أو الانفصال فى الجنوب. فلما اختفى البرلمان وحلت الأحزاب رجحت كفة دعاة استخدام القوة والمنادين بإدماج الشمال والجنوب استناداً إلى قوة السلاح.

ولم يكن للحكم العسكرى بالخرطوم برئاسة اللواء عبود أى مشاريع أو برامج لحل قضية الجنوب، فعمل على قمع المعارضة فى الجنوب كما فعل فى الشمال، وأضاف إلى هذا التعجيل بنشر اللغة العربية وبسط القواعد الإسلامية اعتقاداً منه بأن هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق الوحدة فى المستقبل وتوهماً منه أن القوة يمكن أن تجدى فى هذه الأمور. وأثارت هذه السياسة المثقفين من أبناء الجنوب وشعروا بأنهم غرباء عن هذا النظام وفر كثير منهم إلى خارج البلاد، وألقى القبض على عدد من الآباء الكاثوليك إثر توزيعهم رسالة احتجاج على هذه السياسة. وفى عام ١٩٦١ منعت الحكومة عقد أى اجتماع دينى للصلاة خارج الكنائس ومنعت عدداً من المبشرين من العودة إلى السودان بعد انتهاء إجازاتهم. وفى عام ١٩٦٢ أصدر المجلس الأعلى للقوات المسلحة مرسوماً طرد بمقتضاه جميع المبشرين المسيحيين من جنوب السودان.

وصاحب هذه السياسة هجرة آلاف الجنوبيين إلى

خارج السودان، وغادر البلاد جنوبيون مثقفون معروفون وأعضاء سابقون من البرلمان وكونوا «رابطة السودان المسيحي» و«الاتحاد الوطني للمناطق المغلقة بالسودان الأفريقي» الذي عرف باسم سانو. وظلت هاتان المنظمتان تعارضان الحكم العسكري خارج السودان حتى عام ١٩٦٣.

اتخذ حزب سانو الكونغو مقراً له وركز نشاطه في توجيه المذكرات للأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية مطالباً بأن تقوم هيئة دولية بدراسة مشاكل جنوب السودان. غير أن ميثاق المنظمتين لم يكن يسمح باتخاذ خطوة كهذه.

أما داخل الجنوب فقد عمت الاضطرابات أنحاءه وخرجت العناصر المتمردة التي كانت قد لجأت إلى الغابات خرجوا إلى العلن وكونوا حركة مقاومة منظمة هي جمعية أنيانيا كما سبقت الإشارة.

كان ظهور أنيانيا تعبيراً عن مرحلة جديدة في قضية الجنوب. إذ تألفت هذه الجمعية من أشخاص كانوا من قبل جنوداً في الفرقة الاستوائية التي كان شكلها الاستعمار البريطاني أو من الجنوبيين الذين خرجوا من السجون بعد قضاء مدة العقوبة أو ممن أفرج عنهم الحكم العسكري في مناسبات خاصة.

بدأت أنيانيا نشاطها بإطلاق الرصاص على الجنود وعلى الشماليين والجنوبيين أيضاً المشتبه في تعاونهم مع الحكومة، وبدأت بذلك حرب عصابات. وفي يناير ١٩٦٤ قامت بمحاولة جريئة بالاستيلاء على مدينة واو في مديرية بحر الغزال. وردت الحكومة بانعقاد محكمة عسكرية عاجلة في مدينة واو. بعد أن استردتها. وأصدرت الحكم بالإعدام على اثنين من زعماء أنيانيا وبالسجن المؤبد على مأمور السجن وأربعة من حراسه.

رحب حزب سانو بسقوط الحكم العسكري وسارع قادته إلى الاتصال بالحكومة الجديدة ووجه الزعماء السياسيون الجنوبيون المقيمون خارج البلاد مذكرة إلى رئيس الوزراء (سر الختم خليفة) يعربون عن رغبتهم بالعودة إلى السودان بالشروط التالية:

أولا: العفو العام من جانب الحكومة السودانية عن جميع اللاجئين وضمان سلامتهم.

ثانياً: الاعتراف بحزب سانو والسماح له بالعمل داخل السودان.

ثالثاً: عقد مؤتمر مائدة مستديرة يجمع أحزاب السودان في الشمال والجنوب يشترك فيه ممثلون للقضاء والنقابات وجامعة الخرطوم لمناقشة العلاقة الدستورية بين الشمال والجنوب.

وفي نوفمبر ١٩٦٤ أعلن رئيس الوزراء اقتناع حكومته بأن العنف والإجراءات العسكرية لا تحل المشكلة ودعا إلى السلام والتفاوض، وقام بأول بادرة للمصالحة فاستجاب لمطالب سانو بإعلان العفو العام عن جميع السودانيين الذين فروا إلى خارج البلاد منذ يناير ١٩٥٥ وعن المطلوبين للمحاكمة بأي تهمة سياسية، وناشد اللاجئين أن يعودوا إلى الوطن.

رد حزب سانو على هذه الخطوات بقوله إن الحل الوحيد الذي يمكن قبوله للجنوب في السودان هو إنشاء نظام فيدرالي يكون نائب رئيس الدولة فيه من الجنوب، وتقوم فيه حكومة إقليمية للجنوب، وطالب بأن يعاد تشكيل الفرقة العسكرية الجنوبية مع تعيين أبناء من الجنوب في مناصب وزارة الخارجية.

لم تكن الحكومة والأحزاب السياسية في الشمال على استعداد لمناقشة تلك الاقتراحات، وكان من الواضح أن بعض المطالب تتجاوز حدود سلطاتها، بيد أنها كانت على استعداد لعقد مؤتمر مائدة مستديرة بشرط أن يعقد داخل السودان، ووافق سانو على أن يعقد في جوبا بالجنوب ووجه نداء إلى أبناء جنوب السودان لإيقاف القتال في الجنوب وأن تعلن الحكومة إنهاء حالة الطوارئ.

رفضت جبهة الجنوب وهي ثاني المنظمات السياسية الرئيسية في الجنوب وأغلب أعضائها من الجنوبيين المتعلمين، وكانت تمارس نشاطاً فعالاً بين أبناء الجنوب في الخرطوم وفي المديريات الجنوبية نفسها، وكانت على اتصال وثيق بجماعة أنيانيا، رفضت نداء سانو كما رفضت جماعة أنيانيا وقف العمليات الهجومية، وظهرت داخل سانو مجموعتان إحداهما متطرفة تدعو إلى الانفصال وإجراء المحادثات خارج السودان والأخرى معتدلة تدعو إلى الاتحاد الفيدرالي والتفاوض داخل السودان أو خارجه.

وأخيراً انعقد مؤتمر المائدة المستديرة في مارس ١٩٦٥ في العاصمة الخرطوم بعد أن تبين خطورة عقده في جوبا خشية العمليات الهجومية وضم ممثلين عن أحزاب الشمال والجنوب بمن فيهم سانو وجبهة الجنوب. وحضره أيضاً مراقبون من أوغندا وكينيا وتانزانيا وغانا ونيجيريا والجزائر ومصر. اتحدت كلمات ممثلي الشمال على مواجهة القضية مواجهة جديدة والتخلي عن القوة والبحث عن حل سياسي في إطار السودان الموحد وألا يسمح بتشجيع الاتجاهات الانفصالية، وإنشاء حكومة إقليمية لمديريات الجنوب الثلاث.

وبينما تمكنت أحزاب الشمال من الوقوف في جبهة متحدة وآراء موحدة بشأن الحل السياسي للمشكلة، كانت القيادة السياسية للجنوب منقسمة، حزب سانو انقسم إلى مجموعة تدعو إلى الاستقلال السياسي وأخرى إلى الاتحاد الفيدرالي، وجبهة الجنوب طالبت بحق تقرير المصير، وقدمت سانو وجبهة الجنوب مشروعاً يقضي بإجراء استفتاء في الجنوب تحت إشراف مراقبين من الدول الأفريقية للتأكد من اتجاه أغلبية الجنوبيين سواء إلى الوحدة الفيدرالية أو الاتحاد مع الشمال أو الاستقلال والانفصال.

وبالطبع رفضت أحزاب الشمال المشروع على أساس إنه إعلان واقعي يؤدي إلى الانفصال، فتقدم القادة الجنوبيون بمشروع آخر يدعو إلى إقامة إقليمين في السودان، ورفض أيضاً هذا المشروع باعتباره ينتهي إلى إقامة دولتين مستقلتين في السودان.

وهكذا فشل مؤتمر المائدة المستديرة، ثم اتحدت جبهة تحرير السودان الأفريقي مع حزب سانو خارج السودان وشكلا جبهة أزانيا بهدف إقامة دولة أفريقية حرة ومستقلة جنوب السودان.

الحكم العسكري الثاني:

تفاقم العنف والخلافات بين الشمال والجنوب، وتقدم العسكر مرة أخرى واستولوا على السلطة عام ١٩٦٩، تحت قيادة جعفر نميري. وبعد انتهاج سياسة مترددة ومتذبذبة حيال المتمردين في الجنوب، تفاوضت حكومة نميري معهم وتم التوصل عام ١٩٧٢ لاتفاقية أديس أبابا التي كفلت للجنوب حكماً إقليمياً ذاتياً وأنهت الحرب الأهلية في الجنوب. وكان إبرام هذا الاتفاق عائداً في الأساس إلى أن الطرفين عجزا عن تحقيق أهدافهما بالقوة المسلحة. وقد خلقت هذه الاتفاقية حالة من الاستقرار حتى عام ١٩٨٣.

واجه نميري ضغوطاً مناوئة لحكمه العسكري الشمولي من كل قوى المعارضة السياسية ومن الجماعات الأهلية، لذلك تحالف مع الشيخ حسن الترابي وجماعته السياسية، وأعلن في ١٩٨٣ عن بدء السودان تطبيق الشريعة الإسلامية، وكان يأمل باتخاذه هذه الخطوة أن يسحب البساط من أحزاب المعارضة السياسية وقياداتها، وأن يضفي على حكمه قوة الشريعة ونفوذها ويغطي بها نظامه المستبد.

وفي الوقت ذاته، فإن نظاماً شمولياً مستبداً يعتمد في الأساس على سلطة الرجل الواحد وقبضته، لا يناسبه قيام نوع من الحكم الذاتي في بعض أقاليم دولته، لذلك فقد عمل نظام نميري على إضعاف الحكم الذاتي الإقليمي للجنوب، ثم ما لبث أن خرج على اتفاقية أديس أبابا التي كانت حددت أشكال الحكم في الجنوب، وعمل نميري على تقسيم الجنوب من جديد ليلحقه بحكمه الفردي في الخرطوم.

ورغم أن نميري عندما أعلن عن تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان استثنى الجنوب من هذا التطبيق، فإن الحركة الجنوبية التي تبلورت للرد عليه بسبب استعادته السيطرة على الجنوب ومخالفته اتفاقية أديس أبابا، قرنت بين هذا الأمر وبين تطبيق الشريعة الإسلامية واعتبرت نفسها حركة احتجاج ومقاومة للأمرين معاً، ذلك أن

من المؤسف أن السياسة البريطانية التي فشلت في بدايات القرن العشرين في سلخ جنوب السودان عن شماله أخذت تظهر في خواتيمه تزكيها الولايات المتحدة الأمريكية

الجنوب دائماً له مسألتان، مسألة حقوق الحكم الذاتى ومسألة تصارع الهويات، والمسألة الأخيرة غرسها الاستعمار فى أرض الجنوب وتعهدتها من بعد بعثات التبشير والنشاط التعليمى والنفوذ الغربى الأوروبى ثم الأمريكى. والحكم الشمالى دائماً ديمقراطياً كان أو عسكرياً لم يهتد إلى سياسة تمكن من فصل المسألتين، الأولى الاستجابة للحقوق والمساواة، والثانية الحفاظ على الهوية، وهذا مما أدى إلى قيام تنظيم الحركة الشعبية لتحرير السودان. وتكون جناحها العسكرى الجيش الشعبى لتحرير السودان بقيادة جون قرنق واستؤنف الصراع المسلح. وكان تجدد الحرب الأهلية فى الجنوب عائداً إلى مجموعة من الأسباب أبرزها وأهمها إصرار النظام الحاكم على تقسيم الإقليم الجنوبى وإعادة سيطرة الحكم الشمولى على الجنوب، فضلاً عن قلق الجنوبيين من مسيرة التكامل التى أعلنت وقتها بين مصر والسودان، باعتبار أنها تأكيد للهوية العربية، بالإضافة إلى اكتشاف النفط فى الجنوب والبدء فى عمليات استخراجه.

وبعد عامين فقط من بدء الحرب العدائية أطاحت الثورة الشعبية المعروفة بالانتفاضة بحكم نميرى فى عام ١٩٨٥، وفشلت الحكومة الانتقالية برئاسة سوار الذهب ثم الحكومة المنتخبة، حكومة الصادق المهدى التى تلتها فى التوصل إلى اتفاق مع الحركة الشعبية لتحرير السودان وجيشها، وزحفت الحرب من الجنوب إلى مناطق جبال النوبة وجنوب كردفان والإقليم الغربى من دارفور وجنوب النيل الأزرق. وسعت حكومة المهدى جاهدة للبحث عن حل وتوصلت المفاوضات التى جرت مع الحركة الشعبية لتحرير السودان عن اتفاق كوكدام إلا أنه نتيجة للصراع بين أحزاب الشمال (الحزب الاتحادى وحزب الأمة والجبهة القومية الإسلامية) حول من تكون له اسبقية الظفر بشرف التسوية أعاق فرص الحل.

الحكم العسكرى الثالث:

فى يونيو ١٩٨٩ وقع الانقلاب العسكرى السودانى الثالث المسمى بثورة الإنقاذ بزعامة الفريق عمر البشير الذى أصبح رئيساً للدولة. وتحالفت القيادة العسكرية ذات التوجه الإسلامى (عمر البشير) مع الجبهة الإسلامية (حسن الترابى).

زادت الحرب اشتعالاً بين ثورة الإنقاذ والجبهة الشعبية لتحرير السودان، وترددت الأوضاع أكثر مما هى متردية. وتعددت أطراف الحرب الأهلية فبينما كانت الحكومة تحارب الحركة الشعبية كانت فصائل الجنوب تحارب بعضها البعض، وامتدت الحرب إلى غرب وشرق السودان (البجا). وفى مارس ١٩٩٨ صدر دستور جمهورية السودان يسمح بحق تقرير المصير. وفى ديسمبر من العام ذاته طرحت مصر وليبيا مبادرة تضمنت الآتى:

❖ الوقف الفورى للعمليات العسكرية من جميع الأطراف ووضع آلية لمراقبة ذلك.

❖ الوقف الفورى لكافة الحملات الإعلامية المتبادلة بين الأطراف.

❖ الشروع فى حوار مباشر بين الحكومة والمعارضة عبر ملتقى عام للحوار يهدف إلى التوصل إلى حل سياسى شامل للمشكلة السودانية يستند لوحدة السودان ويؤمن بالتعددية.

❖ تشكيل لجنة تحضيرية للملتقى بمشاركة ممثلين عن التجمع الوطنى وممثلين عن الحكومة تتولى تحديد مكان وتاريخ انعقاد الملتقى وتحديد المدعوين للمشاركة فى أعمال الملتقى وتحديد أسس الحوار.

إلا أنه فى أبريل ٢٠٠٠ أعلنت الولايات المتحدة عزمها على تزويد الجنوب بمعدات عسكرية ثقيلة. فأعلن وزير خارجية السودان رفض بلاده أى مقترحات أمريكية لا تضع المبادرة المصرية الليبية فى اعتبارها.

تطورت الأمور بعد ذلك بشكل سريع وبرز الدور الأمريكى وعكس تحولاً فى السياسة الأمريكية تجاه السودان من المواجهة والتصادم إلى نوع من التدخل والتوجيه المباشر. وجاء هذا التحول تحديداً عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وتلاقى هذا السعى الأمريكى مع سعى أوروبى غربى ترعاه القوى المسيحية من شأنه طرح مشكلة جنوب السودان على أنها تمثل شعباً مسيحياً مضطهداً من قبل مسلمى الشمال. وألمح وزير الخارجية الأمريكى «كولن باول» إلى أن السودان يمثل أولوية الاهتمام الأمريكى بأفريقيا.

وفى يوليو ٢٠٠٢ أجبرت الولايات المتحدة الطرفين سواء الحكومة السودانية أو الجبهة الشعبية على الاجتماع فى بلدة ماساكوش الكينية وخضع وفدا التفاوض لضغوط أمريكية شديدة واستعين بفرق بريطانية ونرويجية لدفع عجلة المفاوضات. وكانت رسائل واشنطن واضحة إن لم يتوصلا إلى اتفاق طوعى فإنها ستفرض عليهما حلاً قسرياً كما فعلت فى بعض المناطق الأخرى. وكان على من يرفض التوقيع على مسودة الاتفاق تحمل مسئولية فشل المفاوضات وعليه تحمل النتائج. وتضمن اتفاق ماساكوش نصوصاً حول أهم معضلتين إثارة للجدل وهما علاقة الدين بالدولة وحق تقرير المصير للجنوب السودانى.

وفى إطار ماساكوش توالت المفاوضات بين طرفى الصراع فى السودان فى منتجعات فى كينيا فى ماساكوش وكرن وناكدرو وأخيراً نيفاشا. وتحقق كثير من نقط الالتقاء كان أبرزها توقيع الاتفاق الأمنى والعسكرى فى سبتمبر ٢٠٠٣، ثم الاتفاق على تقسيم عوائد الثروة فى يناير ٢٠٠٤، ولايزال الطرفان فى منتجع نيفاشا الكينى يبحثان بقية القضايا وهى تقسيم السلطة والمناطق الثلاث المهمشة.

إن الأمر لم ينته بعد وأحداث الجنوب السودانى والاتفاق بشأنها يجرى فى هذه الأيام ولا يمكن التوقع أو المغامرة به بالنسبة لما سيكون عليه الحال.■

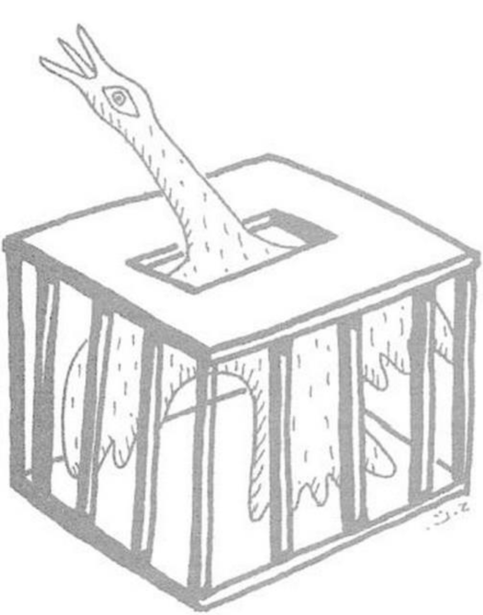
حقـــــائق ســــودانية

- مجموع سكان السودان كله يقدر بعدد يتراوح بين ٣٣.٥ مليون نسمة وبين ٣٦ مليون نسمة، وذلك حسب تقديرات الأمم المتحدة فى عام ٢٠٠٣.
- المسلمون يشكلون فى السودان كله نحو ٧٠٪ من مجموع سكانه وأغلبهم فى الشمال، ومن يعتنقون أدياناً غير سماوية يشكلون نحو ٢٥٪ من مجموع السكان، والمسيحيون يشكلون نحو ٥٪ من مجموع السكان.
- العرب يشكلون نحو ٤٠٪ من السكان، والأفريقيون يشكلون نحو ٦٠٪ من السكان.
- أهل الشمال يشكلون نحو ثلثى سكان السودان، وأهل الجنوب يشكلون نحو ثلث مجموع السكان.
- أجريت على جنوب السودان إحصاءان، أولهما فى سنة ١٩٥٦ والآخر فى سنة ١٩٨٣. وإحصاء سنة ١٩٨٣ خلا من سؤال عن الديانة، أما إحصاء سنة ١٩٥٦. فقد أثبت آن ٦٥٪ من سكان الجنوب يعتنقون أدياناً غير سماوية، وأن ١٨٪ من أهل الجنوب يعتنقون الإسلام، وأن ١٧٪ من أهل الجنوب يعتنقون المسيحية.
- أهل الجنوب يتحدثون لغات محلية غير مكتوبة ويتحدثون العربية بلهجات أفريقية. والمتعلمون يتحدثون الإنجليزية. وزاد تحدث الجنوبيين بالعربية بسبب التواصل الإعلامى العربى، وبسبب هجرة الجنوبيين إلى الشمال وإلى الخرطوم.
- أكبر قبائل الجنوب هى «الدنكا» تليها «النوير» تليها «الشلوك». والنزاعات بين القبائل تكاد تكون مستمرة.
- الحركة الشعبية التى يقودها جون قرنق تعرضت لانشقاقات عديدة فى صفوفها، وتشكلت عدة فصائل جنوبية منافسة لها.
- وثمة عديد من القوات العسكرية غير جيش التحرير الشعبى الذى يقوده قرنق، وهى مع صغرها إلا أنها تظهر أن قرنق لا يسيطر على الجنوب، لا على غالب أرض الجنوب ولا على غالب قبائله وسكانه. فهناك ٤٠ فصيلاً مسلحاً فى الجنوب تتفاوت درجة تسليحهم، وجميعهم مشكل على أساس إثنى عشيرى.

المـــــراجــــع

(❖) صراع الرؤى/ د. فرانسيس دينق
(❖) جنوب السودان/ د. محمد عمر البشير
دراسات أفريقية/ د. حسن مكى محمد أحمد
(❖) المأزق التاريخى وأفاق المستقبل/ د. محمد أبوالقاسم جامع محمد
(❖) الحروب الأهلية فى أفريقيا/ أحمد إبراهيم محمود
(❖) العقوبات والمنبوذون فى الشرق الأوسط/ مركز دراسات الوحدة العربية
(❖) الصادق المهدى وتحديات التسعينيات
(❖) التقرير الاستراتيجى الأفريقى ٢٠٠١ . ٢٠٠٢

انتخابات تكسير العظام في إيران!



فهمى هويدى

المشهد الانتخابى الايرانى، بكل تجاذباته وصخبه وما قد نأخذه عليه، يعد تعبيراً عن حيوية سياسية مفتقدة فى أغلب دول العالم الثالث

[١] احتلال العراق وامتداح واشنطون للإصلاحيين وفرا ظرف استدعاء المحافظين لأن هذا أوان الاستنفار والقبض على الجذور فإن ذبح الإصلاحيين لم يكن مبررا. المحافظون حولوا الإصلاحيين إلى «ضحية» والإقصاء شمل فصيلين فقط فى تيارهم المحافظون ١٧ حزبا وتجمعا، والإصلاحيون ١٨، والمعتدلون والمتطرفون على الجانبين.

نادرة هى المرات التى تحدث فيها الانتخابات البرلمانية فى بلادنا ذلك الضجيج الذى أحدثته الانتخابات الإيرانية. ذلك أن صحف الشهرين الأخيرين على الأقل ظلت تتابع تطورات المشهد الانتخابى هناك على نحو يومى، من خلال سيل الأخبار المتلاحقة. الأمر الذى أعطى انطباعا قويا لدى الجميع بأن ثمة معركة ضارية وشرسة. حقيقية وليست وهمية. بين الجناحين المهيمنين على الحياة السياسية الإيرانية: «المحافظون» و«الإصلاحيون».

وأن تكون المعركة حقيقية فذلك بدوره «خبر» مثير، بالنسبة لأغلب الأقطار العربية، تلك التى اعتادت على أجواء الانتخابات الوهمية، التى يشارك فيها الجميع. إذا شاركوا. وهم يعلمون سلفا من الفائز. ويدركون جيدا أن إجراء الانتخابات لن يحدث تداولا للسلطة من أى نوع، لكنه فى أحسن فروضه بمثابة تجديد للعهد والبيعة، تثبيتا لما هو قائم، وتسويغا لتأبيده.

ازاء ذلك فلا مفر من الإقرار مقدما بأن المشهد الانتخابى الإيرانى، بكل تجاذباته وصخبه وما قد نأخذه عليه، يعد تعبيرا عن حيوية سياسية مفتقدة فى أغلب دول العالم الثالث، ولا تسأل عن العالم العربى. فنحن بإزاء أجنحة قوية متصارعة، ومؤسسات تشهر أسلحة القانون، وتتمسح فيه لكى تحقق مرادها، وجدل صاخب بين المتصارعين داخل مجلس الشورى وخارجه، تنقله الإذاعة والتليفزيون على الهواء. وفوران فى الجامعات وفى الشارع، وغاضبين معتصمين، واحتشاد مقابل يسعى لاحتواء الغضب والتحذير من مغبة مقاطعة الانتخابات، وحكومة تدعو إلى التأجيل، ورئيس للجمهورية يشكك فى تكافؤ الفرص فيها ويلوح بورقة الاستقالة، ومرشد على الجانب الآخر يتدخل لحسم الأمر وإيقاف الجدل فورا وإجراء الانتخابات فى موعدها.. إلخ.

هذه الفصول المثيرة للمشهد الانتخابى تشى بقوة المجتمع وحيويته لاريب، وتكشف فى الوقت ذاته عن الارتفاع النسبى لسقف الحريات الذى وفرت له حكومة السيد محمد خاتمى دفعات قوية، منذ توليه رئاسة الجمهورية فى عام ١٩٩٧، ورفعه لشعار «التنمية السياسية». وذلك إنجاز مهم، يتجاهله الذين يروجون للادعاء بفشل المشروع الإصلاحى. ورغم الإقرار بأنه لم ينجح فى تحقيق مشروعه على النحو الذى يرضى طموحات الراغبين فى التغيير، إلا أنه سيظل يحسب له أنه نجح فى استدعاء صوت المجتمع وإسماع ذلك الصوت للكافة، بعدما كان الصوت المسموع والمألوف فى إيران هو للفقهاء وحدهم. و«الولى الفقيه» فى المقدمة منهم. حتى «الولى الفقيه» صاحب الكلمة الأخيرة فى القرار السياسى لم يعد كما كان فى السابق. فقد ظل محتفظا بأهميته بحكم الصلاحيات الواسعة التى يخولها الدستور له، لكن قدسيته وهيبته تراجعت بصورة نسبية ومن يتابع صورة المجتمع الإيرانى وحراكه قبل عام ٩٧ وبعده، يلاحظ الفرق الكبير بين الحالتين فى موضوع ممارسة الحريات بوجه أخص. حتى أزعم أن الأمر تجاوز سقف الحوار وارتفاع صوت الشارع، إلى اختلاف شكل الناس رجالا كانوا أم نساء. فقد تضاعفت مثلا أعداد حليقى اللحى وظهرت أربطة العنق، التى كانت تعد من علامات «الاستكبار» فى قاموس الثورة الإسلامية، وخفت إلى حد كبير الضغوط والقيود المفروضة على حجاب المرأة، الذى أصبح أكثر مرونة وجرأة دون إخلال بجوهر الاحتشام.

[٢] تلك نقطة أولى. إن شئت اعتبرها مدخلا. فى قراءة المشهد الإيرانى، الذى لم يكن مثيرا فحسب، وإنما ظل مسكونا بالالتباس طول الوقت، الأمر الذى أوقع كثيرين فى خطأ القراءة المغلوطة، والمتابع للكتابات المختلفة التى تناولت الشأن الإيرانى يلاحظ فى أغلبها أن مصطلحى «الإصلاحيين» و«المحافظين» كانا من أهم مصادر الالتباس.

المعنى الاصطلاحى الشائع، سبب ذلك الالتباس، ذلك أن المستقر فى الأذهان أن الأولين هم «محور الخير» والآخرين هم «محور الشر»، إذا استخدمنا لغة الخطاب السياسى الراهن. وترتب على ذلك أن المصطلح بحد ذاته بدا كافيا لإثارة تعاطف كثيرين تلقائيا مع الإصلاحيين ونفورهم



التلقائى من المحافظين. ليس ذلك فحسب وإنما أعطى المصطلح إيحاء بأن الإصلاحيين كتلة واحدة، فى مقابل كتلة أخرى تتمثل فى المحافظين.

الانطباعان مغلوطان ويفتحان الباب واسعاً للالتباس وسوء الفهم. إذ ليس صحيحاً أن المعادلة تضم أخياراً فى جانب وأشراراً فى جانب آخر، وبذات القدر فليس صحيحاً أن كلاً منهما يمثل كتلة واحدة صماء لا تعدد فيها ولا تمايز.

لا حيلة لنا أمام المصطلح والانطباعات التى يستصحبها، خصوصاً أن الترويج لتلك الانطباعات ليس بريئاً دائماً، وإنما هنا دوائر تحرص على تكريس معنى اجتماع أخير فى جانب الإصلاحيين وانحصار الشر فى جانب المحافظين. والذين أعنيهم هنا هم أولئك الذين انحازوا إلى الإصلاحيين ليس حباً فيهم ولا إعجاباً بمشروعهم، ولكن كراهة للمحافظين وتعلقاً بأمل تقويض معسكرهم من خلال الانخراط فى معسكر «الضد»، بمظنة أن تلك خطوة على طريق إجهاض التجربة كلها وهدم المعبد على جميع من فيه، الإصلاحيين منهم والمحافظين.

إننا إذا أدركنا أن تيار الإصلاحيين يضم ١٨ حزباً وتجمعاً سياسياً، وأن تيار المحافظين يحتشد فيه ١٧ حزباً وتجمعاً آخر، فإن ذلك يبين كيف أن كل معسكر مترامى الأطراف على نحو يحتمل العديد من التمايزات والاختلافات، وعند الحد الأدنى فهناك على كل جانب معممون و«افندية»، ويمين ويسار ووسط، فهناك إصلاحيون متفلتون أو ثوريون، وآخرون أقرب إلى المحافظين منهم إلى بعض فصائل جماعتهم. وهناك محافظون متزمتون ورجعيون، وآخرون أقرب إلى الإصلاحيين وهكذا. وقبل أن أفصل فى هذه النقطة بعض الشىء ألفت النظر إلى أن الخلافات الفكرية حول القضايا الأساسية محدودة، وربما تداخلت المواقف على هذه الساحة، بحيث نجد أن اليسار يدافع عن أمور يفترض أنها ضمن اهتمامات اليمين والعكس صحيح. لكن الخلاف فى الطموحات السياسية أكبر بكثير منها على المستوى الفكرى ثقافياً كان أم اقتصادياً.

حتى أقرب الفكرة إلى الأذهان، فإننى أذكر بأن الإصلاحيين خاضوا خلال السنتين الأخيرتين معركة خصخصة التعليم العالى، وهو ما أثار غضب الروابط الطلابية التى خرجت إلى الشارع أفواج تمثلها معلنة الاحتجاج وداعية إلى استقالة خاتمى. وذهبت تلك الروابط فى معارضتها إلى حد حجب تأييدها عن الإصلاحيين فى انتخابات البلديات التى جرت فى شهر فبراير من العام الماضى، وكانت النتيجة فى طهران مثلاً أن حقق الإصلاحيون فشلاً ذريعاً، حيث فاز المحافظون بأربعة عشر مقعداً من ١٥.

وبينما وقف خاتمى وفريقه الإصلاحى مع خصخصة التعليم، فإن الشيخ هاشمى رفسنجانى رئيس مجلس تشخيص المصلحة تبنى فى نفس الوقت دعوة الاقتراض من الخارج، وكان ولايزال أحد أهم الداعين إلى حرية السوق. وبشكل عام فإن المحافظين على جملتهم لا يشجعون تدخل الدولة فى الاقتصاد، فى الأغلب لأن رجال البازار يمثلون قاعدتهم السياسية والتمويلية، فى حين أن الإصلاحيين يقفون مع دور اقتصادى قوى للدولة.

حتى إذا قيل أن ثمة تمايزات بين الجناحين فيما يخص الحريات السياسية الداخلية. وهذا صحيح. فإن قطاعاً لا يستهان بوزنه فى المحافظين والمحسوبين عليهم يقفون فى ذات المربع، يتقدمهم الشيخ هاشمى رفسنجانى والدكتور على ولايتى وزير الخارجية السابق.

تجدر الإشارة إلى أن وزير الثقافة السابق الدكتور عطاء الله مهاجرانى، الذى أقصى عن منصبه بضغط وإصرار من المحافظين كان من قادة حزب «كوادر البناء» الذى يعتبر الشيخ رفسنجانى رمزه الروحى. كما أن غلام حسين كرباستشى عمدة طهران الأسبق الذى أدخله المحافظون إلى السجن وأطلقوا سراحه فى عام ٢٠٠٠، والشيخ عبدالله نورى وزير الداخلية الأسبق والذى أدخل السجن أيضاً وأخرج فى عام ٢٠٠٣، كانا أيضاً من أعوان الشيخ رفسنجانى.

فى ذلك الوقت فإن الشيخ مهدى كروبى والسيد على أكبر محتشمى وآية الله اردبيلى ومير حسين موسوى رئيس الوزراء الأسبق، هؤلاء كانوا محسوبين على التيار المتشدد. وقد أصبحوا الآن من رموز التيار الإصلاحى. ومعهم أيضاً بهزاد نبوى رئيس منظمة مجاهدى الثورة الإسلامية، التى تشكل أحد أجنحة الإصلاحيين.

[٣] صعود الإصلاحيين إلى الأفق السياسى الإيرانى كان مفاجئاً للمحافظين بل صادماً لهم على نحو لم يتوقعوه. ويؤرخ لذلك الصعود بالفوز الكبير الذى حققه السيد محمد خاتمى فى انتخابات الرئاسة التى جرت عام ١٩٩٧، على مرشح المحافظين الذى نافسه، الشيخ ناطق نورى، الذى كان رئيساً لمجلس الشورى وقتذاك. وحين كنت أحد الذين تابعوا المعركة الانتخابية، كان واضحاً أن الشيخ نورى ظل مطمئناً طوال الوقت إلى الفوز، حتى لاحظ المحيطون به أنه كان يتصرف باعتباره رئيس الجمهورية القادم، فعدل من هيئته ووسع من اتصالاته الدبلوماسية وزياراته الخارجية، ولذلك فإن الهزيمة القوية التى نزلت به كان لها وقع المفاجأة والصدمة (لم يحصل على أكثر من ٢٥٪ من الأصوات وحصد السيد خاتمى ٧٥٪). وفى حقيقة الأمر فإن الضربة كانت للمعسكر المحافظ بأسره وليس للشيخ ناطق نورى وحده، لذلك، ومنذ ذلك الحين كان قرار المحافظين غير المعلن ألا يسمحوا للضربة أن تتكرر مرة أخرى.

الذى لم ينتبه إليه المحافظون آنذاك أن فوز السيد خاتمى كان تعبيراً عن شوق إلى تغيير ما، وأنه تغلب على الشيخ نورى ليس فقط لأنه يتمتع بشخصية جذابة أو لأنه رفع شعارات لقيت حفاوة وتعاطفاً من جانب الرأى العام، خصوصاً أوساط الشباب والنساء، ولكن وبالدرجة الأولى لأنه يمثل استجابة للظرف التاريخى فى تلك الفترة. فقد كانت الحرب ضد العراق قد انتهت عام ١٩٨٨، ومرت حوالى تسع سنوات على محاولة لملمة الجراح التى خلفتها، وكان الممسكون بزمام القيادة هم أنفسهم التابعون فى الصدارة منذ نجاح الثورة فى عام ١٩٧٩. وبدا أن المجتمع الإيرانى يريد أن يمارس حياته العادية التى افتقدها، متجاوزاً حالة طوارئ الحرب ومخلفاتها، ووجد فى شخص السيد خاتمى نموذجاً يشبع هذه الرغبة، ووجهاً جديداً يشجع على التعلق بذلك الأمل، وكان الانحياز الكبير له تأكيداً لهذه المعانى.

انتخابات مجلس الشورى التى تمت فى سنة ٢٠٠٠ عبرت عن ذات الموقف، الأمر الذى تجلى فى فوز الإصلاحيين بأغلبية المقاعد (١٧٠ من ٢٩٠). وهو ما قوى من مركزهم حيث أصبحوا متمكنين بصورة نسبية من السلطة التشريعية فضلاً عن التنفيذية، وكان لذلك الفوز صداه فى دوائر المحافظين الذين ازدادت مخاوفهم من استمرار تنامى حضور الإصلاحيين، الذى تصوروا أنه يهدد. من بين أمور أخرى. بإفلات الزمام من أيديهم بصورة تدريجية.. صحيح أن قطاعاً غير قليل من المحافظين كانوا قلقين على نفوذهم وعلى سلطانهم، إلا أنه كان هناك أيضاً آخرون أقلقتهم أصوات بعض المتفلتين والعلمانيين من غلاة الإصلاحيين الذين ذهبوا أبعد مما ينبغى فى خطاب التغيير الذى تبنوه على نحو أثار مخاوفهم على نظام الجمهورية الإسلامية ذاته وعلى الثوابت التى قام عليها النظام.

عند نقطة المخاوف التقت رؤى فصائل المحافظين، سواء المعنية بالنفوذ السياسى أو تلك المهجوسة بمستقبل الجمهورية الإسلامية ومشروعها الأساسى، لذلك فإنهم تكتلوا فى مواجهة الإصلاحيين، والتقوى على ضرورة قطع الطريق على تقدمهم فى مدارج السلطة وإدارة شئون المجتمع، فتعددت الأسباب وصار الهدف واحداً.

المحافظون ضعفاء فى الشارع، خصوصاً فى أوساط المثقفين والطبقتين الوسطى والعليا، وفى محيط الشباب والنساء، لكن أقدامهم بقيت راسخة فى العديد من مواقع ومؤسسات السلطة. فالولى الفقيه سند رئيسى لهم، ثم إن رجالهم يهيمنون على السلطة القضائية ومجلس صيانة الدستور، ومجلس الخبراء، ومجمع تشخيص مصلحة النظام والمجلس الأعلى للأمن القومى، وأهم المؤسسات الاقتصادية فى البلاد مثل مؤسسات المستضعفين والشهيد والإمداد فضلاً عن الغرفة التجارية، إلى جانب ذلك كله فبيدهم القرار فى حرس الثورة والجيش، وهو ما يعنى فى حقيقة الأمر أنهم يسيطرون على هيكل الدولة كله، باستثناء السلطتين التنفيذية والتشريعية، وليس هناك شك فى أن ما يملكون من سلطان ونفوذ يمكنهم من خلال الصلاحيات القانونية التى يملكونها من الحفاظ على ثوابت الثورة الإسلامية والمجرى الأساسى لمشروعها. فالولى الفقيه مثلاً له أن يوقف أى مشروع قانون مقدم إلى مجلس الشورى قبل مناقشته، وهو ما حدث على مشروع قانون الصحافة مثلاً، كما أن أى مشروع لا يكون سارى المفعول إلا إذا وافق عليه مجلس صيانة الدستور (المواد: ٩١ إلى ٩٦ من الدستور).

والأمر كذلك، فلعلنا لا

نبالغ كثيراً إذا قلنا أن حملة المحافظين على الإصلاحيين وملاحقتهم لهم حركها الصراع على السلطان والنفوذ بأكثر من الغيرة على مستقبل الجمهورية الإسلامية، وإن شئت الدقة فقل إن دور الصراع على السلطة كان فى المقام الأول، ومسألة الغيرة هذه كانت فى المقام التالى، رغم أنها تمثل الحجة الرئيسية التى يستند إليها الخطاب السياسى الهجومى للمحافظين على الإصلاحيين.

[٤] حان موعد تصفية الحساب وحسم الأمر فى الانتخابات التشريعية التى جرت فى العشرين من شهر فبراير الماضى. وهى التى اكتسبت أهمية فى ذاتها من حيث إنها ستحدد شكل السلطة التشريعية خلال السنوات الأربع القادمة، وفى رمزيتها باعتبار أنها مقدمة ومؤشر كاشف عن الموازين التى ستحدد مصير الانتخابات الرئاسية التى ستجرى فى العام القادم، مع انتهاء ولايتى الرئيس خاتمى. أهم من ذلك أنها ستحدد فى الوقت ذاته مصير تجمع الإصلاحيين ووجود بعض فصائلهم.

ولا مفر هنا من الإقرار بأن الظروف هذه المرة كانت مواتية للمحافظين ومساعدة على ترجيح كفتهم، لعدة أسباب فى مقدمتها أربعة هى:

* الاحتلال الأمريكى للعراق، الذى جاء بالقوات الأمريكية على أبواب إيران من الغرب، وهى الخطوة التى جاءت فى أعقاب احتلال أفغانستان واستقدام القوات الأمريكية التى رابطت بمحاذاة حدود إيران الشرقية، الأمر الذى فرض عليها نوعاً من الحصار الاستراتيجى النسبى. ليس ذلك فحسب وإنما وقع احتلال العراق فى سياق حملة أمريكية هجومية واسعة النطاق على المنطقة، تحدث مسئولو البيت الأبيض خلالها بشكل متواتر عن إحداث تغييرات فى أنظمتها وإعادة رسم خرائطها. وكانت الإشارة إلى إيران صريحة فى ثنايا هذا الكلام، بل وقبل إطلاق أى كلام، حين صنفها الرئيس الأمريكى بوش ضمن ما سمى بمحور الشر. وهى إشارات تدفعها إسرائيل بقوة كما هو معلوم، ولا تدع مجالاً للشك فى أن إيران مستهدفة. وفى غيبة «الظهير السوفيتى» الذى كان ضمن ما تعول عليه طهران فى تحدى الضغوط الأمريكية، فإن ذلك الاستهداف فى الوقت الراهن لابد أن يؤخذ على محمل الجد. إن لم يصب إيران بدرجات متفاوتة من التوتر والقلق. وفى ظروف القلق هذه فإن الاحتشاد والاحتماء بالدفاعات الأساسية والقبض على الثوابت والجذور تغدو ردود أفعال طبيعية.

إذا صح ذلك التقدير، فإن أجواء كهذه تشكل ظرفاً تاريخياً مغايراً يستدعى المحافظين لكى يمسكوا بالزمام ويعينوا السفينة على الصمود والثبات فى وجه الإعصار الذى يلوح فى الأفق، فهم أهل هذه المرحلة التى يتهدد فيها الكيان. وحضورهم فى موضع القيادة يمثل استجابة لمتطلباتها. فهذا أوان التشرنق وليس الانبساط، والاستنفار وليس الاسترخاء.



المحافظون ضعفاء فى الشارع، خصوصاً فى أوساط المثقفين والطبقتين الوسطى والعليا، وفى محيط الشباب والنساء، لكن أقدامهم بقيت راسخة فى العديد من مواقع ومؤسسات السلطة. فالولى الفقيه سند رئيسى لهم

* الامتداح الأمريكى للإصلاحيين، الذى أزعم بأنه إذا كان المقصود منه تشجيعهم، فإنه أضر بهم كثيراً، وجاء خصماً من رصيدهم. إذ حين يمدحك من كان عدوك. على الأقل فى حسبان المواطن العادى الذى ما برح يهتف منذ قامت الثورة «الموت لأمريكا» (مرك بر أمريكا). فلابد أن يكون فيك شىء غلط، يدعو للتساؤل والاسترابة. لا أريد أن أذهب إلى السيناريو الأسوأ المتمثل فى أن امتداحهم ربما أريد به «إحراقهم»، لكى يتمكن المحافظون من بسط الهيمنة على كل المنافذ ويزداد الاختناق تفاقماً فى إيران، الأمر الذى قد يؤدى إلى تفجير الموقف وإسقاط النظام. ولكن فقط أقطع بأن ذلك المديح. فى حده الأدنى. أساء إلى الإصلاحيين فى بعض الدوائر، ووفر للمحافظين حجة قديمة للتشكيك فى تعاطفهم مع الولايات المتحدة، وإسرائيل بالتالى.

* الجناح العلمانى المتغرب الذى يستظل بمظلة الإصلاحيين أساء إليهم بدوره. ذلك أن هذا الجناح وجد له مكاناً فى محيط ذلك التيار الذى يشكل الدفاع عن الحريات السياسية قاسماً مشتركاً أعظم بين فصائله، من ثم كان الدفاع عن الديمقراطية نقطة التقاء بين تلك الفصائل. لكن من الواضح أن الالتقاء المرحلى حول هذه المسألة لم يستعجب التقاء مماثلاً فى المقاصد. فالإصلاحيون الحقيقيون أرادوها ديمقراطية إسلامية توظف الدين فى خدمة السياسة والمجتمع. بينما أرادها العلمانيون الرافعون لراية الليبرالية ديمقراطية غربية، تعزل الدين وتفصله عن السياسة والمجتمع، وحين عبر أولئك العلمانيون عن آرائهم، فإن ذلك أضاف إلى المحافظين حجة أخرى للتدليل على عدم إخلاص هؤلاء للجمهورية الإسلامية، واختراق صفوفهم من جانب الأصابع الأمريكية.

اجتماع السببين الثانى والثالث مكنا المحافظين من التنديد القوى بالمعسكر الإصلاحى. وهو ما تجلى مثلاً فى الهجوم الشديد الذى شنه عليهم أحد رموز التيار المحافظ فى مجلس الشورى، على إمامى راد، وقال فيه: «إن تناغم وانسجام علماء أمريكا والصهاينة الموجودين فى مجلس الشورى مع السياسات التى تتبناها أمريكا وإسرائيل، يتم فى إطار المؤامرة التى أعدتها الدول الغربية لضرب النظام الإسلامى» (نشرة «الموجز عن إيران». عدد يناير ٢٠٠٤، ص٥).

* السبب الرابع هو انفراط عقد التيار الإصلاحى. ذلك أنهم وقفوا صفاً واحداً فى انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٧، ولكن الفوز الكبير الذى حققه السيد خاتمى أعطى ثقة زائدة لجبهة المشاركة التى يتزعمها شقيقه السيد محمد رضا خاتمى، الأمر الذى دفعها إلى محاولة التفرد بمغانم الانتصار، والاستئثار بها دون حلفائها الآخرين فى التيار، وفى المقدمة منهم حزب «كوادر البناء» الواقف على يمينهم ويحسب أركانه وأنصاره على الشيخ هاشمى رفسنجانى الذى اعتاد أن يضع قدماً هنا وقدماً هناك، أيضاً ذلك أن الإصلاحيين الذين خاضوا انتخابات الرئاسة على قائمة واحدة عام ٩٧، شاركوا فى انتخابات البلديات عام ٢٠٠٣ موزعين على خمس قوائم انتخابية متنافسة هى: حزب جبهة المشاركة، حزب كوادر البناء، حزب التحالف القومى الدينى، حزب التضامن، وحركة تحرير إيران.. ولأنهم شاركوا فى الانتخابات على ذلك النحو، فى حين شارك المحافظون على قائمة واحدة، فلم يكن مفاجئاً أن يمنى الإصلاحيون بهزيمة منكرة، ويتفوق عليهم المحافظون، الذين سبق أن أشرنا إلى أنهم فازوا بـ ١٤ مقعداً من ١٥ فى بلدية طهران، التى تمثل «ترمومتر» الحال السياسى فى إيران.

[٥] لم يحسن المحافظون قراءة هذه الظروف، التى كان يمكن أن توفر لهم انتصاراً «نظيفاً»، إذا جاز التعبير، فلم يستثمروا التفاعلات السياسية لصالحهم، ولم ينجحوا فى أن يقدموا أنفسهم باعتبارهم المنقذ الحريص على الوحدة الوطنية فى الظروف الدقيقة والحرجة التى تمر بها البلاد. فيقودون حملة الاستنفار عبر احتواء الآخرين وحشد طاقات الجميع فى مواجهة التحدى المطروح، بصرف النظر عن أية خلفيات أو قرارات سياسية. آية ذلك أنهم فى المرحلة التى سبقت الانتخابات على الأقل، بدوا كقوة حزبية مصرة على إقصاء الإصلاحيين والحيلولة دون تمكينهم من المشاركة فى الانتخابات، فى حين كان المأمول أن يقدموا أنفسهم بحسبانهم قوة دفع تريد أن تحشد طاقات الأمة الحية لإنقاذ الوطن مما يتهدده. وفرق كبير من الناحيتين السياسية والتاريخية بين تكتل حزبى متلهف على استعادة السلطة والإطاحة بخصمه بأى ثمن، وبين قوة وطنية لا يشغلها إلا التحدى الأكبر المتمثل فى إنقاذ الوطن وتأمين مسيرته.

كانت المذبحة التى أجراها مجلس صيانة الدستور تجسيداً لغلبة منطق الإقصاء والحذف على أسلوب الاحتشاد والإضافة. فقد اعترض المجلس على ٣٦٠٥ مرشحين من أصل ٨١٥٦ قدموا طلبات الترشيح. ومن بين الذين اعترض عليهم المجلس ٨٢ عضواً فى مجلس الشورى الحالى (ارتفع العدد إلى ٨٧ لاحقاً) وهؤلاء كانوا على رأس الناشطين فى جبهة المشاركة، الذين تحدوا فى المجلس سلطان المحافظين طول الوقت.

حدثت الأصداء المعروفة التى تابعتها الصحف والفضائيات طيلة الأسابيع الماضية، من الاعتصام داخل مجلس الشورى، إلى استقالة ١٣٠ من أعضائه، إلى محاولة المرشد تخفيف هذه الأزمة ودعوته للمجلس بأن يعيد النظر فى قائمة الأسماء المحجوبة. لكن ذلك لم يحدث تغييراً جوهرياً فى الموقف، لأن الهاجس الأساسى لأركان مجلس «الصيانة» كان إزاحة رموز الإصلاحيين وإخراجهم من المشهد السياسى.

أستأذن هنا فى استطراد سريع خلاصته أن الدستور لم يعط مجلس صيانة الدستور حق حذف أسماء المرشحين أو فرض الوصاية على مشاركتهم، حيث تنص المادة ٩٩ منه على تولى المجلس «الإشراف» على الانتخابات، التى يفهم منها أن المقصود هو التحقق من سلامة إجراءاتها وضمان نزاهتها، ولكن المجلس وسع فى دائرة «الإشراف» حتى أدخل فى إطاره عنوة مسألة تحديد صلاحية المرشحين، وإجازة أناس وحجب آخرين. علماً بأن وزارة الداخلية هى الجهة المعنية أصلاً بتحديد مدى الصلاحية من خلال مراجعة السجل المدنى لكل شخص. وقد تجاوز المجلس هذه الحدود، وأعطى لنفسه الحق فى تقييم الصلاحية السياسية لكل مرشح. دمر تأويل النص على ذلك النحو حتى غدا تكريساً للوصاية على المجتمع وبسطاً لسلطان الولى الفقيه على مسار الانتخابات النيابية.

[٦] مثلما أن الأمريكيين حاولوا تشجيع الإصلاحيين فكانت النتيجة أنهم أضعفوا مركزهم، فإن المحافظين حينما حاولوا توجيه ضربة قاضية إلى الإصلاحيين بحجب رموزهم عن الترشيح، فإنهم قووا مركزهم نسبياً ورفعوا من أسهمهم فى الشارع الإيرانى.

لم يكن المحافظون بحاجة إلى الإقدام على «المذبحة»، فهم، كما قلنا، لايزالون يملكون من عناصر القوة ما يمكنهم من تطويق الإصلاحيين وتكبيلهم دون إراقة أى «دماء»، كما حدث منذ انتخاب السيد خاتمى رئيساً للجمهورية. كما أنهم لو تعاملوا مع قوائم المرشحين بدرجة أكبر من التسامح وسعة الصدر، فأغلب الظن أن الإصلاحيين كانوا سيشاركون وهم مشتتون وموزعون على عدة قوائم، كما حدث فى انتخابات البلديات، وتلك أجواء من شأنها أن توفر للمحافظين فرصة أكبر للفوز. خصوصاً إذا أضفنا إليها الظروف الأخرى المواتية، التى سبقت الإشارة إليها. لكنهم تسرعوا وفعلوا ما فعلوه متأثرين بالرغبة فى تصفية الحساب، فأثاروا تعاطف المجتمع مع الإصلاحيين الذين أصبحوا فى موقع «الضحية»، الأمر الذى يستدعى إلى الذاكرة العبارة التى استخدمها السيد خاتمى فى لافتات انتخابات عام ٩٧، ودغدغت مشاعر كثيرين، تلك التى وصفته بأنه «سيد مظلوم»، أى أنه وهو من «الأشراف» المنسوبين إلى سلالة النبى عليه الصلاة والسلام، يعانى من مظلومية أهل البيت، سيراً على درب الإمام الحسين.

ولأنهم فى الانتخابات قدموا بحسبانهم ضحايا، فقد كان ذلك مسوغاً لتبرئة ذمتهم أمام المجتمع فيما عجزوا عن الوفاء به من عهودهم، حيث رآهم الناس فى المشهد الأخير وهم مكبلو الأيدى ومهيضو الجناح، ويعانون من استحقاقات المظلومية، وتلك نقطة لصالحهم لا ريب.

غير أن الإقصاء الذى تم له صدى آخر يخشى من عواقبه فى المستقبل، يتمثل فى تعميق الاستقطاب بين الجناحين. إذ لا شك أنه عمق من الجرح فى الجانب الإصلاحى وباعد بينهم وبين المحافظين على نحو لا يخدم التماسك المطلوب للصف الوطنى فى المرحلة المقبلة. بل لعلى لا أبالغ إذا قلت أن من شأن ما جرى أن يغذى التطرف على الجانبين، فغلاة الإصلاحيين سيرون فيه دليلاً على عجز النظام عن احتمال استحقاقات الممارسة الديمقراطية، الأمر الذى يدفعهم إلى معاندته والإصرار على المطالبة بتغيير قواعد اللعبة السياسية، بما فى ذلك صلاحيات الولى الفقيه وعلاقة الفقهاء بالسلطة أو علاقة الدين بالدولة. أما غلاة المحافظين فقد يرون فيما أنجزوه مشجعاً على احتكار السلطة وحافزاً على التفرد بها، عن طريق ملاحقة الإصلاحيين فى مظانهم، والانتقال من الإقصاء إلى الاستئصال.

[٧] ثمة ملاحظات أخرى يتعين وضعها فى الاعتبار على المشهد الانتخابى فى إيران، هى:

❖ إن المحافظين فى سعيهم إلى الإقصاء لم يوجهوا سهامهم صوب كل فصائل التيار الإصلاحى، ولكنهم ركزوا على حجب جميع مرشحى «جبهة المشاركة»، ومنظمة «مجاهدى الثورة الإسلامية»، وعلى رأس رموز الجبهة المستبعدين أمينها العام السيد محمد رضا خاتمى شقيق الرئيس، ومحسن ميردمادى رئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشورى. وفى مقدمة الذين استبعدوا من قيادات منظمة المجاهدين بهزاد نبوى ومحسن أرماد. (جميعهم أعضاء فى المجلس الحالى).



كان واضحاً طوال فترة الشد والجذب التى شهدتها الأسابيع التى سبقت الانتخابات أن الرئيس خاتمى حريص على عدم تفجير الموقف مع المحافظين والوصول معهم إلى مرحلة كسر العظم

وبدا أن مجلس صيانة الدستور أبدى مرونة أفضل حيال المرشحين المنتمين إلى تجمع «علماء الدين المناضلين» الذى يقوده الرئيس خاتمى، ويتولى أمانته العامة الشيخ مصطفى كروبى رئيس مجلس الشورى الحالى، وحزب «كوادر البناء» القريب من الرئيس السابق هاشمى رفسنجانى. (كان المحافظون قد قاموا بإقصاء وتصفية بعض أركان الحزب فى السابق) وهو ما يسوغ لنا أن نقول بأن المحافظين أرادوا إضعاف المعسكر الإصلاحى عبر إقصاء بعض فصائله، حتى الآن على الأقل.

❖ كان واضحاً طوال فترة الشد والجذب التى شهدتها الأسابيع التى سبقت الانتخابات أن الرئيس خاتمى حريص على عدم تفجير الموقف مع المحافظين والوصول معهم إلى مرحلة كسر العظم، رغم أنه لم يكف عن انتقادهم، كما أن الشيخ رفسنجانى وجماعته (كوادر البناء) احتفظوا لأنفسهم بمسافة إزاء جبهة المشاركة، محتفظين فى ذلك بموقعهم على يمين الإصلاحيين، وهم الذين كانوا فى السابق على يسار المحافظين.

كان السيد خاتمى حكيماً حينما انحنى للعاصفة وتراجع عن فكرة الاستقالة ولم يتمسك بمطلب تأجيل الانتخابات، وهو بذلك جنب البلاد خطرين، أحدهما احتمالات الفوضى التى يمكن أن تنشأ عن تصعيد التوتر بين التيارين الإصلاحى والمحافظ، والتى سيكون الشارع طرفاً فيها على الأرجح. وهى فوضى لابد أن تصب فى صالح الذين يريدون إسقاط النظام الإسلامى خصوصاً أولئك الواقفين الذين ينتظرون على أبوابه. أما الخطر الثانى فيتمثل فى احتمال «عسكرة النظام»، الذى لوح به المحافظون فى حال إصرار الإصلاحيين على تأجيل الانتخابات، وهو ما أشارت إليه صحيفة «جمهورى إسلامى» المحافظة، التى ذكرت أنه فى حالة امتناع الحكومة عن إجراء الانتخابات فى موعدها المقرر (٢٠ فبراير) فإن هناك بدائل أخرى مطروحة لإجرائها، وكانت تلك البدائل محصورة فى تولى حرس الثورة و«الباسيج» مباشرة العملية والإشراف على إجراء الانتخابات.

كتاب الزاوية

مذكرات الأميرة جويدان

١ - زوجة الخديوى عباس الثانى

تولى الخديوى عباس حلمى الثانى حكم مصر عام ١٨٩٢ بعد وفاة والده الخديوى توفيق فى ذروة نفوذ اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر والحاكم الفعلى للبلاد آنذاك.

شهد عصر عباس حلمى بوادر تشكل صورة مصر الحديثة من خلال ظهور الأحزاب وقبل ذلك صدور صحف مهدت لقيام هذه الأحزاب. كما أن زعامات وطنية ذات وزن وقيمة برزت فى تلك الفترة وفى مقدمتها مصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف وأحمد لطفى السيد.

وقد كتب مؤرخون وباحثون مؤلفات عديدة عن تلك الفترة الثرية من تاريخ مصر، إلا أن مذكرات الأميرة جويدان زوجة الخديوى عباس حلمى تحمل نكهة خاصة باعتبار أنه من النادر للغاية أن تكتب زوجة حاكم مصرى فى ذلك الزمن مذكراتها كما أنها أى الأميرة جويدان لم تقتصر فى تلك المذكرات على النواحى السياسية بل تناولت قضايا اجتماعية عديدة كالحريم والمرأة وحفلات الأعراس وغيرها من الأمور التى تكاد تكون قد اندثرت حاليًا. وتبدو الأميرة جويدان فى مذكراتها سيدة طيبة خيرة متدينة وهى تتحدث عن عقلية زوجها التجارية واهتمامه بالمال والتجارة وتنمية ثروته أكثر من أى شيء آخر.

وقد أعادت دار الهلال إصدار هذه المذكرات فى أغسطس عام ١٩٨٠ بمقدمة طويلة للأستاذ سعد رضوان.

انتخـــابات إيـــران



❖ ظهر السيد خاتمى بمظهر رجل الدولة وبدا ومعه الشيخ مصطفى كروبى مستعدين للتضحية بمصلحة جماعتهما فى مقابل الحفاظ على المصلحة العليا للوطن، فى حين أن قادة المحافظين قدموا مصلحة جماعتهم على تلك المصالح العليا. وتلك نقطة تحسب عليهم لا ريب. ليس ذلك فحسب، وإنما أحسب أن مجلس صيانة الدستور وإن بدا أنه خرج منتصرًا فى المواجهة، إلا أنه خسر ثقة كثيرين فيه على نحو يجرح عدالته، بعدما بدا غير محايد فى الأزمة، ومغلبًا للهوى السياسى فى قراراته التى تتعلق بمستقبل البلد ومصيره.

[٨] هذه الخلفيات كان لها صداها فى التصويت على عضوية مجلس الشورى..

حدث ما كان متوقعًا حين أجريت الانتخابات وتم فرز الأصوات، حيث فاز المحافظون بنسبة عالية وفرت لهم أغلبية مريحة فى مجلس الشورى (حتى موعد طبع المجلة كان قد أعلن عن فوزهم بـ ١٤٩ من ٢٩٠)، فى حين حصد الإصلاحيون والمستقلون ٦٥ مقعدًا (بنسبة ٢٢,٤٪).

ومع اطمئنانهم إلى النتيجة بدأ الحديث فى طهران عن بروز «المحافظين الجدد»، وهو عنوان بدا موحيًا بأن هناك جيلاً من المحافظين مختلفًا عن الصورة النمطية الشائعة عنهم، سمته الأساسية أنهم خليط من أهل الاعتدال وأهل الخبرة (التكنوقراط). وسواء كان ذلك وصفًا حقيقيًا أم أنه مجرد محاولة لطمأنة الجميع وكسب تعاطفهم، خصوصًا أن ثمة جولة انتخابية أخرى فى العام القادم يتطلع المحافظون إلى كسبها، بعد انتهاء الولاية الثانية للرئيس محمد خاتمى، لكى تتم لهم الهيمنة الكاملة على مختلف سلطات ومؤسسات الدولة. أيًا كان الأمر فالشاهد أن المحافظين أصبحوا مضطرين إلى تبنى العديد من عناوين الخطاب الإصلاحى، لتغيير الصورة النمطية التى استقرت عنهم فى الإدراك العام، داخل إيران وخارجها. وقد لوحظ فى هذا الصدد أن أحد أبرز رموزهم، الدكتور حداد عادل، المرشح لرئاسة مجلس الشورى، تحدث إلى وسائل الإعلام بعد فوزه بأعلى الأصوات فى طهران قائلاً: أن ما يشغله هو وزملاءه هو تحقيق التنمية الاقتصادية وحل المشاكل المعيشية للناس، مشيرًا فى هذا الصدد إلى أمله فى أن تصبح إيران بمثابة «يابان إسلامية».

من الملاحظات الأخرى المهمة أن نسبة التصويت فى الانتخابات كانت فى حدود ٥٠٪ (أى نصف عدد الناخبين الإيرانيين البالغ عددهم ٤٦ مليون شخص). ولأن هذه النسبة غير معهودة فى انتخابات بهذه الأهمية فى الجمهورية الإسلامية، فإنها تعنى أن على المحافظين أن يبذلوا جهدًا أكبر لكسب ثقة الشارع الإيرانى وتأييده. وسيكون موقفهم من الحريات العامة حاسمًا فى تعزيز تلك الثقة أو تراجعها. يتصل بذلك موقفهم من التيار الإصلاحى، وما إذا كانوا سيعمدون إلى الإطاحة به أو التعاون مع بعض أجنحته، على الأقل تلك التى لم تقاطع الانتخابات. وهو ما سيبينه موقف مجلس الشورى المنتخب فى حكومة السيد خاتمى، حيث يتعين على الطرفين أن يتعايشا معًا لمدة ثمانية أشهر على الأقل، حتى يحين موعد الانتخابات الرئاسية القادمة. وتجربة هذه الأشهر هى التى ستحدد لنا إلى حد كبير ما إذا كانت نتيجة الانتخابات بمثابة تداول للسلطة أم انقلاب على النهج الإصلاحى برمته.

السيناريو الأسوأ هو أن يعمد المتطرفون من المحافظين إلى استئصال الإصلاحيين، متشجعين فى ذلك بالأغلبية التى حصلوا عليها فى الانتخابات، وأن يعمد المتطرفون من الإصلاحيين إلى تحدى النظام بأسره متشجعين بغواية المساندة الخارجية لهم. وفى كل الأحوال فإن الموقعة الانتخابية التى شهدتها البلاد ستظل نقطة فارقة فى مسيرة الجمهورية الإسلامية. ومنعطفًا يقودها إلى واحد من طريقين «السلامة» عنوان الأول و«الندامة» عنوان الثانى. وأحسب أن انتظارنا لن يطول حتى يأتينا الخبر اليقين. ■

الكتلة الحرجة.. وصناعة التفوق



لم يعد كافياً أن نعلم أولادنا مواجهة المشاكل التى تتصل بالماضى الذى تعودنا عليه، أو بالحاضر القريب الذى نعيشه حتى الآن. إنما مسئوليتنا هى أن نعدهم لنوعية من المشاكل نحن لم نقابلها فى حياتنا ولم نتعود على حلها فلم تكن لدينا طريقة لقياسها أو التعامل معها وعلينا أن نتصورها علمياً أو نحلم بها فى بعض الأحيان ثم علينا أن نستخدم كل قدرتنا فى محاولة تسليح أبنائنا بالقدرات اللازمة لحل هذه المشاكل.. وهناك مقولة للإمام على يقول فيها «لا تطبعوا أولادكم بطباعكم فقد خلقوا لزمان غير زمانكم».. فمسئوليتنا أن نعد أولادنا لزمن غير زمننا.

الطـــالب:

لقد أصبح من الواضح جداً أن نوعية التعليم المطلوبة للقرن الحالى أو للموجة الثالثة هى التعليم للمستوى الثالث. وربما لا يكفى هذا التعليم أيضاً بل يجب أن يعقبه تدريب مستمر مدى الحياة، وإذا كان الإنسان سيغير مهنته من ثلاث إلى أربع مرات فى العمر فهذا معناه أنه يجب أن تكون لديه قاعدة عريضة جداً من الخبرات والقدرات، وتكون عنده القدرة على التكيف والانتقال من تخصص إلى تخصص آخر.. هنا يختلف النظام التعليمى عما تعودنا عليه.. لقد كنا نناقش فى المؤتمر العالمى الذى دعى إليه «جون تيبل» مبدأ التعليم الأساسى الذى كان يعنى التعليم الإبتدائى.. وقمنا بمده إلى التعليم الإعدادى.. أما الآن فهل التعليم الأساسى سيكون هو التعليم قبل الجامعى؟ وهل التعليم الجامعى سيكون جزءاً من التعليم الأساسى؟ لقد ذكر «كلينتون» هذا الكلام وكذلك قاله «شيمون بيريز» عام ١٩٩٥.. وهل شكل المدرسة سيظل كما هو موجود حالياً مع تطور الإنترنت والتقدم فى ثورة الاتصالات والإلكترونيات والكمبيوتر؟ هل أصبح دور المدرس نفس الدور؟ كل هذه أسئلة بعضها نستطيع بشىء من الجهد أن نتوصل لإجابة له وأغلبها مازال فى علم الغيب.

لقد أصبح من المستحيل أن نحمل أبناءنا خزائن المعلومات المتاحة لهم فهذا فوق قدرة أى بشر، وأصبح الخيار الأوحد هو أن نسلحهم بمفاتيح هذه الخزائن فقط، وأن نعلمهم طريقة استخلاص المعلومات وطريقة تنظيمها وطريقة توظيفها. هذا هو الخيار المطروح إذ يتعين علينا أن نفكر بمنطق التنمية وهو منطق الجودة الشاملة وليس بمنطق التعبئة وهو منطق التغيير الكمى فقط. لذلك فلابد من إحداث ثورة فى مفاهيم وأطر التعليم بالنسبة للهيكل التعليمى وبرامجه وأساليب أدائه فى الاتجاه الذى ننشده لبناء نسيج الجيل الجديد.

ويجب التركيز على مشروع المدارس المنتجة كإحدى الوسائل المهمة لإرساء منطق التنمية فى التعليم خاصة فى المدارس الإعدادية، ولعمل مشروعات صغيرة مرتبطة بالبيئة والمجتمع المحيط تركز على الأفكار الجديدة، والنماذج غير النمطية. ومشروع المدارس المنتجة مشروع تربوى بالدرجة الأولى يدعم أهداف العملية التعليمية ولا ينقص من دور المدرسة الأساسى فى التعليم. وتلك المشروعات الصغيرة تعمل على رأب الصدع والقضاء على الفجوة بين التعليم الأكاديمى وارتباطه بسوق العمل وتسليح أبنائنا بالخبرات العملية التى تمكنهم من العمل كطلائع للإنتاج. بالإضافة إلى جانب كبير من الفوائد كقدرة الطالب على ممارسة التسويق والتفاوض، ودراسة السوق، وعلى تدعيم ثقة الطالب بنفسه. وهذه الثقة قد لا يستطيع التعليم النظرى تحقيقها. وبهذا تستطيع المدرسة المنتجة أن تتيح الفرصة للطالب أن يكتسب مهارات رجل الأعمال ويعمل كتاجر صغير أو منتج صغير يعرف كيفية تقصى آراء وأذواق المستهلكين، والتعامل مع الموارد، ويتعرف من خلال التجربة العملية على مشكلات السوق ويكتسب مهارات أساسية للعمل كإدارة الوقت، والتفاوض، والتخطيط الجيد، وإعداد الخطابات والتكلفة الاقتصادية، ودراسة الجدوى للمشروع، وأساليب القيادة والتأثير على الآخرين، وتقدير جهدهم، مما يعطى للطالب خبرات التعليم المستمر والقدرة على المشاركة الفعالة فى الحياة فى مرحلة مبكرة، ويساعد فى تحول نظرته للوظيفة الحكومية كهدف نهائى للتعليم، والنظر إلى آفاق مستقبلية أوسع لطموحاته، واستخدام أفضل لإمكانياته وموارده الذاتية، فمن الممكن أن يدلى طفل صغير من أبنائنا بفكرة متميزة ويكون لها تطبيقات صناعية واقتصادية تفيد الوطن كله. إننا فى حاجة إلى الإنسان المنتج الذى يستطيع أن يساهم فى التقدم الاقتصادى لمجتمعه خاصة أن التقدم الاقتصادى هو عصب الحياة والوسيلة الوحيدة لتوفير كل متطلبات النهضة فى أى دولة، وهو المصدر الأساسى لتمويل التعليم ذاته لذلك يجب أن نعزز قدرة المجتمع على التعلم الذاتى والإعداد السليم للمواطنة والتدريب المتميز ليكون منتجاً وعلى مستوى عال من القدرات والخبرات.

المعـــلم..

إننا اليوم فى إطار الموجة الثالثة نريد إنساناً مبدعاً، فنحن نريد مدرساً من نوعية مختلفة.. مدرساً وظيفته ليست هى الناقل ولا الملقن للمعرفة بل الوسيط النشط والمنسق والمحفز لهم ومديراً للحوار الذى يستنهض به همم الطلاب، والذى يرعى مواهبهم، ويتيح لهم القدرة على النقد البناء والحوار الجاد والاختلاف فى الرأى. ولكن كيف يمكن للمدرس الذى تربى على غير هذه المفاهيم أن يقوم بهذا الدور الجديد؟ مهمة صعبة جداً وتحتاج إلى جهد كبير ووقت حتى نستطيع أن نحققها.. ولا بديل عن تحقيقها لأن هذا القرن ليس فى حاجة إلى موظفين أو لعمال على خطوط إنتاج ثابتة.. فخطوط الإنتاج لم تعد ثابتة والعامل التقليدى لا وجود له. ولابد من إنسان قادر على التعامل مع الرياضيات والكمبيوتر والوسائط المتعددة واللغات، ولديه قدرة على اتخاذ القرار. وهذه نوعية مختلفة تماماً عن النوعية التى كان يخرجها النظام التعليمى القائم. لذلك فلابد من تغيير أفكار المعلمين وسلوكياتهم وخبراتهم.. وطريقة إعدادهم وتدريبهم تدريباً جيداً بحيث يتم إعدادهم لمهام ومسئوليات جديدة ومتغيرة لأننا لا نستطيع أن نستغنى عنهم ونستورد غيرهم. وهذا يستلزم العمل على التوفيق بين اعتبارات العولمة ومتطلباتها وتعميق المشاركة الديمقراطية. وهى شعار العصر. داخل المؤسسة التعليمية. لأن المناخ الديمقراطى يساعد على إظهار المواهب والإبداع، والمحافظة فى نفس الوقت على قيمنا الأصيلة التى نتمتع بها من تماسك اجتماعى، وروح الأسرة، والانتماء، والولاء، مع الاهتمام برموز الأمة تاريخياً كقدوة لأبنائنا. ومن هنا كانت أهمية التدريب كوسيلة لتطبيق هذا التغيير فى أفكار وسلوك المعلمين، وابتعاثهم إلى دول العالم المتقدمة، ليمثلوا بعد عودتهم ما يعرف فى العلم بالكتلة الحرجة، وهى بداية تغير كيفى تنطلق منه طاقة إشعاع وتنشأ على الفور تغيرات نوعية خطيرة فى نمط العمل وتعطى قوة دفع هائلة كما يحدث فى الطاقة النووية لمواكبة الثورات العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية وثورة الاتصالات الهائلة التى تحدث فى العالم اليوم.

ويجب أن يتوافر فى أفراد الكتلة الحرجة الإصرار والمثابرة والبعد عن الروتين الحكومى، فالكتلة الحرجة تدربوا على مخاطبة الرأى العام وكيفية التأثير على الآخرين، وهم يملكون خبرات ومهارات يجب استعمالها بدون الروتين الحكومى، ويجب أن يعتبر كل فرد منهم نفسه مسئولاً عن هذه المؤسسة.. مسئولاً عن توضيح الحقائق، والرد على المغالطات. إن هذه القوة الضاربة تستطيع أن تحدث تأثيراً كبيراً فى الرأى العام وتشكله خصوصاً إذا تحرينا الدقة والصدق فيما نقوله، وهذا يستلزم العمل بروح الفريق ومساندة مسيرة التعليم المتنامية من قبل التربويين منظرين وممارسين ميدانيين، وتكوين لوبى مستنير من المهتمين بالشأن العام لتوضيح وتفسير وتصحيح ما استغلق فهمه من أمور التعليم.

ليس أمامنا إلا خيار واحد.. أن نجعل هذا الوطن كتلة حرجة تستطيع أن تغير وجه الحياة على أرض مصر، وأن نجعل من هذه الأرض الطيبة كنانة الله فى أرضه وواحة وحصناً للأمان، وساحة للعلم والفن، وملتقى للثقافات والأفكار.

من كتاب: مفترق الطرق
حسين كامل بهاء الدين
القاهرة: دار المعارف ٢٠٠٣

التضليل بالأرقام وبوسائل أخرى!

جـــلال أمـيـــن

■ ■ لم يكن من الممكن لمن لم يعجبه التقرير الأول عن «التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢»، أن يعجبه التقرير الثانى الذى صدر منذ أسابيع قليلة بعنوان: «التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣: نحو إقامة مجتمع المعرفة». فالهيئة التى يصدر عنها التقرير هى هى، (برنامج الأمم المتحدة للإنماء)، ومصادر التمويل واحدة، والمشرفون الرئيسيون والنهائيون عن التقرير هم هم لم يتغيروا، والهدف الأساسى من إصداره، فى رأيى، واحد لم يتغير، وطريقة إعداده وإخراجه لم تتغير أيضاً.

قد يقال إن الانتقادات الكثيرة التى وجهت إلى التقرير الأول ربما دفعت معدّى التقرير إلى محاولة تلافيها فى التقرير الثانى. ولكنى بصراحة لم أتوقع هذا. لابد أن هذه الانتقادات قد ضايقت أصحاب هذا التقرير، ولكن الدوافع والأسباب التى تجعلهم يقعون فى نفس الأخطاء مرة أخرى أقوى وأشد. لا بأس من التظاهر بمحاولة تجنب هذه العيوب، ذرًا للرماد فى الأعين، ولكن كيف يجرى أى إصلاح حقيقى فى ظل نفس الهدف ونفس طريقة العمل؟ خاصة أن الهيئة التى يصدر عنها التقرير حريصة فيما يظهر على أن يخرج التقرير الثانى فى موعده، وألا يتأخر لحظة، فوسائل الإعلام تنتظر، والدنيا كلها مستعدة لاستقبال الحلقة الثانية من مسلسل التشهير بالعرب.

لابد أن واضعى التقرير الثانى قد قابلتهم بعض الصعاب، ولكن ذكاءهم كان يمدهم دائمًا بطريقة للتغلب عليها. هناك مثلاً النقد القاسى الذى واجهوه بأن التقرير الأول، وقد صدر بعد نحو تسعة أشهر من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كان رحيماً أكثر من اللازم فى كلامه عن الأمريكيين والإسرائيليين، ولم يحملهم بدرجة كافية المسئولية عن سوء الأداء العربى فى مختلف المجالات، بل اكتفى بإشارة سريعة فى مقدمة التقرير إلى بعض الآثار السلبية للاحتلال الإسرائيلى (مؤكداً مع ذلك، حتى فى هذا الصدد، على مسئولية العرب، الذين «استغلوا» المشكلة الفلسطينية لصرف النظر عن أخطائهم)، وتغاضى تغاضياً كاملاً عن مسئولية الدول الكبرى عن تورط الحكومات العربية فى بعض السياسات الاقتصادية الخرقاء. كان لابد من مواجهة هذا النقد، ومحاولة تجنب تكرار توجيهه للتقرير الثانى. فما أفضل طريقة لذلك، دون المساس بالهدف الأساسى الكامن وراء هذه التقارير كلها؟

اهتدى واضعو التقرير إلى الحل التالى: فلنخصص بضع صفحات فى الفصل الأول من التقرير لشجب «الاحتلال الإسرائيلى»، وكذلك «احتلال» العراق، فى فصل بعنوان (تطورات التنمية الإنسانية فى البلدان العربية منذ عام ٢٠٠١) ولا بأس من أن يستغرق هذا وذاك ست أو سبع صفحات من التقرير، على أن ينسى الأمر بأكمله فى بقية التقرير، ويتفرغ التقرير لمهمته الرئيسية.

فمن المفيد مثلاً أن توضع فقرة يصب فيها أصحاب التقرير غضبهم على تحميل الغير مسئولية أخطاء ارتكبها العرب أنفسهم، فتقول: «إن المغالاة فى تقدير مدى إعاقة التحديات الإقليمية والعالمية للتنمية فى البلدان العربية ليست مسلكًا إيجابياً مفيداً، بل هى مسلك هروبى فى المقام الأول، مريح للنفس المكدودة ولكنه شديد الخطر. إنه ينطوى على تكريس قعود الهمة ووهن القدرة، كما يعمى الأبصار عن مهمة الإصلاح الذاتى» (ص٢١،٢٢) كما يراعى التقرير منتهى الحذر فى الحديث عن آثار الأعمال الإسرائيلية والأمريكية. فعند التعرض لآثار الأعمال الإسرائيلية على العرب يُفضل التركيز على «التكلفة الإنسانية للاحتلال الإسرائيلى» التى لابد أن يتحرك لها أى قلب رحيم، وعند الكلام عن الهجوم الأمريكى البريطانى على العراق يُستحسن أن يشار إلى ذلك «بالتحالف»، ولا بأس من الإشارة إلى أن «أوخم العواقب غير المباشرة للحرب الأمريكية على «الإرهاب»، أن السلطة فى بعض البلدان العربية وجدت مبرراً آخر للتضييق مجدداً على الحريات» (ص ٢٣) فتوضع كلمة «الإرهاب» بدلاً من «العراق» ويؤكد على مسئولية العرب حتى عن آثار هذا الهجوم الأمريكى إذ وجدوا فيه «مبرراً» لتضييق الحريات!

على أى حال بعد هذه الصفحات القليلة التى يُرجى أن تُنسى بسرعة، يتفرغ التقرير لمهمة تقريع العرب وتوبيخهم وبيان خطاياهم فى مجال خطير هذه المرة، وهو مجال «المعرفة». وهنا يختفى الإسرائيليون والأمريكيون اختفاءً تاماً ولا يبقى لتحمل المسئولية إلا العرب أنفسهم.

لجأ أصحاب التقرير أيضاً إلى حيلة أخرى، استخدموها فى التقرير الأول ولكن اكتشفوا أهميتها البالغة فى التقرير الثانى. وهى استخدام أسماء عدد من الشخصيات العربية اللامعة والمرموقة، والتى تتمتع باحترام عام لدى المثقفين العرب، وإدخالهم «كمشاركين فى إعداد التقرير». فهناك أولاً «الفريق الاستشارى»، الذى يضم ٢٣ اسماً بعضها لألمع المثقفين والمفكرين العرب، وهناك «الفريق المركزى» الذى يضم، إلى جانب الرئيس، أربعة أسماء مرموقة، وهناك «المؤلفون المشاركون (معدو الأوراق الخلفية)»، ويضم ٣٥ شخصاً يكادون أن يكونوا جميعاً من ألمع المفكرين والمثقفين العرب، الذين لا يمكن أن يشك أحد فى إخلاصهم لقضية الإصلاح والنهضة العربية. إلى جانب هؤلاء هناك فريقان يسميان «فريق القراء للنسخة العربية»، و«فريق القراء للنسخة الإنجليزية»، وهما الفريقان اللذان يعرض عليهما التقرير فى إحدى مراحله النهائية (أو يفترض أن يعرض عليهما) لإبداء الملاحظات الختامية عليه أو إقراره. ويضم الفريق الأول ثمانية أسماء عربية مرموقة، ويضم الثانى ثمانية أسماء أخرى معظمها لخبراء أجانب، وإلى جانب هؤلاء جميعاً هناك مساهمون من العاملين ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائى ومكتب الأمم المتحدة لخدمات المشاريع وفريق يسمى «فريق التحرير» وفريق الترجمة.

لا يجب أن نمر بهذه الحقيقة مرّ الكرام، فكثرة المشاركين فى التقرير وتنوع مسئولياتهم وتوزيع اختصاصاتهم على هذا النحو كان له بلا شك أثر مهم للغاية على المنتج النهائى. وأرجو من القارئ أن يعود بذاكرته ٦٥ عاماً إلى الوراء عندما

يتفرغ التقرير لمهمة تقريع العرب وتوبيخهم وبيان خطاياهم فى مجال خطير هو مجال «المعرفة». وهنا يختفى الإسرائيليون والأمريكيون اختفاءً تاماً ولا يبقى لتحمل المسئولية إلا العرب أنفسهم

تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣: نحو إقامة مجتمع المعرفة
برنامج الأمم المتحدة للإنماء، ٢٠٢ صفحة

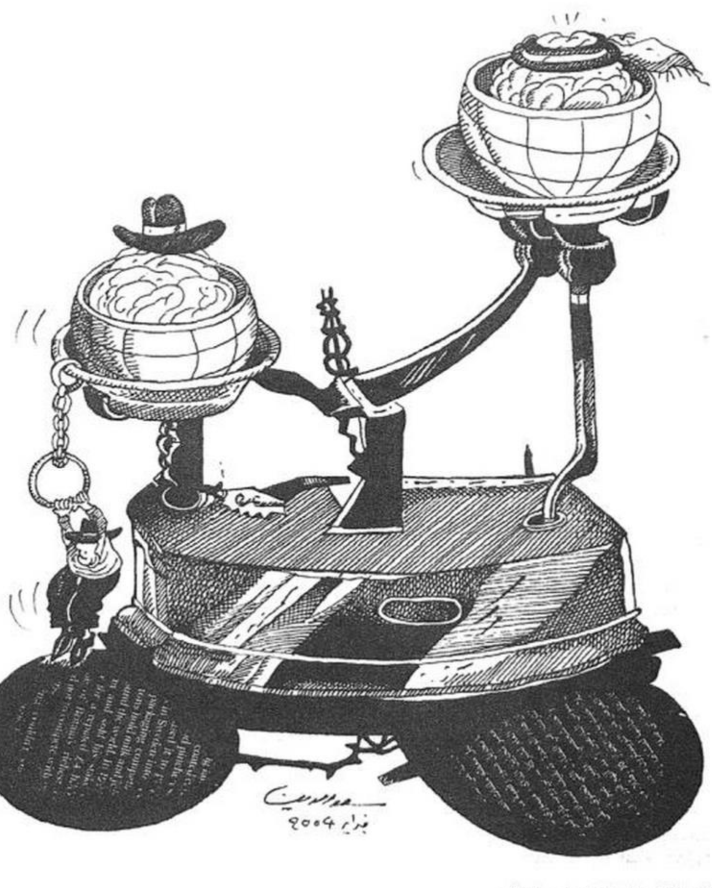
نشر طه حسين كتابه الشهير «مستقبل الثقافة فى مصر» لمناقشة نفس القضية التى يناقشها هذا التقرير «نحو إقامة مجتمع المعرفة». فقدم لنا كتاباً لا يحمل إلا اسمه، يتحمل هو وحده مسئوليته ويتمتع فيه بمنتهى الحرية فى تحديد ما يقول وما لا يقول، وطريقة قول ما يريد قوله، ولم يدفعه إلى كتابته إلا دافع من نفسه. فلم تطلب منه ذلك هيئة دولية أو «برنامج للإنماء». وعندما كان طه حسين يكتب صفحة من هذا الكتاب كان يعرف أن هذه الصفحة ستظهر كما هى فى الكتاب، وليست مجرد صفحة من «ورقة خلفية»، من سلطة رئيس الفريق المركزى أن يبقيها أو يحذفها أو يعدلها، دون أن يكون هذا الرئيس مضطراً لاستشارة صاحبها والحصول على إذنه على الحذف أو التعديل.

وفوق كل هذا كان الكاتب فى حالة «مستقبل الثقافة فى مصر» ليس فقط رجلاً مرموقاً ومعترفاً بفضله بل كان أيضاً رجلاً يعترف الجميع بأنه مفكر وصاحب موقف. قد نختلف معه ولكن موقفه واضح ولا يختفى وراء عبارات مبهمة، بعضها مبهم لأنه مترجم من لغة أجنبية، وبعضها مبهم لأن كاتبها يتعمد الإبهام.

كم تغيرت الدنيا فى هذه العقود السبعة الماضية! فآلت مسئولية إصلاح أحوال الثقافة والتعليم والمعرفة فى البلاد العربية إلى هيئة لها اسم غريب هو «برنامج الأمم المتحدة للإنماء». أهدافها مستوحاة من خارج المنطقة العربية، ولكنها لا تصرح بهذه الأهداف وإنما تتظاهر بعكسها. وفى سبيل ذلك تعهد بأداء المهمة إلى مجموعة من العرب المرموقين يرأسهم «فريق مركزى». يقوم بتكليف كتاب ذوى مشارب متفرقة ومتعارضة أشد التعارض. ففيهم اليسارى واليمينى. المؤيد بشدة للهجوم الأمريكى والمعارض بشدة. الأكاديمى المسالم والسياسى النشط. الغاضب غضباً شديداً على ما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين والمؤيد بشدة لأى مشروع للتصالح معها. الموسوعى واسع الأفق والعالم المتخصص تخصصاً ضيقاً وقليل الصبر على قراءة قصة أو رواية.. إلخ. هؤلاء جميعاً يكلفون بكتابة أوراق خلفية وأمامية. ولكن بشرط واضح وصريح: متى سلموا هذه الأوراق انتهت مهمتهم، ولا يستطيعون مطالبة «الفريق المركزى» بشىء، ولكنهم فى مقابل ذلك يعفون تماماً من المسئولية عن الحالة التى يظهر بها التقرير فى صورته النهائية.

ما نوع التقرير الذى تنتظر أن ينتج فى ظل هذه الترتيبات؟

الإجابة: تقرير من هذا النوع بالضبط. لا طعم له ولا رائحة. موقفه الوحيد هو ما يشتم مما بين السطور، ويستخلص مما سكت عنه أكثر مما يستخلص مما تكلم فيه. وهذا الموقف هو الموقف الذى يرضى عنه «برنامج الأمم المتحدة الإنمائى» بأجندته الخفية، التى لا تجد فى أى مكان تعبيراً صريحاً عنها، ولكنك تستطيع، بل من واجبك، أن تحاول اكتشافها.



إذا كان الأمر كذلك، فعلى من تقع مسئولية هذا التقرير فى الحقيقة؟ هل هى مسئولية الجميع؟ أم مسئولية الفريق المركزى فقط؟ إلى أى مدى يمكن أن نلوم كاتب الأوراق الخلفية إذا أخذ التقرير صفحة من أربعين صفحة مثلاً، كتبها أحد هؤلاء الكتاب، وأعاد أحد «المحررين» أو عضو فى «الفريق المركزى» صياغتها وترك بقية الصفحات؟ من الذى يجب أن يوجه إليه اللوم مثلاً عن خلو تقرير يحمل عنوان «نحو إقامة مجتمع المعرفة» خلواً تاماً من أى إشارة لموضوع علاقة اللغة العربية باللغة الدارجة (باستثناء نصف فقرة تتكون من ١٢ سطراً فى ص ١٢٤ ولا تكاد تمس الموضوع حتى تتركه) ولا أى مناقشة لأثر التوسع فى إنشاء المدارس والجامعات الأجنبية فى البلاد العربية على مكانة اللغة العربية.. إلخ؟

أترك الحكم فى هذا للقارئ، ولكنى لا أستطيع أن

حول التنمية الإنسانية العربية



أمنع نفسي من توجيه عتاب لأستاذين كبيرين نعرف جميعًا مساهمتهما المشكورة في الدفاع عن قضايا العالم الثالث، وهما عضوان من الثمانية أعضاء في «فريق القراء للنسخة العربية»، ليس فقط لموافقتهما على وضع اسميهما على هذا النحو باعتبارهما من «المشاركين في إعداد هذا التقرير»، ولكن على الأخص لسماحهما بمرور جزء بعنوان «حماية الحرية النوعية المتمثلة بحرية المعرفة: الملكية الفكرية» (ص١٥٢ ـ ١٥٤) فهذا الجزء من التقرير يصلح لأن يكون نموذجًا لما تحب الشركات المتعددة الجنسيات نشره بين الرأي العام العربي، إذ لا يحتوي على أي تحفظ أو أي شك حول أثر النصوص الجديدة في اتفاقيات الجات عن حماية حقوق الملكية الفكرية على التنمية في العالم الثالث، وكأن كاتبي هذا الجزء من التقرير لم يسمعوا قط عن الشكوى المرة التي عبرت عنها دول العالم الثالث من جراء تطبيق هذه النصوص، وإصرار الشركات الكبرى عليها لتحقيق المزيد من الأرباح على حساب صحة ورفاهية فقراء هذه الدول.

ولكن هذا الجزء المعنون «حماية الحرية النوعية المتمثلة بحرية المعرفة: الملكية الفكرية» (وهو عنوان بالغ الركاكة في حد ذاته) ينتهي بفقرة غريبة لا يسعني إلا أن ألفت نظر القارئ إليها، فهي بلا مناسبة تحتوي على تشهير مذهل بالعرب إذ تقول «إن قيم المجتمع العربي اليوم هي قهرية ولا تقيم اعتبارًا للإنسان» (!؟) وتنتهي بالجملة الغريبة التالية «إن هذه المعطيات لا تساعد على رفع التحديات في هذا الزمن المكثف» (!؟)

بمثل هذه الحيل وفي ظل هذه الترتيبات يمكن أن يتفرغ تقرير التنمية الإنسانية العربية «للتشهير بالعرب». وفي هذا العام بالذات (٢٠٠٣) يجري التركيز على أحوال «المعرفة»، بعد أن وضع التقرير الأول الخلفية العامة لمختلف النقائص العربية: في ميادين الحرية والمعرفة وتمكين المرأة. وكما حدث في التقرير الأول، يحاول أصحاب هذا التقرير إخفاء تحيزاتهم وراء دخان كثيف من الأرقام، فيستخدمون هذه الأرقام لإظهار العرب في صورة باعثة على الرثاء أو الاحتقار، إذ تذكر الأرقام بمعزل عن ظروفها ومسبباتها، ويجمع الصالح والطالح في رقم واحد فيبرز الجانب السلبي على حساب الإيجابي، ولا يميز تمييزًا كافيًا بين أداء بلد عربي وبلد عربي آخر، على أمل أن يطيح الأداء السيئ بالأداء الجيد، ولا تمييز كافيًا بين فترة وأخرى، على أمل أن يخفي ما حدث في فترة طويلة سيئة، ما يمكن للعرب أن يفعلوه في ظل ظروف أفضل. وفي جميع الأحوال يمتنع الكلام عن أي ضغط خارجي مارسته دولة أجنبية أو مؤسسة دولية، أو عن المتاعب التي سببتها سياسة الانفتاح، فمثل هذا يعتبر من قبيل «المسلك الهروبي.. المريح للنفس المكدودة ولكنه شديد الخطر». باختصار يسد تقرير التنمية الإنسانية العربية على العرب أي منفذ للهروب، حتى ولو كانت نفوسهم مكدودة جدًا، لكي ينهال عليهم التقرير برقم بعد آخر مما يزيد شعورهم بالكد والنكد.

من ذلك مثلاً ما فعله التقرير السابق من مقارنة الناتج القومي الإجمالي للدول العربية بالناتج القومي الإجمالي لإسبانيا، وقوله إن مجموع الناتج القومي للاثنتين وعشرين دولة عربية هو أقل من الناتج القومي الإجمالي لدولة واحدة هي إسبانيا. وهو قول صحيح ولكن قوله هكذا مجردًا من أي تفسير أو توضيح، ومحاطًا من كل جانب بالانتقادات وذكر النقائص واحدة بعد الأخرى، لا ينطوي على أكثر من عملية إذلال وإهانة للعرب وتقديم سلاح جديد ليستخدمه أعداؤهم للإمعان في إهانتهم وإذلالهم. وهذا هو ما حدث بالفعل، إذ لم يفت أي شخص من المهتمين بالتشهير بالعرب في الغرب وفي بلادنا على السواء استخدام هذه المقارنة مع الإشارة إلى أن مصدر هذه المعلومة تقرير كُتب بأيدي عرب مرموقين، ومصادر عن هيئة دولية! لقد اختار كاتبو التقرير إسبانيا بالذات، لأنها دولة لا تقترن في الذهن بالتقدم الاقتصادي الباهر، ومن ثم فتفوقها على ٢٢ دولة عربية مجتمعة لابد أن ينطوي على إذلال أكبر للعرب. ولكن هذا الانطباع المهين ينطوي أيضًا على قدر كبير من التضليل. فكثرة عدد الدول العربية يستخدم هنا للإيحاء بالعجز رغم الكثرة، مع أن سبعًا من هذه الدول العربية يقل عدد سكانها مجتمعة عن نصف عدد سكان إسبانيا. وزيادة الناتج القومي الإسباني على الناتج القومي للعرب يستخدم للإيحاء بالقوة والبأس من ناحية إسبانيا، والفشل والضعف من ناحية العرب، مع أن زيادة طفيفة في سعر النفط يمكن أن تجعل هذه المقارنة لصالح العرب. والعبارة توحي على أي حال بأن هناك شيئًا شاذًا في العرب جعل دولة واحدة كأسبانيا تتفوق عليهم جميعًا، مع أن نفس المقولة تنطبق أيضًا، وبدرجة أشد درامية ، على دولة كالهند، إذ أن الناتج القومي لأسبانيا، التي لا يزيد عدد سكانها على ٤٠ مليونًا، يزيد على الناتج القومي للهند الذي يبلغ عدد سكانها ٢٥ مرة قدر سكان أسبانيا. ولكن من حسن حظ الهند أن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ليس مشغولاً في هذه الأيام بالتشهير بالهند، بل يفضل التركيز على العرب.

هذه العملية من التضليل باستخدام الأرقام استمرت بالطبع في التقرير الثاني، بل ومنذ أول صفحة. ففي أول فقرة من تقديم هذا التقرير بقلم المدير العام لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، نقرأ ما يلي:

«كان إصدار تقرير التنمية الإنسانية الأول في العام الماضي ظاهرة متميزة بكل المقاييس، ويشهد على ذلك استنساخ أكثر من مليون نسخة منه عن الإنترنت.. وبالنظر لما أثاره ومازال يثيره من مساجلات.. يتضح لنا السبب الذي دعا مجلة «تايم»، إلى أن تصفه بأنه أهم ما نُشر عام ٢٠٠٢.. ومن هنا فإن دعم ذلك التقرير كان من دواعي اعتزاز برنامج الأمم المتحدة الإنمائي».

نلاحظ أولاً أن الجملة الأولى تستنتج عظمة التقرير الأول وتميزه (بكل المقاييس) من عدد مرات استنساخه عن الإنترنت، ومن قول مجلة «تايم» بأنه أهم ما نُشر في عام ٢٠٠٢، مع أن أي شخص مهتم بأحوال «المعرفة» لابد أن يعرف أن عدد قراء مجلة أو جريدة أو كتاب ليس مقياسًا جيدًا لمدى جودتها ولا سببًا كافيًا «لاعتزاز» المرء بها أكثر من اعتزازه بكتاب أو مجلة أقل توزيعًا.

فنحن نعرف طبيعة الصحف والكتب والمجلات التي توزع أكثر من مليون نسخة في الولايات المتحدة أو أوروبا بالمقارنة بمجلات أو كتب لا توزع أكثر من بضعة آلاف قليلة، إذ يعتمد معظم صحف وكتب النوع الأول على الفضائح أو أخبار الجرائم.

أما اقتطاف مجلة «تايم» بالذات في وضعها للتقرير بأنه أهم ما نُشر في عام ٢٠٠٢ فيبدو لأول وهلة عملاً بريئًا لولا أنه يخفي حقيقة مهمة تتعلق بسبب اهتمام هذا النوع من وسائل الإعلام الأمريكية بهذا التقرير الذي يُظهر العرب في أسوأ صورة، وهو نفس السبب الذي جعل وزير الخارجية الأمريكية، بل والرئيس بوش نفسه، يشيد بالتقرير ويعتبره أحد مبررات الهجوم على العراق. وحتى وصل الأمر إلى حد اهتمام مثل هذه المجلات ذات التوزيع واسع النطاق، وهذه الشخصيات المهمة بالتقرير، فلا عجب أن يستنسخ من التقرير أكثر من مليون نسخة، دون أن يكون لهذا الانتشار أي دلالة على مستوى التقرير العلمي أو على مدى دقته أو صدقه.

على أن هذا ليس هو المثل الوحيد في التقرير، وإن كان المثل الأول على استخدام الأرقام في تضليل القارئ وإعطائه انطباعات مخالفة للحقيقة، واعتمادًا على السهولة التي يمكن بها

باختصار يسد تقرير التنمية الإنسانية العربية على العرب أي منفذ للهروب، حتى ولو كانت نفوسهم مكدودة جداً، لكي ينهال عليهم التقرير برقم بعد آخر مما يزيد شعورهم بالكدّ والنكد

حول التنمية الإنسانية العربية



إيهام القارئ بأن الأكثر دائماً معناه الأفضل، أو أن الأشياء التى يمكن قياسها وإعطاؤها قيمة رقمية أهم دائماً من الأشياء التى لا يمكن قياسها، أو أن الأرقام الدالة على عدد الأشخاص الذين يعتنقون رأياً معيناً تدل أيضاً على مدى صحة هذا الرأى، أو أن أى فارق ضئيل بين رقم وآخر له قيمة يعتد بها، أو أن الدول التى حققت تقدماً فى نواح معينة من الحياة لابد أن تكون هى الدول المتقدمة فى كل النواحى الأخرى.. إلخ. كل هذه الفروق الخاطئة وغيرها يتبناها التقرير فى صفحة بعد أخرى، حتى يترك القارئ فى النهاية وقد أنهكت قواه وأصبح فريسة سهلة لأى استنتاجات خاطئة بدورها. كما يتبين من الأمثلة الآتية.

يعبر كاتبو التقرير عن حزنهم لأن عدد الصحف فى البلاد العربية «أقل من ٥٣ لكل ألف شخص مقارنة مع ٢٨٥ صحيفة لكل ١٠٠٠ شخص فى الدول المتقدمة»، وكذلك عن حزنهم لانخفاض عدد خطوط الهاتف إلى خُمس نظيره فى الدول المتقدمة، ووجود أقل من ١٨ حاسوباً لكل ١٠٠٠ شخص فى المنطقة العربية مع المتوسط العالمى وهو ٧٨,٣ حاسوب لكل ١٠٠٠ شخص، واقتصار عدد مستخدمى الإنترنت على ١,٦٪ فقط من سكان الوطن العربى، وأن متوسط عدد الكتب المترجمة لكل مليون من السكان فى الوطن العربى فى السنوات الخمس الأولى من الثمانينيات ٤,٤ كتاب (أى أقل من كتاب واحد فى السنة لكل مليون من السكان) بينما يبلغ ٥١٩ كتاباً فى المجر و٩٢٠ كتاباً فى أسبانيا لكل مليون من السكان. التقرير ملىء بمثل هذه الأرقام والمقارنات، كما أنه يقول إن فريق التقرير استطلع رأى عينة من أعضاء هيئة التدريس فى الجامعات العربية، فى حالة المعرفة فى بلادهم «فعبَّر المجيبون بوجه عام، عن عدم رضاهم عن حال اكتساب المعرفة فى بلادهم (متوسط درجة الرضا ٣٨٪) بل إن رضاهم «عن مدى خدمة اكتساب المعرفة للتنمية الإنسانية، كان أقل قليلاً (متوسط درجة الرضا ٣٥٪)»، واستخلص التقرير من ذلك «استشعار حاجة شديدة لحفز اكتساب المعرفة فى البلدان العربية».

ما القيمة الحقيقية لمثل هذه الأرقام والمقارنات واستطلاعات الرأى؟ إن من الممكن أولاً توجيه انتقادات كثيرة إليها، من الناحية الإحصائية البحتة. فعندما نقارن بين بلدين فى استهلاك الصحف لا يجوز نسبة عدد الصحف إلى السكان جميعاً، بما فى ذلك الأطفال وصغار السن الذين لا يتوقع منهم أحد قراءة الصحف، ويشكلون نسبة أكبر بكثير فى بلادنا منها فى «الدول المتقدمة».. وقل مثل ذلك عن استهلاك خطوط الهاتف أو الكتب المترجمة.. إلخ. كما أن عدد النسخ المطبوعة أو الأجهزة المنتجة من كل هذه الأشياء لا يكفى للدلالة على عدد مستخدميها، إذ قد يقرأ النسخة أكثر من شخص ويستخدم الهاتف فى مكان بكثافة أكثر من استخدامه فى غيره. ولكن كل هذا أقل أهمية من افتراض أن «التقدم» فى هذه الأمور يعكس تقدماً من الناحية الإنسانية. فما هو الشىء الرائع بالضبط فى زيادة عدد قراء الصحف أو عدد المتحدثين من خلال الهاتف أو تضاعف عدد الكتب المترجمة؟

إن كل هذه الأشياء لا تكاد تقيس إلا نفسها، أو بأقصى تقدير، تقيس حجم القوة الشرائية، أما التقدم والتأخر الإنسانى فالأفضل أن نقيسه بأشياء أخرى، إذا كان من الممكن قياسه على الإطلاق.

أى فضل يجده كتَّاب التقرير لشخص يقرأ فى كل يوم صحيفة أو صحيفتين بالمقارنة بشخص آخر يفضل قضاء نفس المدة فى الحديث مع جاره أو زميله أو فرد من أفراد أسرته؟ وكيف نقيس «التقدم» فى استهلاك الصحف بعدد النسخ الصادرة منها بصرف النظر عما إذا كانت من نوع جريدة «الديلى ميرور» الإنجليزية أو من نوع جريدة «الاندبندنت»، أو «الجارديان»، الإنجليزيتين أيضاً؟ فلنفرض إذن أن ضاعفت «الديلى ميرور» من عدد النسخ المطبوعة منها وانخفض توزيع الأخريين، بينما بقى توزيع الصحف كلها فى البلاد العربية ثابتا على ما هو عليه، إن هذا سوف يعنى فى نظر أصحاب تقرير التنمية الإنسانية العربية «تدهوراً» فى الوضع النسبى لحالة «المعرفة» فى البلاد العربية، يستدعى الحزن الشديد (بل وربما وجدت الإدارة الأمريكية فى هذا سبباً يستدعى تدخلاً عسكرياً من الرئيس بوش!).. نعم، هذه بلاد متقدمة عنا فى كثير من الأمور المهمة، ولكن هذا التقدم لا يشمل زيادة عدد النسخ المطبوعة من الصحف أو ساعات الإرسال التليفزيونى.. إلخ.

أما عن عدد الكتب المترجمة فالأمر يحتاج إلى بعض التروى.. قد يتساءل القارئ للوهلة الأولى: هل المقصود الترجمة من اللغة العربية إلى لغة أجنبية أم العكس؟ لابد أن المقصود هو العكس، إذ أن كاتبى التقرير لاشك يؤمنون بأن المحتاج إلى الترجمة هو نحن لا هم، حتى فى ترجمته الأعمال الأدبية. فكما أنهم أكثر تقدماً منا فى العلم فلابد أنهم أيضاً أكثر تقدماً منا فى الأدب (وهو افتراض ليس صحيحاً بالضرورة). ولكن أى لغة أجنبية يا ترى يقصدون؟ لابد أنهم يقصدون الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية لا اليابانية أو الصينية أو الكورية، فالأولى فقط هى على الأرجح الجديرة فى نظرهم بالترجمة فى العلم والأدب على السواء. ولكن فلنفرض أنهم يقصدون الترجمة من أى لغة من اللغات إلى العربية، أفلا يجدر بنا أن نتروى بعض الشىء للسؤال عن نوع الكتب المترجمة ومضمونها؟

هل يجب أن ندخل فى حسابنا كل الكتب، بما فى ذلك القصص البوليسية وروايات الإثارة والتسلية بصرف النظر عن نفعها، على افتراض أن ترجمة أى كتاب لابد أن تكون أفضل من عدمها؟

وهل يا ترى تحتاج كل الأمم إلى الترجمة بنفس الدرجة؟

إن التقرير يقارن البلاد العربية فى مجال الترجمة بدولتين هما المجر وأسبانيا. ولكن المجر وأسبانيا دولتان أوروبيتان، تنتميان إلى نفس الأصل الثقافى ونفس الحضارة كسائر الدول الأوروبية. ومن ثم فالقارئ المجرى أو الأسبانى قد ينفعل بروايات وقصص وشعر، بل وبتاريخ دولة أوروبية أخرى أكثر مما ينفعل بها العربى. ولا يجوز أن نطالب القارئ العربى بأن يكون طلبه واستجابته لقراءة رواية فرنسية أو أمريكية بمثل قوة طلب أو استجابة القارئ المجرى أو الأسبانى. نعم، قد يكون من المفيد أن تترجم كثير من الكتب العلمية البعيدة الصلة بنوع الثقافة والحضارة، ولكن ليس صحيحاً أن العدد الأمثل للكتب المترجمة (لكل مليون من السكان) فى دولة كالمجر أو أسبانيا هو نفسه العدد الأمثل لدولة عربية، فالأمر يتوقف على عوامل كثيرة من بينها مثلاً ما إذا كان تعليم المادة التى تنتسب إليها الكتب المترجمة يجرى باللغة الأجنبية أو الوطنية، فإذا كان الطالب المجرى أو الأسبانى مثلاً يدرس الطب أو الهندسة بلغته الأم المجرية أو الأسبانية، بينما يدرسها الطالب العربى بالإنجليزية أو الفرنسية، فقد تكون حاجة الأول إلى ترجمة الكتب فى هذه الموضوعات أكبر من حاجة الطالب العربى. وكذلك إذا كان الاستعداد الطبيعى لدى القارئ المجرى أو الأسبانى لقراءة كتاب بلغة أجنبية وفهمه أقل من الاستعداد الطبيعى لدى الطالب العربى.. وهكذا.

لاشك مع كل هذا أن العامل الأساسى وراء انخفاض عدد الكتب المترجمة فى البلاد العربية بالمقارنة بالدول الأوروبية هو عامل اقتصادى، يتعلق بفقر الدولة ككل وبسوء توزيع الدخل. هذا العامل لا يفسر فقط الاختلاف فى عدد الكتب المترجمة بل فى معظم المؤشرات الأخرى كاستهلاك الصحف والكتب بصفة عامة وجهاز الحاسوب.. إلخ ولكن متى أدركنا هذا أدركنا أيضاً أن العيب الحقيقى هو فى الفقر وليس فى قلة الكتب المترجمة أو قلة استهلاك الصحف أو التليفزيون.. إلخ. فلماذا لا يقول التقرير ذلك؟ ولماذا لا يعطى هذا العامل ذو الأهمية الواضحة من

إن التقرير يقارن البلاد العربية فى مجال الترجمة بدولتين هما المجر وأسبانيا. ولكن المجر وأسبانيا دولتان أوروبيتان، تنتميان إلى نفس الأصل الثقافى ونفس الحضارة كسائر الدول الأوروبية

كتاب الزاوية

مذكرات الأميرة جويدان

٢ . الأفـــراح المصـــرية

«لا توجد أمة فى العالم تتفنن فى إقامة أفراحها كلها كما يفعل المصريون، فإنهم لا يدخرون شيئًا من أسباب السرور والانشراح إلا أدخلوه فى أفراحهم مهما كلفهم هذا، وليس ذلك مقصورًا على الأغنياء والموسرين منهم فقط، بل العائلات المتوسطة والفقيرة أيضًا.

كانت العروس ابنة لأحد الباشوات، تتجاوز سنها الثالثة عشرة، وكانت مصابة بالتهاب رئوى، ولكن الطبيب قرر أنه لا خطر يستدعى تأخير موعد الزفاف.

أعلنت ربة البيت بأن الزفة ستبدأ، وهرعت السيدات إلى غرفة الاستقبال، ووقفن صفين، وحملت الجوارى إلى الهوانم أكياس الذهب، ثم فتح الصالون ووقفت العروس على بابه برهة، ثم بدأت تسير بخطوات صغيرة، وكلما تقدمت انحنت لها السيدات، وألقين الذهب والزهور تحت قدميها.

وكانت أجسام الراقصات تقريبًا عارية، وجعلن يتثنين ويتلوين على نغمات الموسيقى، ثم يقتربن برءوسهن من الزائرات، فكانت الهوانم يلصقن الذهب فى وجوه الراقصات.

وبعد أن فرغنا من تناول العشاء، طلبت ربة البيت من السيدات السماح للعريس بالحضور لشكرهن وقف العريس فى الباب مبهوتًا وأخذ ينتقل من وجه إلى وجه، ثم أخذته أمه من يده وقادته إلى مكانى، حيث قدم لى القهوة بيد ترتعش، ولما انتهيت من شربها انحنى مرة أخرى وغادر الصالة.

حول التنمية الإنسانية العربية



التأكيد ما يعطيه هذا التقرير العجيب لأشياء أخرى كالاستبداد السياسى والتطرف الدينى؟ هل السبب هو أن المطلوب هو التأكيد على الحماقة والغفلة أكثر من التأكيد على فقدان الاستقلال واستلاب الإرادة؟

نأتى الآن إلى ذلك الجزء المتعلق «باستطلاع رأى بعض المثقفين العرب حول حال المعرفة»، وهو جزء طريف للغاية ويحتوى على رسوم بيانية ملونة تلوينًا جميلاً. أما وجه الطرافة فهو أن كاتبى التقرير حاولوا فى هذا الجزء دعم وجهة نظرهم فى سوء حال المعرفة بالبلاد العربية بالأرقام المستمدة من طريقة الاستبيان، واستطلاع الآراء، فواجهوا صعوبات إحصائية وفكرية جمة كان من شأنها أن تجعل أى عالم اجتماع عاقل يعدل عن هذا التمرين العقيم برمته، ولكن أصحاب التقرير لم يريدوا أن يضيعوا هذا المصدر المهم لإسباغ مظهر العلمية والموضوعية على ما يقولون، مما لا يأتى فى نظرهم إلا باستخدام بعض الأرقام. بدأ كاتبو هذا الجزء بتقديم مختلف الاعتذارات والتبريرات غير المقبولة لاستخدام ما حصلوا عليه من أرقام لا تدل على أى شىء ذى بال، من ذلك مثلاً قولهم إنه وإن كانت «عينة الاستطلاع ليست، للدقة، عينة مختارة بأسلوب احتمال سليم من مجتمع المثقفين العرب يمكن من التعميم المباشر إلى مجتمع المثقفين العرب، وعلى الرغم من أن «آراء كل واحد منهم ذاتية بالقطع»، فإن «القيمة المعرفية للرأى الذاتى تزداد كلما زاد رأس المال المعرفى للفرد المعنى، وفى حالة أعضاء هيئات التدريس بالجامعات على وجه التحديد تكتسب آراؤهم أهمية إضافية بسبب قدرتهم على المساهمة فى تكوين رأس المال البشرى عبر وظيفتهم فى التعليم العالى» (ص٨٧).

إنى أعترف للقارئ بأن هذه الفقرة أفادتنى فائدة جمة لأنها قدمت لى نموذجًا ممتازًا لكيفية استخدام الكلمات الضخمة والتعبيرات الفخمة لإخفاء ضحالة الفكرة أو خطئها أو كليهما معًا. فالمجهود الذى يحتاجه القارئ لفك طلاسم مثل هذه الفقرة (ومثلها كثير جداً فى هذا التقرير) من شأنه أن يمنعه من أن يكتشف بسهولة أن المعنى المراد توصيله معنى سطحى للغاية وخاطئ فى نفس الوقت، وهو الزعم بأن مكانة أستاذ الجامعة وتأثيره فى التلاميذ من شأنه أن يغفر للإحصائى عدم مراعاة المبادئ الإحصائية المعروفة وأن يسمح له بأن يعلق أهمية على آراء شخصية قد لا تعبر عن رأى عام.

ما هى النتيجة على أى حال التى يصل إليها هذا القسم الإحصائى؟ إنها باختصار أن المجيبين على الاستبيان «بوجه عام، عبروا عن «عدم رضاهم عن حال اكتساب المعرفة فى بلادهم (متوسط درجة الرضا ٣٨٪) بل إن رضاهم عن مدى خدمة اكتساب المعرفة للتنمية الإنسانية كان أقل قليلاً (متوسط درجة الرضا ٣٥٪)».

وأنا مثل القارئ بالضبط، فى حيرة من أمرى إزاء عدة أمور تتضمنها هذه الفقرة القصيرة:

١ . فما المقصود بالضبط «بحال اكتساب المعرفة»؟

٢ . وما معنى «مدى خدمة اكتساب المعرفة للتنمية الإنسانية»؟

٣ . وما معنى درجة الرضا؟ وهل ٣٨٪ تعتبر درجة منخفضة أم مرتفعة للرضا؟ وما هى النسبة التى يمكن أن «يرضى عنها» أصحاب التقرير؟

٤ . وهل هناك أى مغزى لانخفاض متوسط درجة الرضا عن «مدى خدمة اكتساب المعرفة للتنمية الإنسانية» بمقدار ٣ نقاط مئوية عن «متوسط درجة الرضا عن حال اكتساب المعرفة»..؟!

٥ . لو افترضنا أن سُئل أعضاء فى هيئة التدريس فى بعض الجامعات الأمريكية عن درجة رضاهم عن حال التليفزيون الأمريكى، ووجدنا أن متوسط درجة رضاهم هو ٣٨٪ مثلاً، فما الذى يمكن أن نستنتجه من هذا عن حالة التليفزيون الأمريكى، ومدى «خدمة اكتساب المعرفة المستمدة منه للتنمية الإنسانية» فى المجتمع الأمريكى؟ هل نستنتج أن هذه الحالة جيدة أم سيئة؟

٦ . وما هى درجة الرضا يا ترى التى كان يمكن أن يذكرها رجل مثل فولتير فى عصر التنوير الأوروبى، عن حالة «اكتساب المعرفة» فى فرنسا وهل كانت ستختلف عن درجة رضاه عن «مدى خدمة اكتساب المعرفة للتنمية الإنسانية»؟

٧ . وأخيراً، هل هذا علم أم شبه علم أم هو أقرب إلى عمل من أعمال الحواة؟ وما هو بالضبط الذى يضطرنا للصبر على قراءة مثل هذا الكلام؟ ■

The Image

"صــــورة الســيد الرئيــس"

لـــويـــس مـــيـــنـــانـــد

«التليفزيون هو الذى أدار الموجة أكثر من أى شىء آخر» هذا ماقاله جون كيندى فى ١٢ نوفمبر ١٩٦٠ بعد أربعة أيام من انتخابه رئيسا للولايات المتحدة.

كان يشير إلى المناظرات التليفزيونية الأربع التى جرت بينه وبين ريتشارد نيكسون فى وقت مبكر من ذلك الخريف.

اليوم، أصبحت مناظرات التليفزيون طقساً رسمياً فى مسيرة السياسى نحو الرئاسة، حتى إن إجراء انتخابات الرئاسة اليوم بدون مناظرة تليفزيونية بات وكأنه شىء غير ديمقراطى أو كأنك تخدع الناخبين وتحرمهم من حق اختبار مهم.. وهو إخضاع المرشحين للفحص الجماهيرى.

ولم يكن هذا هو رأى الناس فى أيام المناظرات الأولى، حتى إن ثيودور وايت الذى يوافق تماما على رأى كنيدى بأن المناظرات هى التى حسمت الانتخابات، يشكو فى كتابه (صنع الرئيس ١٩٦٠) بأن التليفزيون أهمل القضايا المهمة بإجبار المرشحين على إجابة الأسئلة الفورية: «لم يكن أى من الرجلين يستطيع أن يتوقف لحظة ليتأمل أو يستذكر ببطء أو يراجع بترو البدائل قبل اتخاذ القرار، وهى الخصيصة المهمة للقيادة، وكان يعتقد أن (انتصار) كنيدى فى المناظرات كان فى «الواقع انتصار الصورة على المحتوى» ويتفق معه دانيل بورستين، المؤرخ فى جامعة شيكاغو والذى أصبح فيما بعد أمين مكتبة الكونجرس، إلا أنه لايرجع تاريخ انتصار الصورة إلى عام ١٩٦٠ وإنما إلى بداية ما يسميه (ثورة التصوير) فى القرن التاسع عشر.

أن تقدم الوسائل الميكانيكية للاتصالات وإعادة إنتاج التلغراف والصورة الفوتوغرافية والطباعة السريعة جداً والراديو والتليفزيون والتقدم الذى أعقب ذلك فى العلوم الإعلامية مثل الإعلانات والعلاقات العامة.. كل ذلك أنتج ثقافة مايمكن تسميته (الأحداث الزائفة) أى الأحداث التى لا هى حقيقية ولا خيالية. لا أصلية ولا مزيفة، مثل مناظرات كنيدى . نيكسون.

فالمناظرات كانت مشاهد مصنوعة، مصممة من أجل توليد مادة تستخدم لمزيد من المشاهد المصنوعة مثل التعليقات التالية للحدث التى يقدمها العاملون فى مؤسسات الأخبار التى أنتجت الأشياء فى المقام الأول. ولكن نتائج كل هذا الاختلاق كانت حقيقية. «فإن الاحداث الزائفة تؤدى إلى التأكيد على المؤهلات الزائفة، كما يقول بورستين «إذا اختبرنا مرشحى الرئاسة حسب مواهبهم فى برامج الفوازير التليفزيونية لاخترنا بالطبع الرؤساء بسبب تلك الصفات بالذات، وفى الدول الديمقراطية يجنح الواقع إلى أن يتطابق مع الأحداث الزائفة. الطبيعة تقلد الفن».

فى عام ١٩٥٦، نشر الاقتصادى المتفرد كنيث بولدنج كتاباً بعنوان (الصورة) ولكن كان أغلب اهتمام بولدنج منصبا على حقيقة أن سلوك الناس يعتمد على الصور التى يحتفظون بها للعالم والتى قد يكون لها أساس صغير يصلح ليكون (واقعا).

وكان من رأى بولدنج أن هذا قد يثير مسائل معرفية شائكة. ورغم أن بورستين كان يرى أن معرفية الصورة شائكة أيضاً ولكن كتابه كان متشككاً فى ذلك. كانت الصورة المرئية محورية فى الحضارة التى يهاجمها بورستين ولكن بتعبير (الصورة) كان يقصد شيئاً يحيط بالجميع.. شيئاً مثل واقع بديل. وفى هذه الأيام يقرأ كتاب بورستين . بغض النظر عن أسلوبه النثرى الفخم . وكأنه عمل مفكر ما بعد الحداثة. وكثير من الكتاب الفرنسيين مثل جى ديبور وجان بوديلار تناولوا فيما بعد (مجتمع المظاهر) والصورة الزائفة التى قال بها بورستين.

كان بورستين يرى أن هيمنة الصورة لم تكن بسبب طبيعة الرأسمالية (وهى كلمة لم ترد وياللعجب . فى كتابه) وإنما لأن الأمريكيين لايستطيعون مواجهة الحياة الاعتيادية التى تفتقر إلى التفرد والغرابة. ومعظم الأشياء حولهم صعبة وناقصة ومحبطة ومملة. وكان الأمريكيون فى حاجة إلى (تحلية) خبراتهم باستمرار مثل. مضغ اللبان. وقد نشأت بسبب ذلك صناعة كاملة من أجل أن تقدم هذا الواقع المحسن المصنوع. وكان بورستين يرى أن هذا العالم المزيف قد أصبح مثل شبكة(ماتركس)(*) كاملا إلى حد أنه يسيطر حتى على المسيطرين عليه.

ويستنتج بورستين أن «سياساتنا الوطنية أصبحت تنافساً من أجل الصور أو بين الصور بدلا من أن تكون تنافسا بين المثل. إذا أراد الرئيس أن يكون مؤثراً، عليه أن يهتم كل عام بالصورة التى يعكسها».

وفى السنة نفسها التى نشر فيها وايت كتابه عن سباق كنيدى . نيكسون، وقد نشر بورستين كتابه (الصورة) فى ١٩٦١ والذى ابتكر فيه بورستين تعريفه (المشهور) للشخصية المشهورة بأنها الشخص المشهور بأنه مشهور. وكان رأيه فى ١٩٦١ كانت هذه الملاحظة تبدو مخيفة. أما الآن فإنه ليس هناك ماهو أكثر تقليدية منها. إن تأمل النوعية المصنوعة للحدث هو عنصر مطلوب فى تحليل الأحداث المصنوعة. الصحفيون الذين يسهل مهماتهم رسم المناظر السياسية التى تتنكر كأخبار. الصور الفوتوغرافية. المؤتمر الصحفى، المناظرة التليفزيونية . يشعرون بأنهم مضطرون إلى الإشارة بحزن (أو تمثيل صورة الحزن) لضخامة طاقة الحملة الانتخابية الموظفة فى رسم مناظر سياسية.

إن قيمة الصورة فى السياسة مثل قيمة السهم فى سوق الأوراق المالية. فهى تعكس دائما خصما فى السعر المستقبلى للخداع. هذا هو التحدى المعرفى الذى تحدث عنه بورستين وبولدنج.

إن المشهد المصنوع هو بشكل ما، حقيقى وغير حقيقى، مثل مشهد جون كيرى على الدراجة البخارية، ومشهد جورج بوش على حاملة الطائرات. وجزء من محتوى هذه المشاهد هومعرفة أن هذه الوقائع المثالية هى (صور) مشكوك فى (واقعيتها).

كل امرئ يعرف أن هذه (مجرد صورة) ولكن ماذا يعنى ذلك بالضبط؟

من بين أكثر المواضيع التى لاتفقد سحرها لدى الباحثين فى عملية صنع الصورة السياسية: موضوع كنيدى ونيكسون اللذين. كما يعتقد الكثير من الناس. بدآ ثقافة رسم الصورة.

فبعد أربعين عاما على حادثة دلاس (اغتيال كنيدى) وثلاثين عاما بعد تحقيقات ووترجيت (فضيحة نيكسون) فإن الآراء مازالت تتضارب حول كنيدى (الحقيقى) ونيكسون (الحقيقى). وهناك كتابان جديدان حول هذا الموضوع: كتاب ديفد لوبين (إطلاق الرصاص على كنيدى: كنيدى وثقافة الصور) والكتاب يعكس وجهة نظر مؤرخ فنى فى الصور الفوتوغرافية المشهورة لجون وجاكى كنيدى. أما كتاب ديفد جرينبرج (ظل نيكسون:تاريخ صورة) فهو دراسة مؤرخ سياسى لصورة نيكسون كما انعكست لدى جمهور مختلف. الليبراليين واليسار الجديد والصحافة والموالين له وهكذا. كان كتاب لوبين مكرسا للصور بمعناها المرئى . الفوتوغراف. السينما .

إجــراء انتخــابات
الرئاسة الأمريكية اليوم بـدون
مناظـرة تليفـزيوتيـة بـات وكـأنـه
شـــىء غيـــر
ديمقـــراطـــى

ترجمة: بثينة الناصرى
بترتيب خاص مع مجلة
The New Yorker

الرسم. فى حين أن جرينبرج كان معنيا بـ(الصورة) بمعناها الواسع. ولكن تظل وجهة نظرهما تجاه (ثقافة الصورة) هى نفسها. إنهما يعتقدان أن الناس لايقرأون الصور بقدر مايقرأون داخل الصور. وأن أولئك المستمعين للراديو الذين اعتقدوا أن نيكسون كسب المناظرات سمعوا مادربوا على أن يسمعود وما يريدون أن يسمعود، كما يفعل الجميع.

بهذه الروح الأنثروبولوجية. الروح التى تعالج كل قطعة مصنوعة بارتباطها مع بقية القطع المصنوعة فى شبكة الحضارة. يضع لوبين صور كنيدى إلى جوار صور مادونات (جمع مادونا) عصر النهضة مع إعلانات المجلات مع مناظر التليفزيون. إن عدم إحساسه بالخجل يثير الإعجاب! مثلا إنه يلفت الانتباه إلى الصورة المؤثرة المشهورة لجون جون (ابن كنيدى) وهو يحيى تابوت أبيه منشورة فى مجلة (لايف) إلى جانب إعلان فى صفحة كاملة عن ويسكى بوربون كنتاكى الذى يصور خيال سيد جنوبى يرتدى قبعة وهو يرد بتحية ودية. وهذا من نوع الأشياء التى لايلاحظها إلا مؤرخ فنى أو (مريخى) ولكن حالما تراها تبدأ فى التساؤل: كيف حدثت؟ ولماذا لم يلتقط أى شخص فى لايف الصدى البصرى؟. الجواب ربما يعود إلى عادة الناس فى أرشفة صورهم فى تجاويف مستقلة. الأخبار فى مكان، الإعلانات فى مكان آخر، ولايفكرون فى مقارنتها مع بعضها. ولكن كتاب (إطلاق النار على كنيدى) هو كتاب جرىء يعمل على ربط الصور ببعضها.

ويماثل هذا، مقاربة جرينبرج للصورة السياسية. يقول جرينبرج إن بورستين كان محقاً فى التعرف على صناعة الصورة بكونها محورية فى السياسة الأمريكية منذ إدارة فرانكلين روزفلت وكان مخطئاً فى وصفها بعدم المصداقية.

يقول جرينبرج: «إن المخاوف من صناعة الصورة والتشكيك فى المصداقية تكمن فى الافتراض الخاطىء بأن الصور تختلف عن الواقع. ولكن الصور ليست ظلالا تتراءى على جدار كهف وإنما هى مادة التجربة السياسية ذاتها»، وهو يعتقد أن نيكسون هو الشخصية الرئيسية التى أدركت هذا التطور فيقول: «لم يساهم أى سياسى ما بعد الحرب أكثر منه فى تعليم الأمريكيين أهمية الصور فى السياسة».

وكما يذكرنا كلا الكتابين، فإن الحقيقة المدهشة هى أن نيكسون كان أكثر تعقيداً فى مسألة استغلال الصورة من كنيدى، وبالتأكيد فقد استخدم آل كنيدى الإعلام لأغراض سياسية. لم يكونوا أبرياء، عكس مثلا ادلاى ستيفنسون الذى وصف. فى خطاب القبول عام ١٩٥٦ فى الاجتماع القومى الديمقراطى. الإعلان السياسى بأنه (الإهانة القصوى للعملية الديمقراطية) وهى جملة اقتبسها جرينبرج. ولكن كما يوضح تحليل لوبن، فإن الجانب الفنى فى معظم الصور الفوتوغرافية المشهورة لآل كنيدى لم تكن تعزى إليهم ولكن بشكل كبير إلى المصورين. لقد كانوا يحبون التقاط صور عائلة كنيدى وقد كانت عائلة جميلة تعرف كيف تقف أمام المصورين، ولهذا لم يكن التقاط صورهم يحتاج إلى الكثير من مسرحة وقفاتهم. أما نيكسون الذى لم يكن وسيما أو فوتوجنيك فلم يكن استغلال الصورة مكملا لحياته السياسية وإنما ضرورة أساسية.



"صورة السيد الرئيس"



ومنذ بداية عمله، أحيط نيكسون بأشخاص استمدوا خبراتهم من الإعلان التجارى، وقد يظن المرء أنه جمعهم حوله عمداً ولكن يبدو، فى الواقع، انه اجتذبهم. مثلا أحد أوائل المساندين له روى داى الذى أسس لجنة المائة فى عام ١٩٤٥ وهى اللجنة التى رشحت نيكسون ليدخل انتخابات الكونجرس ضد جيرى فورهيز، كان يعمل فى بيع الإعلانات لصحيفة فى جنوب كاليفورنيا، أما هالدمان فقد بدأ مهنته لدى وكالة والتر تومسون للإعلانات وتطوع للعمل مع نيكسون بعد أن شاهد خطابه فى التليفزيون عام ١٩٥٢.

وقد أصبح اعتماد نيكسون على الخبرة الإعلانية مادة للفضائح، ففى كتاب جو ماك جنيس (بيع الرئيس عام ١٩٦٨) وهو كتاب يقدم كما يوحى عنوانه، خفايا القصص التى كان وايت يرويها فى قصصه الرائجة للحملات الانتخابية.

وكان ماك جنيس يقتبس كثيراً من بورستين وكان احتقاره لاستخدام نيكسون للإعلان التجارى من القوة بحيث كان يفترض أن القراء يشاركونه مشاعره. وكان، كما يبدو، يشعر أن مسألة قيام نيكسون بالإعادة أكثر من مرة وهو يسجل إعلاناته التجارية التليفزيونية اكبر دليل على عدم مصداقيته. واليوم، يبدو كتابه (بيع الرئيس) ساذجاً كما يقول جرينبرج، فالرؤساء جميعا يقومون بأداء الإعلانات التليفزيونية ومن الطبيعى أن يجرى إعدادهم وتجميلهم قبل الظهور على الهواء.

وإذا كان للتليفزيون يد فى تحويل الحملات الرئاسية إلى حروب صور تكتيكية فإن هذا مايفعله ديناصورات الصحافة مثل وايت الذى يغطى الحملات الانتخابية وكأنها جولات ملاكمة، تتابع ضربات وضربات مضادة، نقاط وضربات قاضية، وأهداف تسجلها استفتاءات الرأى.

فى عام ١٩٦٤ نشر مارشال ماكلوهان كتابه الضخم (فهم الميديا) الذى درس ساكنى الكهوف التقنيين مثل وايت وبورستين. مما قاله ماكلوهان: إن وايت فهم الأمور بالعكس فى شأن المناظرات، لأن نيكسون فى التليفزيون لم يكن ضبابياً بل على العكس كان محدداً وواضحاً جداً، والتليفزيون يكره الأشياء المحددة، بل يفضل (الضبابية) ولهذا لايصلح ممثلو السينما عندما يذهبون إلى التليفزيون ولهذا أيضا (فاز) كنيدى فى المناظرات. فالتليفزيون، بتعبير ماكلوهان وسط (بارد) ولأن صورة التليفزيون صغيرة نسبياً فإن مشاهدى التليفزيون يركزون عليها ويصبحون جزءاً منها ويميلون إلى (ملء) فراغاتها. ولهذا كما أوضح ماكلوهان «فكل شخص يعكس مظهره بقوة دوره ومركزه فى الحياة لايناسب التليفزيون» وبكلمات أخرى فإن نيكسون (خسر) لأنه كان يبدو كمرشح للرئاسة. يقول «عندما يبدو الشخص المقدم فى التليفزيون (مالئا لمركزه) كما فعل نيكسون، يشعر مشاهد التليفزيون بعدم الراحة لأنه لن يستطيع أن (يضيف) شيئاً على الصورة، وكان رصيد كنيدى ليس (خطوطه الواضحة) كما يتصور وايت وإنما ضبابيته، لم يكن يبدو عليه أنه رجل ثرى أو سياسى. كان مظهره يوحى بأى شىء من بقال إلى أستاذ إلى مدرب كرة. ولم يكن محدداً فى كلامه أو جاهزاً فى ردوده بحيث يفسد ملامحه اللطيفة الضبابية».

وقد تعلم نيكسون ورجال حملته الدرس بوضوح. كان يحتاج إلى أن يعكس صورة يستطيع الناخبون أن (يملأوها) بما يريدون وكما يناسبهم. وهذا ماركزعليه كتاب ماك جنيس وليس مسألة قيام نيكسون باستخدام أساليب الإعلان التجارى. بحلول ١٩٦٨، كان نيكسون قد حذق حيلة تقديم نفسه ربما ليس بكل شىء ولكل الناس، وإنما بأشياء تكفى لأناس يكفون لانتخابه لدورتين رئاسيتين.

ويذكر جرينبرج أن عبارة (نيكسون الجديد) ظهرت أول مرة فى عام ١٩٥٣ ومنذ البداية تقريباً كان نيكسون سياسياً بارعاً فى تجديد نفسه باستمرار. ولكن نيكسون (حملة ١٩٦٨)، نيكسون الذى ضم إلى فريقه خبراء علاقات عامة مثل روجر ايلز وليونارد جارمينت واستمع إليهما، هو نيكسون الذى يستحق اللقب بجدارة، وهذا النيكسون هو السبب الذى جعل الناس تستمر فى الاعتقاد أن نيكسون (معقد). وهذا النيكسون هو الذى جعل جرينبرج يكتب كتاباً عن الوجوه العديدة لنيكسون.

إن محك نبوءة بورستين، بأن ثقافة الصورة والتليفزيون على الأخص سوف تعمل على تدمير السياسات الديمقراطية، هم الرجال الذين انتخبوا للرئاسة منذ ١٩٦٠. المسألة ليست ما إذا كان أى منهم قد انتخب بسبب التليفزيون. وقد كان وايت على حق ربما حين قال إن التليفزيون قدم خدمة كبيرة لكنيدى عام ١٩٦٠، رغم أن جزءاً من ذلك كان بسبب اتساع المشاهدة: فقد شاهد المناظرات ما يقرب من مائة وعشرين مليون شخص، فى سباق ضد نائب رئيس لدورتين وكان معروفاً جداً للناخبين. إن المسألة هى ما إذا كان أى رئيس منذ ١٩٦٠ سينتخب بدون التليفزيون. وقد تكون إشارة ماكلوهان إلى أن التليفزيون يفضل تركيزاً ناعماً، صحيحة ولكن السياسيين اكتشفوا قبل أن يصبح التليفزيون جزءاً من العملية الانتخابية بوقت طويل، فائدة الظهور على الشاشة ليستطيع الناخبون أن يعكسوا آمالهم ومخاوفهم عليهم، وبالتالى تعاطفهم.

وقد أصبح الظهور فى التليفزيون شيئاً إجبارياً بالنسبة للمرشحين ومن يرتبك أمام كاميراته لايستحق أن ينتخب.

أدرك ماكلوهان أن التليفزيون ليس فقط راديو وصورة أو سينما فى صندوق، ولكنه وسط له تأثيراته الخاصة ومع ذلك فقد بالغ فى الجانب المعرفى للأشياء وفى هذا لم يكن يختلف كثيراً عن وايت وبورستين وماك جنيس، فى ترويج فكرة أن فن الإعلام الجديد قد غير الحياة العامة. ولكنه ظن أن ذلك كان نحو الأحسن، وأن هذا الفن سوف ينهى الحروب ويؤشر لولادة القرية (الكونية).

ولكن ما الذى يجعل الحالة المعرفية للصورة مختلفة عن الآلة المعرفية للكلام أو الكتابة؟ إن الطباعة لاتملك علاقة خاصة بالحقيقة أو المصداقية، كما أن الميديا الإلكترونية التى نصب ماكلوهان نفسه نبيا لها، لم تستطع أن تجعل الناس أكثر إحساساً بالمسئولية أو التعاطف أو الاهتمام. لقد كان جرينبرج بالتأكيد محقا فى أن الصور لاتختلف عن (الحقيقة) خاصة فى الحياة السياسية حين يكون إظهار الصورة المناسبة فى اللحظة المناسبة جزءاً من القيادة مهما فعل أو قال السياسى بعيداً عن الكاميرا.

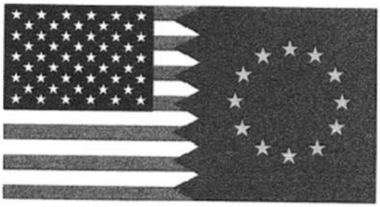
كان هذا هو الوضع خلال الحرب الباردة، فى ١٩٦٠ ترسخت فكرة شن المعركة ضد الشيوعية من خلال الصور، لأن البديل لايمكن التفكير فيه. وهذه الفكرة هى المسئولة عن الاهتمام الخاص بإظهار كنيدى ونيكسون كأيقونات أو مؤدين. ولكن فشل نيكسون فى النهاية لم يكن بسبب استغلاله لصورته أو بسبب الاختلاف بين الطريقة التى ظهر بها أمام الجمهور و(نيكسون الحقيقى) كما ظهر فى تسجيلات البيت الابيض. لم تكن مشكلة نيكسون تتعلق بصورته فى ثقافة الإعلام الإلكترونى، وإنما كانت المشكلة مع الدستور.. وهو وثيقة كتبت بالقلم! ■

إن قيمة الصورة فى السياسة مثل قيمة السهم فى سوق الأوراق المالية، فهى تعكس دائما خصما فى السعر المستقبلى للخداع

هوامش:

(*) أينما استخدمت كلمة الصورة image فى هذه المقالة فهى تعنى الصورة بمعناها الواسع (الرمز)، إلا حينما يوضح الكاتب استخدام كلمة الصورة بمعناها الاعتيادى أى الصورة المرئية مثل الفوتوغرافية أو الرسم أو السينما إلخ. المترجمة.

(*) ماتركس Matrix اسم فيلم مشهور (من ثلاثة أجزاء) حول شبكة الكترونية تسيطر على تنظيم كل شىء فى العالم حتى يظهر متمرد يواجهها. المترجمة.



من الصراع إلى التفاهم أمريكا وأوروبا فى الشرق الأوسط

دالـيـا داسـاكـاى

فى بداية فبراير الماضى، خطا القادة الأوروبيون والأمريكيون خطوات جديدة لتكريس التعاون الأمنى بينهما بعد شهور من الخلافات حول العراق والشرق الأوسط وقضايا أخرى عديدة. وقد خرج وزراء الدفاع فى حلف شمال الأطلنطى عقب اجتماع ميونيخ السنوى للسياسة الأمنية بما يشبه الاتفاق على إمكانية مشاركة أكبر للحلف فى عملية الانتقال الراهنة فى العراق، بينما دعا يوشكا فيشر وزير الخارجية الألمانى إلى رؤية أوروبية أمريكية مشتركة تجاه الشرق الأوسط، تتلامس وتتجاوب مع مشروع «الشرق الأوسط الكبير» الذى تطرحه أمريكا!

المقال التالى الذى تنشره «وجهات نظر» يشرح بشكل عميق الأسباب التى جعلت أمريكا وأوروبا يتجهان للتعاون خاصة فى الشرق الأوسط، من خلال تأصيل تاريخى وسياسى لعلاقات الطرفين ومدى انعكاس ذلك على سياستهما فى المنطقة.

المحرر

■■ فى ظل اهتمامات أوروبا والولايات المتحدة الإستراتيجية المشتركة بالاستقرار الإقليمى، والتدفق الآمن للنفط، والإصلاح السياسى والاقتصادى، قد يظن ظان أنه من المحتم أن يكون بينهما تعاون فى الشرق الأوسط. إلا أن التعاون ليس حتمياً، ولم يكن حتمياً من قبل. فرغم الاهتمامات الإستراتيجية المشتركة، تجعل الاختلافات فى الثقافة الإستراتيجية والتجربة التاريخية الولايات المتحدة وأوروبا تنظران إلى المنطقة من منظورين مختلفين، الأمر الذى يجعلهما تختلفان فى رؤية الأخطار، وترتيبها من حيث أولويتها، ومقاربة كل منهما لها. وقد زادت هجمات الحادى عشر من سبتمبر من عمق هذه الفجوة المتأصلة تاريخياً وثقافياً عبر الأطلنطى. وكما أشار أحد محللى العلاقات عبر الأطلنطية فإنه «بينما قربت الحرب ضد الشيوعية فى وسط أوروبا بين أمريكا وأوروبا، فإن «الحرب ضد الإرهاب» فى الشرق الأوسط تباعد بينهما». إذ ترى الولايات المتحدة أن الخطر الإرهابى والحرب ضد الإرهاب قد احتلا المكان الذى كان الخطر السوفيتى والحرب الباردة يشغلانه. بينما لا ترى أوروبا الأمر على هذا النحو. ورغم التأييد الأوروبى للحملة التى قادتها الولايات المتحدة فى أفغانستان ضد الإرهاب والتعاون القائم على تطبيق القانون، فلم يدم الأمل فى قدر أكبر وأعمق من التعاون الأمريكى الأوروبى بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ طويلاً. ومع أن مأساة ٩/١١ خلقت إحساساً عميقاً بالمجتمع العابر للأطلنطى، فإن رد فعلنا تجاهها كان له أثر استقطابى وليس موحداً على العلاقات عبر الأطلنطية.

وهكذا فليس من المحتم أن تتعاون الولايات المتحدة وأوروبا فى الشرق الأوسط، إلا أنه ليس مقدراً لهما كذلك أن تتصارعا كما قد يتوقع بعض المتشائمين عبر الأطلنطى. بل إنه لابد من تنمية التعاون من أجل وضع مقاربات إستراتيجية مشتركة لا يعود بالإمكان أخذها على أنها أمر مُسَلّم به.

ومع أن التعاون ليس حتمياً، فمن المؤكد أن الولايات المتحدة وأوروبا لهما اهتمامات مشتركة بالشرق الأوسط. ويمكن الاستفادة من عدد من القوى الداعمة للتقارب عبر الأطلنطى لبناء مشروعات تعاونية مشتركة فى المستقبل.

الإرهـاب

أوجد خطر الإرهاب الدولى المشترك، وخاصة بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، نوعاً من التعاون الحيوى عبر الأطلنطى. وطبقاً لاستطلاع أجراه فى ٢٠٠٢ مجلس شيكاغو للعلاقات الخارجية مع صندوق مارشال الألمانى، وكذلك استطلاع مجلة Transatlantic Trends فى عام ٢٠٠٣، فإن الأمريكيين والأوروبيين يرتبون الإرهاب على أنه أخطر تهديد للأمن القومى. ويساعد هذا الرأى على تفسير الدعم الأوروبى الواسع الانتشار للعملية الأمريكية الخاصة بالإطاحة بطالبان فى أفغانستان، كما يعزز جمع المعلومات الاستخبارية وتبادلها فى المجتمع عبر الأطلنطى. وتلتقى الآن مجموعات عمل ثنائية أمريكية أوروبية بانتظام لتنسيق إجراءات تطبيق القانون وتحسينها لاحتواء تحرك الإرهابيين والحد من مصادر تمويلهم. وبعد الحادى عشر من سبتمبر، تحركت الدول الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى بسرعة غير عادية لتنسيق إجراءات تسليم المجرمين الخاصة بها، وتقوم أوروبا حالياً بوضع مسودة اتفاقية لتسليم المجرمين مع الولايات المتحدة، رغم المخاوف الحالية من عقوبة الإعدام الأمريكية. ومن المحتمل أن يجمع الخطر المشترك، وخاصة خطر الهجوم الإرهابى المدمر، بين الولايات المتحدة وأوروبا فى قضية مشتركة لسنوات عديدة مقبلة، حتى وإن كان من المحتمل أن تختلف طرق مقاربة الخطر.

ترجمة أحمد محمود

بترتيب خاص عن: دورية واشنطن كورترلى

أسلحة الدمار الشامل

رغم عدم ميل الأوروبيين إلى الجمع بين خطر أسلحة الدمار الشامل وخطر الإرهاب، كما هو الحال فى الدوائر السياسية الأمريكية، فإن القلق الأوروبى بشأن انتشار الأسلحة غير التقليدية وأنظمة الصواريخ القادرة على حملها يتزايد. وحتى قبل الحرب فى العراق، كانت المخاوف المشتركة من انتشار الأسلحة النووية تفسر إلى حد ما الموافقة الأمريكية الأوروبية على قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ١٤٤١ الذى يدعو إلى نزع سلاح العراق فى خريف ٢٠٠٢. ومنذ حرب العراق وأسلحة الدمار الشامل تزحف نحو قمة الأجندة الأوروبية. وكانت حرب العراق والنزاع الدبلوماسى الذى سبقها بمثابة محفز لأوروبا كى تضع انتشار الأسلحة فى موضع متقدم من أجندتها وتعيد بحث سياستها الخاصة بمكافحة هذا الخطر. وقد عكس هذا التغير رد فعل براجماتياً عاماً لجعل سياسات أوروبا أقرب إلى الولايات المتحدة بغرض المساعدة فى إصلاح العلاقات عبر الأطلنطية وكذلك العلاقات داخل أوروبا بعد صدع العراق. فلم يكن الأوروبيون يرغبون فى أن ينقسموا كما انقسموا فى العراق، واعترفت الدول الأوروبية الكبرى مثل فرنسا وألمانيا بأن أوروبا الموحدة ضرورية لإظهار القوة الأوروبية فى الخارج. بل كانت تواجه الحكومات الأوروبية أدلة كبيرة على جهود إيران لامتلاك القدرة على صنع الأسلحة النووية.

ربما كان أفضل مثال للتقارب المتزايد بشأن خطر انتشار الأسلحة النووية هو حالة إيران. إذ جرت العادة على اتباع الولايات المتحدة وأوروبا مقاربات شديدة الاختلاف. فبينما كانت الولايات المتحدة تلجأ إلى سياسات الاحتواء والعقوبات الاقتصادية والتهديد باستخدام القوة، كانت الدول الأوروبية تفضل سياسات التعهد والارتباط، وكانت تتردد فى ربط علاقاتها الاقتصادية والسياسية بأنشطة طهران الخاصة بانتشار الأسلحة النووية. إلا أن الموقف الأوروبى فى الوقت الراهن يتغير فى اتجاه موقف واشنطن. ففى منتصف عام ٢٠٠٣ أصدر وزراء خارجية الاتحاد الأوروبى بياناً انتقدوا فيه برنامج إيران النووى وطالبوا بقبول طهران لأعمال تفتيش أكثر جراة تقوم بها وكالة الطاقة الذرية الدولية. والأهم هو أن الاتحاد الأوروبى ربط لأول مرة اتفاقية التجارة والتعاون التى يتفاوض عليها الآن مع طهران بالمسألة النووية، مما يشير إلى أن أوروبا راغبة فى توظيف النفوذ الاقتصادى لمعالجة مشكلة انتشار الأسلحة النووية. وأيد الفرنسيون هذا الموقف المتشدد تجاه إيران بقوة، على عكس موقفهم من العراق.

الوضع الإقليمى

أبرزت هجمات الحادى عشر من سبتمبر كذلك عجز أمريكا عن فك ارتباطها بالشرق الأوسط وعدم انشغالها به، كما أدت إلى تركيز الاهتمام من جديد على مسألة مصادر التشدد، مما أكد أهمية قضايا الإصلاح الداخلى والتحول الديمقراطى فى العالمين العربى والإسلامى. وذكر بعض المحللين أن هناك ضرورة إستراتيجية ملحة مشتركة لتعاون الولايات المتحدة وأوروبا فى الشرق الأوسط، وخاصة حول مسائل تتعلق بالإصلاح السياسى والاقتصادى. ويزداد وضوح تعلق الحملة الأمريكية فى العراق بأمر يزيد على أسلحة الدمار الشامل أو مجرد الإطاحة بالرئيس صدام حسين؛ فهى جزء من إستراتيجية عامة لإعادة هيكلة المنطقة على أسس ديمقراطية وموالية للغرب. ورغم معارضة الكثير من الدول الأوروبية لحرب العراق فى حد ذاتها معارضةً شديدة، فإن هذه الدول توافق بصورة عامة على ضرورة تشجيع الإصلاح الاقتصادى والسياسى فى المنطقة، وهو هم أوروبى قديم. والواقع أنه بما أن أوروبا أقرب من الناحية الجغرافية إلى المنطقة، فإن احتمال تأثير عدم الاستقرار الدائم فى الشرق الأوسط على الأوروبيين يزيد على احتمال تأثيره على الأمريكيين، من الناحية الديموجرافية بالطبع. وقد تفسر هذه النتيجة القلق الأوروبى من الجهود الأمريكية لتشجيع الديمقراطية باستخدام القوة (التصور الخاص بالحالة العراقية)، وهو ما يخشى الأوروبيون أن يتسبب فى قدر أكبر، وليس أقل، من عدم الاستقرار. فالأوروبيون يفضلون أن ينبع الإصلاح الاقتصادى من تحركات داخل المنطقة. غير أنه رغم تلك الاختلافات فى المقاربة، فإن القلق المشترك بشأن إحداث الإصلاح الاقتصادى والسياسى فى العراق، وفى الأراضى الفلسطينية، وفى المنطقة ككل، يعد أساساً قوياً للتعاون عبر الأطلنطى.

النفط

رغم الخلافات المحتملة بشأن سياسات النفط والتنافس المستمر بين الشركات الأوروبية والأمريكية على العقود فى المنطقة فى السنوات المقبلة، ما تزال الولايات المتحدة وأوروبا تشتركان فى حاجة ماسة إلى ضمان التدفق الآمن للنفط من المنطقة. ورغم كون أوروبا أكثر اعتماداً على نفط الشرق الأوسط من الولايات المتحدة، فإن أى انقطاع لتلك الواردات سوف يعرض كذلك الولايات المتحدة للخطر بزعزعته الاقتصاد الكونى. ومع أنه لا يمكن اعتبار حرب العراق حرباً من أجل النفط، فإن القلق فى الدوائر السياسية الأمريكية بشأن الاستقرار المستقبلى فى المملكة العربية السعودية والتعويل عليها فى سلسلة واردات النفط لابد أن يتزايد، حيث إن ١٥ من بين ١٩ مختطفاً فى الحادى عشر من سبتمبر كانوا سعوديين. وسوف يظل الكثير من الأوروبيين على خلاف مع الولايات المتحدة بشأن العراق، إلا أن معظمهم قد يتنفس الصعداء إذا ظهر عراق ديمقراطى موال للغرب يساعد فى النهاية على تنويع واردات النفط من المنطقة، ويقلل الاعتماد الغربى على البيت السعودى.



لأن أوروبا أقرب من الناحية الجغرافية إلى المنطقة، فإن احتمال تأثير عدم الاستقرار الدائم فى الشرق الأوسط على الأوروبيين يزيد على احتمال تأثيره على الأمريكيين

سلام الشرق الأوسط

رغم الخلافات المستمرة بشأن عملية السلام العربية الإسرائيلية، يمثل القلق المشترك بشأن الآثار السلبية لإراقة الدماء المستمرة فى الشرق الأوسط على اتساعه أساساً آخر للاتفاق عبر الأطلنطى. فقبل حرب العراق، أدى الوضع المتدهور على الأرض فى إسرائيل والأراضى الفلسطينية، فى أعقاب اندلاع الانتفاضة الثانية فى سبتمبر ٢٠٠٠ وعدم رغبة الولايات المتحدة فى المشاركة بشكل كامل فى عملية إحلال السلام بين العرب والإسرائيليين فى مستهل عهد حكومة بوش، إلى تكوين مجموعة رباعية خاصة بالشرق الأوسط (تضم الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى والأمم المتحدة وروسيا) فى صيف ٢٠٠٢ وما تلا ذلك من خريطة طريق لسلام الشرق الأوسط.

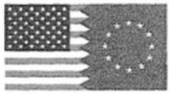
لم يسبق أن تعاونت الولايات المتحدة وأوروبا تعاونًا وثيقًا كهذا بشأن عملية سلام الشرق الأوسط، وإن كانت الولايات المتحدة لا تزال الفاعل المحورى. وإذا أخذنا فى الاعتبار التصدعات عبر الأطلنطية القديمة بشأن قضايا عملية السلام لكان تطور المجموعة الرباعية عظيماً. فقد حصل الأوروبيون على موضع سياسى، وليس اقتصادياً فحسب، على طاولة عملية السلام، بينما يبدو أن الفجوة تضيق بين رؤى الجانبين الخاصة بالتسوية النهائية للصراع العربى الإسرائيلى. فقد اقترب كل من الجانبين من مواقف الجانب الآخر؛ فالولايات المتحدة تؤيد فى الوقت الراهن النتيجة السلمية (حل الدولتين)، وليس مجرد عملية السلام (وإن ود أوروبيون كثيرون لو أن الولايات المتحدة حددت معالم اتفاق الوضع النهائى، كما حدث فى حكومة كلينتون)، بينما تتحرك أوروبا بنشاط فى اتجاه المواقف الأمريكية بشأن

الإصلاحات الفلسطينية. ولا تزال أوروبا والولايات المتحدة مختلفتين حول مسألة إشراك الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات (هناك إجماع بين الدول الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى حول هذه المسألة)، إلا أن الاتحاد الأوروبى أيد الجهود الأمريكية لتشجيع إصلاحات السلطة الفلسطينية وإيجاد رئيس للوزراء لموازنة سلطة عرفات.

رغم الإحباط المتزايد من عدم تنفيذ الإسرائيليين أو الفلسطينيين لخريطة الطريق، والقلق الأوروبى من أن الولايات المتحدة لم تبذل الجهد الكافى فى هذا الخصوص، فإن خريطة الطريقة تمثل المسعى الأمريكى الأوروبى المشترك الأول للتوصل إلى خطة سلام. كما ساهمت المجموعة الرباعية فى تنسيق المواقف الأوروبية، مما ساعد على تحاشى الميل إلى المبادرات الفردية من جانب الدول الأوروبية الكبرى الذى أدى فيما مضى إلى تآكل ثقة واشنطن فى الشريك الأوروبى. وهكذا فإنه رغم تقويض التطورات الإقليمية (أبرزها الإرهاب المستمر ونشاط الاستيطان) لخريطة طريق المجموعة الرباعية، فإن الخوف الأمريكى الأوروبى المشترك من العنف المستمر واحتمال زعزعته للمنطقة على اتساعها يمثل حافزًا قويًا للتعاون عبر الأطلنطى فى هذا الصراع القائم.

رغم كل تلك الحوافز الخاصة بالتقارب حول سياسة الشرق الأوسط، لماذا تستمر السياسات عبر الأطلنطية فى التباعد؟ لماذا نتوقع حدوث توتر عبر أطلنطى بخصوص سياسة الشرق الأوسط فى المستقبل؟ ليست المسائل الهيكلية، كالقوة النسبية أو الجغرافيا، هى العناصر المحددة الوحيدة. وعلى أية حال، فكون أوروبا أقرب إلى الشرق الأوسط وبالتالى أكثر احتمالاً لأن تعانى من عواقب ذلك القدر الكبير من عدم الاستقرار الإقليمى، وأخطار الإرهاب، وانتشار أسلحة الدمار الشامل، يسهل علينا تخيل سياسات أوروبية أكثر جرأة تتماشى مع سياسات الولايات المتحدة.

كذلك لا يمكن فى الواقع إرجاع الصدع الذى حدث فى سياسة الشرق الأوسط إلى السياسات الداخلية للجانبين. فلا شك فى أن عدد السكان المسلمين الكبير فى أوروبا (حوالى ثلاثة أضعاف الموجودين فى الولايات المتحدة) واللوبى القوى الموالى لإسرائيل فى الولايات المتحدة لهما دور فى تشكيل السياسة، إلا أنه لا ينبغى المبالغة فى قوة هذه الجماعات. فرغم بروز الصراع الإسرائيلى الفلسطينى على المستوى الخطابى، فهو لا يحتل بالضرورة قمة أجندة مسلمين كثيرين فى أوروبا، حيث تؤثر حقوق المهاجرين وغيرها من القضايا الداخلية تأثيرًا أكثر مباشرة



القول الأمريكى بأن السياسة الأوروبية تجاه العراق وإيران أملتها اعتبارات مالية صحيح جزئيًا. فهل معنى هذا أن الأوروبيين أكثر جشعًا؟ ولكن ألا تؤثر الشركات الأمريكية على السياسة الأمريكية فى العالم؟

على مجتمعاتهم. ومن ناحية الولايات المتحدة، فإن اللوبى الموالى لإسرائيل نشط وصوته مسموع، إلا أنه ليس قويًا قوة لا حد لها. فالواقع أنه لم يكن من المحتمل أن يحقق ذلك النجاح لو لم يجد ما يقوله صدى لدى الجمهور الأمريكى العريض ووجهة نظره الخاصة بالمنطقة. بل إن جماعات الضغط القوية ليست عوامل محددة فى تكوين السياسة الخارجية الأمريكية. علاوة على أن الزعماء الأمريكيين والأوروبيين يرغبون فى بعض الأحيان فى تحدى الدوائر المحلية (بل وحتى الرأى العام الأكثر اتساعًا) سعيًا وراء تحقيق الأهداف السياسية الخارجية، مثل تحدى الرئيس جورج بوش الأب للوبى الموالى لإسرائيل بموقفه من المستوطنات وضمانات القروض فى عام ١٩٩١، أو موقف رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير المؤيد للحرب فى العراق رغم معارضة الأغلبية الساحقة من الشعب للحرب.

هل تبرر المصالح التجارية والمالية بعض الاختلاف فى السياسات عبر الأطلنطية بخصوص الشرق الأوسط؟ وهل الأوروبيون أكثر اهتمامًا بحماية مصالح الشركات الوطنية من الأمريكيين؟ يتناول روبرت كاجان هذا القول تناولاً جيدًا:

القول الأمريكى الشائع بأن السياسة الأوروبية تجاه العراق وإيران أملتها اعتبارات مالية قول صحيح جزئيًا. فهل معنى هذا أن الأوروبيين أكثر جشعًا من الأمريكيين؟ وألا تؤثر الشركات الأمريكية على السياسة الأمريكية فى آسيا وأمريكا اللاتينية وكذلك فى الشرق الأوسط؟ الفرق هو أن الأحكام الإستراتيجية الأمريكية تتضارب فى بعض الأحيان مع المصالح المالية وتتغلب عليها.

بعبارة أخرى، يقل احتمال تضارب المصالح المالية الأوروبية مع الهموم الإستراتيجية لأن الأوروبيين يؤيدون التجارة وتعددية الأطراف، والتعهد والارتباط فى سياستهم الخارجية، بما فى ذلك فى الشرق الأوسط. ويرى الأمريكيون فى بعض الأحيان مصالح إستراتيجية واقتصادية فى التنافس فيما بين الجانبين، فى حين أنه من الأرجح أن ينظر الأوروبيون إلى المصالح الاقتصادية ذاتها على أنها تدعم أهدافهم الإستراتيجية.

فجوات ثقافية

يميز مفهوم الثقافة الإستراتيجية الطريقة التى ترى بها دولة ما أو جماعة ما دور الحرب، واستخدام القوة، وطبيعة أى خصم أو خطر فى النظام الدولى، كما أنه يساعد على تفسير الطريقة التى يواجه بها الفاعلون تلك التهديدات. وتساعد الاختلافات فى الثقافة الإستراتيجية الأمريكية والأوروبية منذ الحرب العالمية الثانية، المتأصلة بشدة فى تجاربهم التاريخية، على تفسير اختلاف المقاربات عبر الأطلنطية للشرق الأوسط. وكما قال كاجان، فقد أسهمت تجربة أوروبا فى فترة ما بعد الحرب فى الثقافة الإستراتيجية المؤيدة للتفاوض، والتجارة، والقانون الدولى والتعددية (وهى أقوى فى بعض الدول الغربية من غيرها)، بينما دعم الموقف الكونى الأمريكى الثقافة الإستراتيجية المؤيدة للدبلوماسية القسرية، واستخدام القوة، والنزعة الأحادية، وإظهار القيم الأمريكية (أو السياسة الخارجية التى تميل أكثر إلى الأخلاق وتتسم بإيحاء دينى مستتر) فى الخارج. كما أسهمت التجربة الأوروبية مع الكولونيالية فى الشرق الأوسط فى النسق العقلى الإستراتيجى لأوروبا، مما أكد حدود القوة العسكرية والاحتلال. بل إن العلاقات ما بعد الكولونيالية بين الأوروبيين والدول العربية والإسلامية تعزز الميل الأوروبى إلى سياسات التفاوض والدبلوماسية.

تؤدى هذه الاختلافات فى الثقافة الإستراتيجية كذلك إلى اختلافات فى السرد التاريخى الأمريكى والأوروبى، أو الرؤى الخاصة بالطريقة التى سارت بها الأمور فى منطقة كالشرق الأوسط على مر السنين. فعلى سبيل المثال، بما أن الأوروبيين بصورة عامة يعارضون استخدام القوة، فإن سردهم التاريخى الخاص بحرب العراق يتطور بطريقة تختلف عن السرد الأمريكى؛ فغالبية الأمريكيين ينظرون إلى حرب العراق على أنها تستحق فقدان الحياة وغيرها مما تفرضه من ثمن، بينما لا ينظر إليها غالبية الأوروبيين النظرة ذاتها. ومع أن هذه الأوصاف ما هى إلا تعميمات بطبيعة الحال، وبالأخص على الجانب الأوروبى بما له من مواقف سياسية خارجية عديدة، فإن هذه الاختلافات الأساسية فى الثقافة الإستراتيجية تستحوذ على جوهر التوجهات السياسية على كل جانب، بما فى ذلك تلك التوجهات الخاصة بقضايا الشرق الأوسط.

تعد المقاربات الأمريكية والأوروبية المختلفة للصراع العربى الإسرائيلى مثالاً آخر للطريقة التى يمكن أن يؤدى بها تباين الثقافات الإستراتيجية والسرد التاريخى إلى السياسات المختلفة. فالأمريكيون ينظرون إلى حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ على أنها حدث تاريخى جوهرى، وأنها كانت حربًا استباقية لابد منها لحماية بقاء إسرائيل. فى حين يرى الأوروبيون حرب ١٩٦٧ على أنها حدث يحدد بداية الاحتلال الإسرائيلى غير المشروع لأرض فلسطين. ورغم استفادة إسرائيل فى بادئ الأمر من تعاطف ما بعد الهولوكوست فى أوروبا، فقد غيرت حرب ١٩٦٧ وما أعقبها من تطورات، وخاصة الانتفاضتين الفلسطينيتين الأولى والثانية، صورة إسرائيل فى ذهن الرأى العام الأوروبى من الدولة المستضعفة المظلومة إلى الدولة المعتدية، حتى داخل

الدول التى جرى العرف على أنها أكثر من غيرها موالاة لإسرائيل مثل ألمانيا وهولندا. ويسمح الانفتاح الأمريكى على استخدام القوة، وخاصة منذ هجمات الحادى عشر من سبتمبر، بقدر من التغاضى عن سياسات إسرائيل (التى تراها إجراءات ضرورية للدفاع عن النفس) أكثر من المنظور الأوروبى الذى يرى الردود العسكرية الإسرائيلية على أنها غير متناسبة وتضر ولا تنفع. وكما أوضح تحليل صدر مؤخراً، فإن «كثيراً من عدم التعاطف النسبى مع إسرائيل قد تكون له صلة بحقيقة أن إسرائيل دولة قومية نشطة عسكرياً تفضل أن تحارب أعداءها بدلاً من أن يقتلوها هم».

يساعد تفضيل الولايات المتحدة إظهار قيمها، وخاصة الديمقراطية، فى الخارج على تفسير المواقف الأمريكية من إسرائيل وعملية السلام. ذلك أن الانحياز الأمريكى تجاه إسرائيل ليس نتيجة للوبى الموالى لإسرائيل فحسب، بل إن كون إسرائيل ديمقراطية تشارك فى القيم الغربية أمر يروق للجمهور الأمريكى بصورة عامة ويزيد من دعمه السياسى على امتداد الطيف السياسى الأمريكى. وتنبع كذلك رغبة الولايات المتحدة فى الإطاحة بعرفات وتشجيع الإصلاحات السياسية الفلسطينية الداخلية من هذه الثقافة الإستراتيجية، فى حين يساعد تفضيل أوروبا للتفاوض والارتباط والتعهد على تفسير ترددها فى استبعاد الزعيم الفلسطينى.

كما أن الفكرة التى تحظى بقدر كبير من القبول داخل حكومة بوش وبين كثيرين فى المجتمع السياسى الأمريكى، وهى أن التخلف السياسى والاقتصادى للمنطقة على اتساعها هو جوهر مشكلات الشرق الأوسط. تتناقض مع التعاطف الأوروبى مع الرؤية العربية التى تعتقد بأن الصراع العربى الإسرائيلى هو المسئول الأول عن علل المنطقة. وفى النهاية قد يكون الخطر الحقيقى هو وجهات نظر الولايات المتحدة وأوروبا المختلفة اختلافاً شديداً بشأن دور عملية السلام فى دبلوماسية الشرق الأوسط. فواشنطن ترى أن الطريق إلى السلام فى الشرق الأوسط يمر عبر بغداد، بينما يرى الأوروبيون أنه مازال يمر عبر القدس. وقد يكون احتواء الصراع كافياً بالنسبة للولايات المتحدة فى هذه المرحلة، إلا أنه ليس بكاف فى رأى كثيرين فى أوروبا. وهكذا فرغم تزايد التقارب السياسى والتنسيق عبر الأطلنطى بخصوص عملية السلام فى الوقت الراهن عن أية لحظة من لحظات الصراع العربى الإسرائيلى، فمن المحتمل أن يظل هذا الانقسام الأساسى بين المقاربتين الأمريكية والأوروبية للأطراف والقضية نفسها مصدر توتر.

صــــراعــــات الأدوار

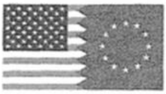
تساعد مفاهيم الأدوار، أو طرق فهم كل طرف لدوره فى المجال الدولى، على تفسير تحول المقاربات الأمريكية والأوروبية المختلفة للشئون الدولية، ولسياسة الشرق الأوسط على وجه الخصوص، إلى خلافات كبيرة. وتخلق مشاركة الدول فى مؤسسة الاتحاد الأوروبى مفاهيم جديدة للأدوار بالنسبة للدول الأوروبية والاتحاد ككل، وباتت تؤدى إلى صراعات على الأدوار داخل أوروبا بالنسبة لعدد من الدول، وبالتحديد تلك الدول المهتمة باستدامة العلاقات النشطة بالمؤسسات عبر الأطلنطية كالناتو. ورغم كون المشروع الأوروبى عملية مستمرة، فقد أدى انتهاء الحرب الباردة إلى تفكير داخلى جاد بشأن دور أوروبا فى العالم، من النواحى السياسية والثقافية والعسكرية. ومع أن تركيز أوروبا مازال فى المقام الأول على ما هو داخلى، وخاصة فيما يتعلق بمقاربتها لزيادة عدد الدول الأعضاء من ١٥ إلى ٢٥، فإن الإحساس بضرورة إظهار أوروبا لقوتها فى الخارج بطريقة تتناسب مع مكانتها الاقتصادية يتزايد بين الأوروبيين، كما يدل على ذلك استطلاع الرأى الذى أجرته Transatlantic Trends فى عام ٢٠٠٣، إذ ترغب الأغلبية الساحقة من الأوروبيين فى أن يصبح الاتحاد الأوروبى «قوة عظمى مثل الولايات المتحدة».

بعبارة أخرى، يزداد عدم ارتياح الأوروبيين بشأن نموذج «غسل الصحون» الخاص بالسياسة الخارجية، أى تولى مسألة تنظيف المكان بالدعم الاقتصادى وحفظ السلام بعد العمليات الأمريكية. كما تزداد رغبتهم فى أن يكون لهم رأى فى القرارات السياسية الأولية، بل وفى العمليات العسكرية إذا استدعى الأمر. وكلما تطور مفهوم الدور الأوروبى من التركيز الداخلى على خلق «الفردوس» النموذجى كى يحاكيه الآخرون إلى الاهتمام النشط بإظهار النفوذ خارج القارة، كان من الأرجح حدوث صدام مع الولايات المتحدة التى لها مفهوم للأدوار ازداد قوة خلال العقد الماضى، وهو ذلك المفهوم الخاص بالدولة التى لا غنى عنها والمسئولة مسئولية مطلقة عن النظام الكونى.

الـتـعـاون الإجـبـارى

كيف تدير الولايات المتحدة وأوروبا هذه الخلافات عميقة الجذور فى مقارباتهما لسياسة الشرق الأوسط؟. يمكنهما على وجه التحديد اتخاذ الخطوات التالية نحو معالجة مشكلات المنطقة الأساسية:

- ينبغى على الولايات المتحدة تحاشى اتجاهها الحالى الخاص بالانتقاء من بين الحلفاء الأوروبيين، مما يشجع ضمنيا على الانقسام الأوروبى.
- لا شك فى أنه يمكن أن يكون لأوروبا عمل علاقات عامة أفضل فى الولايات المتحدة، بشرحها لمدى إسهاماتها فى أمن الشرق الأوسط وطبيعة تلك الإسهامات. وباعتبار ما لها من سمعة سيئة فيما يتعلق بالشرق الأوسط، وخاصة بعد حرب العراق، سوف تكون هذه المهمة صعبة ولكنها ليست مستحيلة.
- تحتاج السياسة الجيدة إلى رؤية، وإن كانت الرؤية وحدها لا تكفى. فلابد للولايات المتحدة وأوروبا من تحسين التنسيق فيما يخص تعزيز التعاون الإقليمى العملى، إلى جانب الإصلاحات السياسية والاقتصادية.
- علاوة على تشجيع الإصلاحات الإقليمية بشكل مشترك، ينبغى على الولايات المتحدة وأوروبا (ومن الأفضل أن يكون ذلك بوجود الروس) تأييد تجديد عملية الأمن الإقليمى فى الشرق الأوسط.



واشنطن ترى أن الطريق إلى السلام فى الشرق الأوسط يمر عبر بغداد، بينما يرى الأوروبيون أنه مازال يمر عبر القدس. وقد يكون احتواء الصراع كافياً بالنسبة أمريكا، إلا أنه ليس بكاف فى رأى كثيرين فى أوروبا

يوضح نموذج العراق الحاجة إلى الدعم المادى والسياسى من الحلفاء الأوروبيين لمعالجة التحديات المشتركة الصادرة عن الشرق الأوسط المعالجة الواجبة. ولا يمكن حل أى من المشكلات الأساسية فى المنطقة حالياً - الإرهاب، وانتشار الأسلحة النووية، والصراع العربى الإسرائيلى، والعراق، والإصلاحات السياسية والاقتصادية الإقليمية - بواسطة قوة واحدة فقط. فالشرق الأوسط المستقر والديمقراطى والمزدهر يعتمد على الولايات المتحدة وأوروبا اللتين تعملان معاً فى المنطقة.

إن بناء التعاون على مجالات كتلك التى حددناها آنفاً لتشجيع الأجندة عبر الأطلنطية لن يضيق هوة الانقسام عبر الأطلنطى بالكامل ولن يحول دون وقوع أزمات فى المستقبل، إلا أنه يمكن أن يساهم فى إيجاد مقاربة براجماتية، عسى أن تكون بناءة أكثر، للمنطقة قد تؤثر على الاستقرار الكونى لفترة مقبلة. وليس فى مقدور الأمريكيين والأوروبيين أن يكونوا راضين عن أنفسهم وأن يتوقعوا أن تسفر مجموعة من الأخطار المشتركة الصادرة عن الشرق الأوسط بشكل طبيعى عن تعاون عبر أطلنطى. بل لابد للجانبين من الاعتراف بكيفية كثرة الاختلافات فى مقارباتهما للمنطقة وأسباب ذلك، ثم العمل بنشاط لتنمية الأجندة والحوار الإستراتيجيين المشتركين بشأن المشكلات الرئيسية فى الشرق الأوسط لضمان حدوث هذا التعاون بالرغم منها. ■

مستقبل الشراكة الأطلسية

حمدي عزام

يمر العالم بتطورات متلاحقة بسبب تغير السياسة الأمريكية وسيطرة اليمين المحافظ على البيت الأبيض مما أربك العلاقات الدولية، وطرح تساؤلات عن خلفياتها وأهدافها ومخاوف من تأثيرها على مستقبل عالم القطب الواحد، وتأثر العالم العربي بذلك على ضوء استهداف الشرق الأوسط، وما تبع ذلك من أحداث عنيفة بالمنطقة أدت إلى تصاعد موجة العداء لأمريكا بين شعوب العالم الثالث، وتجاوزتها إلى نقد حاد من حلفائها التقليديين فى أوروبا.

ولم تكن الإدارة الأمريكية تتوقع عند غزوها للعراق أن يكون رد فعل الشارع الأوروبى بهذا العنف والإجماع، فبالرغم من تأييد تونى بلير وبرلسكونى وأزنار للغزو انطلقت أكبر المظاهرات من شوارع إيطاليا وفاقت نسبة الرافضين للحرب فى اسبانيا ٨٥٪ وأكثر من ٦٥٪ من البريطانيين الذين خرجوا فى أكبر مظاهرات ضد الولايات المتحدة منذ حرب فيتنام وأعلنت حكومات فرنسا وألمانيا موقفاً رسمياً يشجب الغزو ولعب موقف جيرهارد شرويدر المعارض لما أسماه المغامرة الأمريكية دوراً أساسياً فى تحول أصوات الناخبين لصالحه وانتخابه مستشاراً لألمانيا.

ولعل الموقف الألمانى كان الأكثر مفاجأة للإدارة الأمريكية التى اعتادت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية النظر إلى ألمانيا كشريك مضمون يساند سياستها على طول الخط وتعتمد عليه فى إبلاغ صوتها للاتحاد الأوروبى وإقناع فرنسا شريكها فى قيادة القاطرة الأوروبية بأخذه بعين الاعتبار. واتهمت أجهزة الإعلام الأمريكية الألمان بالجحود ونكران الجميل وتناسى المساعدات الأمريكية القيمة من خلال مشروع مارشال لإعادة بناء ألمانيا بعد الحرب والجسر الجوى لفك حصار برلين، وتمركز ثمانين ألف جندى أمريكى فى أراضيها إبان الحرب الباردة لحمايتها من تهديد المعسكر الشرقى عبر الحدود مع ألمانيا الشرقية.

وتزايد الخلاف بعدما رفض وزير الخارجية يوشكا فيشر القائمة التى قدمها له بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر بأيام وزير الخارجية الأمريكي كولين باول وولفويتز نائب وزير الدفاع وتضم ستين دولة يتهمها بمساندة وإيواء الإرهاب. كما رفضت ألمانيا الأفكار الأمريكية عن «محور الشر» واستغلت حق الفيتو داخل حلف الأطلسى لعرقلة إرسال قواته إلى تركيا بمقولة حمايتها عند بدء الحرب على العراق، وأعلن المستشار شرويدر رفض المشاركة فى مغامرة عسكرية فى العراق حتى ولو وافقت الأمم المتحدة على ذلك، مما اعتبرته الولايات المتحدة موقفاً أحادياً وعدائياً من ألمانيا، وأصبح بذلك عام ٢٠٠٣ عاماً مرعباً Annus Horribilis فى تاريخ العلاقات الأمنية الألمانية الأمريكية والشراكة الأطلسية. وانعكس ذلك بشدة على الشارع الألمانى الذى يصف مشاعره كارلهاينز كامب منسق السياسة الأمنية فى مؤسسة كونراد اديناور التابعة للحزب المسيحى الاجتماعي بقوله: «إن انتشار صورة أمريكا كدولة تتزايد قوتها العسكرية مع اضمحلال مصداقيتها الدولية جعل من الصعب على الرأى العام الألمانى تفهم أو دعم مغامراتها العسكرية.. وأن عدم جدية الأسباب التى أبدتها لتبرير حربها على العراق وما شاب ذلك من عدم وضوح وخلط، أدى إلى رفض الغالبية العظمى لذلك وفتح المجال لنظرية المؤامرة.. مرة بإرجاعها إلى الرغبة فى السيطرة على مصادر النفط، ومرة أخرى بمقولة أن اللوبى اليهودى بأمريكا هو القوة الدافعة وراء خطط الرئيس الأمريكى. ويضيف إلى ذلك أن هناك اتفاقاً فى الرأى بين الاشتراكيين والعناصر المحافظة فى ألمانيا بأن تصرفات وأعمال الولايات المتحدة هى الدافع الأساسى لكراهية أمريكا فى العالم الإسلامى».

وفى حقيقة الأمر فإن الشعب الألمانى لا يكن عداء أو كراهية للشعب الأمريكى. لكن من المؤكد أنه أصبح يشعر بقلق شديد وتنتابه الشكوك حول السياسة الجديدة التى يعتمدها الرئيس الأمريكى، مما أدى إلى إقبال الرأى العام الألمانى بشكل منقطع النظير على التهام الترجمات والمؤلفات التى تنتقد سياسة بوش واليمين المحافظ وصدور سيل من الأبحاث والدراسات التحليلية عنها.

الهيمنة على العالم

تذهب معظم التحليلات الأوروبية إلى أن الأفكار والتطلعات إلى سيطرة الولايات المتحدة على العالم وانفرادها بزعامته ليست جديدة، ولم تترتب على مقاومة الإرهاب أو غزو العراق حيث إن ثنائية قطبى العالم بوجود الاتحاد السوفيتى لم توفر لرونالد ريجان أو بوش الأب الفرصة لتطبيقها، فاكتفت الإدارات الأمريكية السابقة باتخاذ موقف سلبى تجاه الأمم المتحدة والقانون الدولى، والقيام بدور منفرد تسلطى فى مشكلة يوغوسلافيا والبوسنة أزعج الحلفاء الأوروبيين ودفعهم لاتخاذ قرارهم بتشكيل قوة عسكرية أوروبية مستقلة بجانب حلف الأطلسى. كما امتنع بوش عن المشاركة فى الجهود الدولية لحماية البيئة والحد من استخدام الألغام الأرضية، والتحكم فى التسلح خاصة فى مجال الأسلحة البيولوجية، ورفض خضوع القوات الأمريكية للمساءلة أمام القانون الدولى، وخلافاً لسياسة سلفه كلينتون الذى اهتم بمعالجة المشاكل الداخلية، ركز بوش اهتمامه على الجيش وأجهزة الأمن بمقولة مجابهة الأخطار الخارجية وحماية الأمن الداخلى، وتراجع عن السياسات السابقة للتهدئة فى الشرق الأوسط ونزاع الصين وتايوان ومشكلة كوريا الشمالية. وبعد سقوط الاتحاد السوفيتى وانهيار الكتلة الشرقية استغل عملية تفجير برجى التجارة العالمية فى نيويورك لتطبيق سياسة الهيمنة مستنداً إلى دعم الرأى العام الداخلى وتعاطف القوى الدولية مع الحرب ضد الإرهاب وبدأ بمناطق مختارة هى الشرق الأوسط ووسط آسيا للسيطرة على مصادر الطاقة والقضاء على ما يتصوره من بؤر للإرهاب فى العالم العربى وأفغانستان وباكستان وأندونيسيا وماليزيا، إضافة إلى تواجده حول بحر قزوين لمجابهة التكتلات البشرية الكبرى كروسيا والصين والهند وباكستان مستقبلاً.

وقفزت ميزانية الدفاع إلى أكثر من ٤٠٠ مليار دولار يصب القسم الأكبر منها فى خزائن شركات السلاح والخدمات العسكرية وشركات الالكترونيات بوادى السيليكون فى كاليفورنيا وبرامج الفضاء. وكان لالتزام بوش في برنامجه الانتخابى بزيادة نفقات الدفاع أثره فى دعم الشركات لحملته بمائة مليون دولار متوقع أن تصل إلى ١٧٠ مليون دولار فى الحملة الانتخابية المقبلة وأدت سياسته الاقتصادية القائمة على زيادة العجز فى الميزانية لزيادة الإنفاق العسكرى مع خفض الضرائب إلى وصول مديونية الدولة إلى ما يزيد على ٥٢١ مليار دولار. ويخشى البعض من أن يؤدى هذا التمازج القوى بين العسكرية والاقتصاد إلى تعقيدات فى حل المشاكل والنزاعات الدولية والإقليمية وتشجيع الاتجاه لاستعمال القوة العسكرية أو الضربات الوقائية ومن عدوى انتشار هذه السياسات إلى أوروبا والعالم الثالث.

النزاع الأوروبى ـ الأمريكى:

من الواضح أن الشراكة الأطلسية التى كانت الركيزة الأساسية للغرب إبان الحرب الباردة تمر حالياً بانتكاسة، لا يخفيها ارتداء فرنسا وألمانيا القفاز الدبلوماسى الناعم لتفادى المزيد من المجابهة مع الولايات المتحدة، وكما يقول هارالد موللر أستاذ العلوم السياسية فى جامعة يوهان ولفجانج جوته «فإن رد الفعل الأوروبى على غزو العراق لم يكن

الشعب الألمانى لا يكن عداء أو كراهية للشعب الأمريكى. لكن من المؤكد أنه أصبح يشعر بقلق شديد بشأن السياسة التى يعتمدها الرئيس الأمريكى، مما أدى إلى إقبال الألمان بشكل منقطع النظير على التهام الترجمات والمؤلفات التى تنتقد سياسة بوش

انعكاسًا آنيًا مؤقتًا بل يشكل القمة لمجموعة من الخلافات حول (الأحادية) بالمفهوم الأمريكى و(التعددية) بمفهوم أوروبى تمثله فرنسا وألمانيا، ولا يمكن حله أو إخفاؤه بالتحدث عن تعددية بالمفهوم الأمريكى بمعنى خضوع أكبر قدر ممكن من الدول لما تفرضه أمريكا من قواعد. ورغم هدوء أمواج التصادم وحرص الطرفين على إظهار قدر من التوافق، فمازال القلق والخلاف يستشرى تحت السطح». وتحكم هذا الخلاف إشكاليتان أساسيتان: أولاهما أن الولايات المتحدة التى تتطلع وتعمل على الانفراد بزعامة العالم تحتاج إلى مساعدة وتعاون الدول الأخرى. والثانية أن الشريك الأوروبى أقوى من أن يقبل بدور التابع المهمش وأضعف من أن يفرض نفسه كشريك على قدم المساواة مع الولايات المتحدة.

لقد أدى انتهاء الحرب الباردة وزوال العدو المشترك إلى تركيز الجهود الأوروبية فى اتجاه تكامل يشمل أيضًا أوروبا الشرقية مع الميل إلى تحويل قسم من إنفاقها العسكرى إلى التنمية بعد تضاؤل خطر المجابهة العسكرية مع الشرق. وخططت أوروبا سياستها الأمنية على محاور تعتمد دورًا للقانون الدولى ومجلس الأمن وتفضل استعمال الأساليب السياسية والاقتصادية على اللجوء للتدخل العسكرى المباشر. وفى مقابل ذلك اتجهت الولايات المتحدة إلى زيادة قوتها وتواجدها العسكرى واعتماد مصلحتها القومية كأساس لسياستها.

وينتهى هذا التحليل إلى أن ضعف التواجد الأوروبى الموحد على الساحة الدولية شجع إدارة بوش على الاندفاع بقوة فى طريق الهيمنة على عالم القطب الواحد وتهميش دور حلفائها الأوروبيين مع الاستفادة فى نفس الوقت من التباين الشديد فى القوة العسكرية حيث زادت ميزانية الدفاع الأمريكية عن ضعف ميزانيات الدفاع لروسيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا والصين مجتمعة!!

يضاف إلى ذلك أن التحول الكبير فى الساحة السياسية الأمريكية وسيطرة أقصى اليمين المحافظ على صنع القرار أفقد الشراكة الأطلسية أسس تجانس الفكر السياسى الذى كان يعتمد على دور مهم لقوى الوسط والحد من الاندفاع لأقصى اليمين أو اليسار، وبالرغم من قوة الولايات المتحدة العسكرية والاقتصادية غير المسبوقة فى التاريخ فإن تصورها إمكان انفرادها بمجابهة وحل كل مشاكل العالم وتواجدها فى كل أركانه، هو تفكير غير واقعى، فهى لا تملك المقومات المادية والبشرية لتحقيق ذلك وتحتاج إلى تعاون القوى والدول الأخرى كما يحمل هذا التصور مخاطر استفزاز يؤدى لقيام تكتلات معارضة لها كما حدث فى التقارب الفرنسى الألمانى الروسى والصينى إبان الغزو العراقى. وأن تصاعدالشكوك في العالم الثالث حول وجود مضامين امبريالية من شأنها تشجيع التطرف والإرهاب، وكما يقول فيكتور ماور رئيس قسم أبحاث الأمن الأوروبى فى جامعة زيورخ السويسرية بأنه خلافًا للوضع فى أواسط آسيا فإن أفكار الهيمنة لم تلق تعاطفًا أو تفهمًا من دول الشرق الأوسط، مما دفع بعض متخذى القرار فى الولايات المتحدة إلى الاتجاه إلى نوع من المنطق والفكر الإمبريالى».

كما أن سياسة فرض الحلول أثبتت فشلها فى تجربتها الأولى على ما تسميه بالمناطق المختارة. فلم يستقر الوضع فى العراق وزادت حدة المقاومة وتوجهت عناصر متطرفة للتجمع بداخله وارتفعت حرارة النزاع والمجابهة الإسرائيلية الفلسطينية بحيث أصبحت خطة الطريق تسمى عرقلة الطريق ولم تنجح نظرية «الصدمة للعالم العربى» إذ يجابهها رفض لأفكار فرض الديمقراطية أو تغيير نظام الحكم من الخارج. وللنظرية القائلة بأن تقاعس أو تأخر العالم العربى فى تحقيق التقدم والديمقراطية أوجد تربة خصبة للتطرف ويبرر التوجهات الإمبريالية والحرب الوقائية ويرجعون ذلك إلى عدم إدراك لجذور المشاكل وخصوصيات المنطقة أو تجاهل ذلك عمداً لإخفاء أهداف أخرى.

وبالنسبة لمستقبل العلاقات الأطلسية يرى هارالد موللر أن أوروبا بحكم مصالحها لن تنصاع لخضوع مطلق للإرادة الأمريكية ولكنها ستعمل جهدها لتفادى المجابهة معها، مع السعى فى نفس الوقت لتشكيل وزن أوروبى فعال وزيادة قدراتها العسكرية، مما يرتب أعباء على ألمانيا باعتبارها الدولة الأوروبية الأكثر امتلاكًا لمصادر الثروة والنمو الاقتصادى. ويضيف أيريش راينز إلى أن تواجد أوروبا كشريك قوى سيسهم فى دفع اليمين المحافظ فى الولايات المتحدة للتخلى عن أفكار القهر وفرض الإرادة. وتدعو غالبية الآراء إلى ضرورة تطوير السياسة الأمنية الأوروبية بما يتيح لها مزيداً من التواجد على الساحة الدولية ومجابهة الأخطار وتفتح مجالاً للتعددية المتعاونة فى عالم القطب الواحد.

ويرى عدد من الباحثين أن مثل هذه السياسة القائمة على التعددية المتعاونة وفى ظل قبول لزعامة القطب الأوحد، قد تلقى قبولاً من الولايات المتحدة فى تطبيقاتها بالنسبة لداخل القارة الأوروبية والمناطق المتاخمة لحدودها مادامت لم تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية ومع الاهتمام بتركيا كقنطرة إلى العالم الإسلامى.

ويرون بالنسبة للدور الأوروبى خارج هذه المنطقة ضرورة أن يعتمد على مبدأ «سياسة التعاون المتوازن» وهو ما يتطلب تفهماً واقتناعاً من الولايات المتحدة بأن وحدة أوروبا وتقوية قدراتها العسكرية لا يهدد مصالحها بل يؤدى إلى التخفيف من أضرار وأخطار توسع أمريكى جيواستراتيجى مفرط فى أنحاء العالم لا تستطيع تحمل عبئه بمفردها على المدى الطويل.

ضعف التواجد الأوروبى الموحد
على الساحة الدولية شجع إدارة بوش
على الاندفاع بقوة فى طريق الهيمنة على
العالم وتهميش دور حلفائها الأوروبيين
مع الاستفادة فى نفس الوقت من
التباين فى القوة العسكرية التى
تميل بشدة لصالح أمريكا

وفى نفس الوقت، فلابد من الإشارة إلى الصعوبات التى قد تواجهها أوروبا بعد اتساع الاتحاد الأوروبى ليشمل ٢٥ دولة، قسم منها يتوجه نحو تقارب مع الضفة الأخرى من الأطلسى، مما أدى إلى انقسام يجب الحد من تفاقمه لأنه قد يغرى اليمين الأمريكى بالانزلاق إلى سياسة فرّق تسد. كما أن هناك أملاً فى أن تؤدى الانتخابات الأمريكية القادمة إلى الحد من سيطرة اليمين المحافظ على الإدارة الأمريكية والتخفيف من المقاربات المتطرفة.

وفى هذا الصدد يذكر كارستن فوجت منسق العلاقات الألمانية الأمريكية بوزارة الخارجية الألمانية، أن قبول الدور المتميز للولايات المتحدة دوليًا على المدى الطويل لن يتحقق إلا بعودتها إلى أخذ القانون الدولى والمؤسسات الدولية بعين الاعتبار، والاستعداد للاستماع إلى آراء حلفائها الأطلسيين مما يزيد إقبال أوروبا عليها ومساندتها كدولة ديموقراطية والاقتناع بأنها لن تستطيع حل المشاكل الدولية بخطوات عسكرية وقائية منفردة. وعليه فيجب البدء فى البحث عن استراتيجية أطلسية جماعية فى نطاق القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة تضمن بالضرورة دورًا لحلف الأطلسى والاتحاد الأوروبى فى مجابهة الأخطار والمشاكل الدولية.

لقد بدأت الحملات الانتخابية فى الولايات المتحدة وستجتمع الدول الصناعية الثمانى لرأب الصدع فى العلاقات الدولية الأمريكية خاصة الأطلسية مع تركيز على معالجة أوضاع الشرق الأوسط ولا تتوانى إسرائيل عن تحرك نشط لتأمين وزيادة مكاسبها فى هذه الأجواء.

وقد أدت التطورات الدراماتيكية العنيفة فى المنطقة العربية إلى قدر من الديناميكية فى التركيز على التنمية والتقدم، وأهمية دعم وتطوير الديموقراطية، والدعوة إلى حد أدنى من التكامل أو توحيد الجهود العربية، وفى ذلك استجابة لقلق الشارع العربى وتساؤلاته عن الدور العربى الإقليمى سواء فى عصر زعامة أو هيمنة أمريكية أحادية أو بالتكامل مع تعاون أطلسى متوازن ولعل مؤتمر القمة العربى القادم يجيب عن هذه التساؤلات. ■

لا يوجد من

حازم الببلاوي

رغم كثرة الحديث عن التعاون الاقتصادى العربى، أو التكامل أو حتى الاندماج، فلا تزال العلاقات الاقتصادية العربية/العربية محدودة. فمنذ إنشاء جامعة الدول العربية فى ١٩٤٥ ثم المجلس الاقتصادى والاجتماعى فى ١٩٥٣ ومجلس الوحدة الاقتصادية العربية ١٩٥٧، ورغم العديد من الاتفاقات الاقتصادية العربية، فلا تزال التجارة البينية العربية أقل من ١٠٪ من حجم التجارة الخارجية للدول العربية فى حين أنها تبلغ حوالى ٤٠٪ فى مجموعة الدول الآسيوية وأكثر من ٢٠٪ فى دول أمريكا اللاتينية، فضلاً عن السوق الأوروبية التى تزيد فيها التجارة البينية على ٦٠٪. ولا يقتصر الأمر على ضآلة حجم التجارة العربية البينية، بل إن معدل نموها شهد فى التسعينيات تناقصاً وليس تزايداً. ونأمل أن يكون فى توقيع اتفاقية منطقة التجارة العربية الحرة فى ١٩٩٨ والبدء فى تنفيذها ما يغير من هذه الأوضاع والتوجهات.

ويعترف معظم الاقتصاديين بوجود عدد من العقبات المادية أو المؤسسية التى أعاقت - فى وقت أو آخر - من نمو التجارة العربية على النحو المأمول به. وهناك تداخل فى كثير من الأحيان بين العقبات المادية والمؤسسية. فمن بين العقبات المادية نحو نمو التجارة ضعف شبكة المواصلات من طرق وخطوط ملاحية وخدمات مرتبطة، ومع ذلك فكثيراً ما تزيد الإجراءات المتبعة من أسباب عرقلة انسياب التجارة بين الدول. فإذا كانت شبكة الطرق بين مختلف الدول غير كافية - على عكس الوضع مثلاً بالنسبة للدول الأوروبية، فإن إجراءات الحدود والتخليص الجمركى كثيراً ما تزيد الأمور تعقيداً مما يؤدى إلى رفع تكلفة النقل. أضف إلى ذلك أن هناك علاقة تبادلية يختلط فيها السبب بالنتيجة فى العلاقة بين نقص حجم التجارة العربية البينية ونقص خطوط الملاحة البحرية بين مختلف الموانى العربية. فنتيجة لصغر حجم التجارة العربية البينية بين الدول العربية لا توجد خطوط ملاحية كافية ودائمة وبالتالى ترتفع تكلفة النقل بين هذه الدول. وبالمقابل، فإنه نظراً لعدم توافر الخدمات الملاحية بشكل كاف، فإن فرصاً للتجارة تضيع. وهكذا، تتداخل الأسباب مع النتائج، وتصبح هذه العقبة سبباً لنقص التجارة ونتيجة فى نفس الوقت.

وبالإضافة إلى هذه العقبات المادية، كانت هناك عقبات سياسية ومؤسسية، وخاصة فى الستينيات عندما انقسم العالم العربى إلى معسكرين، معسكر الدول «التقدمية» أو الاشتراكية من ناحية، ومعسكر الدول «الرجعية» أو الرأسمالية من ناحية أخرى. وبصرف النظر عن دقة الأوصاف، فقد عكس هذا الانقسام السياسى والأيديولوجى قطيعة كبيرة فى العلاقات الاقتصادية لأسباب سياسية وأيديولوجية. ورغم أن هذه الأوضاع قد تلاشت إلى بعيد منذ السبعينيات، فإن آثار هذه الفترة مازالت قائمة فى الأذهان بدرجات متفاوتة. فمن ناحية مازالت هناك «ذكريات» الشكوك والريبة المتبادلة، وهناك أيضاً مؤسسات نشأت فى ظل هذه الأوضاع، وبالتالى استمرت فى ممارسات قديمة حيث يصعب تغييرها بين ليلة وضحاها.

على أن الأمر لابد أن يكون أعمق مما تقدم فهذه العقبات أو معظمها، لا تعدو أن تكون أموراً وقتية ما تلبث أن تزول. وبالفعل فإن العديد من هذه العقبات، مادية ومؤسسية، قد تلاشت أو تضاءلت إلى حد بعيد خلال الثلاثين سنة الماضية، ولم تزل حال التكامل الاقتصادى العربى على ما هى عليه. فمنذ السبعينيات وقد بدأ التناقض الأيديولوجى فى الزوال، واتجهت معظم الدول العربية إلى الأخذ بشكل أو آخر من أشكال اقتصاد السوق والدعوة إليه. كذلك فإن الاستثمارات فى البنية الأساسية، من حيث شبكة المواصلات وسعة الموانى وحجم خطوط الطيران قد زادت بدرجة كبيرة. ومع ذلك فإن ذلك لم ينعكس فى شكل تغيير ملحوظ فى حجم العلاقات التجارية العربية، ومن ثم فلابد من البحث عن أسباب أكثر عمقاً وراء هذه الظاهرة.

ويمكن القول بأن تضاؤل النتائج المتحققة فى ميدان التعاون الاقتصادى العربى يطرح قضية منطقية بالنسبة لمدى عقلانية العمل العربى. وهل يعمل «النظام العربى» لمصلحته أم ضد مصلحته؟ السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: لماذا لم يتحقق التكامل الاقتصادى العربى فى الواقع رغم كثرة الحديث عنه؟

هل هناك منطق اقتصادى؟

إذا كان صحيحاً أن مزيداً من الاندماج الاقتصادى الإقليمى (العربى) نافع ومفيد، فإن السؤال يطرح نفسه، لماذا إذن لم يتحقق هذا التقارب الاقتصادى العربى، ولماذا ظل شعاراً للمناسبات أكثر منه حقيقة على أرض الواقع؟ هل معنى ذلك انعدام فى الرشادة الاقتصادية، بحيث يتجاهل المسئولون العرب مصالحهم ويتخذون مسارات ضد هذه المصلحة؟ ويتضمن طرح الموضوع بهذا الشكل عدة أمور يصعب التوفيق بينها؛ وهى أن:

١ - هناك اتفاق على أن مزيداً من التعاون والاندماج الاقتصادى يؤدى إلى تحقيق مصلحة اقتصادية جوهرية للدول العربية.

٢ - رغم الاعتراف بهذه المصلحة، فإن هذا التعاون لا يتحقق على أرض الواقع بدرجة كافية رغم التغنى بمزايا الوحدة عبر نصف قرن من الزمان.

٣ - أخيراً يصعب أن ننسب إلى المسئولين فى الدول العربية عدم رشادة السلوك أو انعدام المنطق فى سياساتهم. فالمسئولون السياسيون فى معظم الدول العربية، رغم ما قد يبدو أحياناً، يتصرفون عادة بدرجة كبيرة من الرشادة والدهاء السياسى ولا ينقصهم المنطق السليم فى الاستقرار والاستمرار السياسى. فكيف تفوتهم هذه الحنكة السياسية عندما يتعلق الأمر بالمصالح الاقتصادية؟

هذه هى المعضلة. كيف يمكن التوفيق بين هذه المقولات الثلاث المشار إليها، كيف تكون رشيداً ومنطقياً فى سلوكك السياسى بشكل عام، ولا تعمل فى نفس الوقت على تحقيق أوضاع تزيد من «المنفعة الاقتصادية العامة»؟

لعلّ الإجابة على هذا التناقض تكمن فى تحديد معنى «المنفعة الاقتصادية العامة»، ومدى ما تتضمنه من تكاليف بالنسبة لمتخذ القرار، الأمر الذى يتطلب التذكير بفكرة «السلعة العامة».

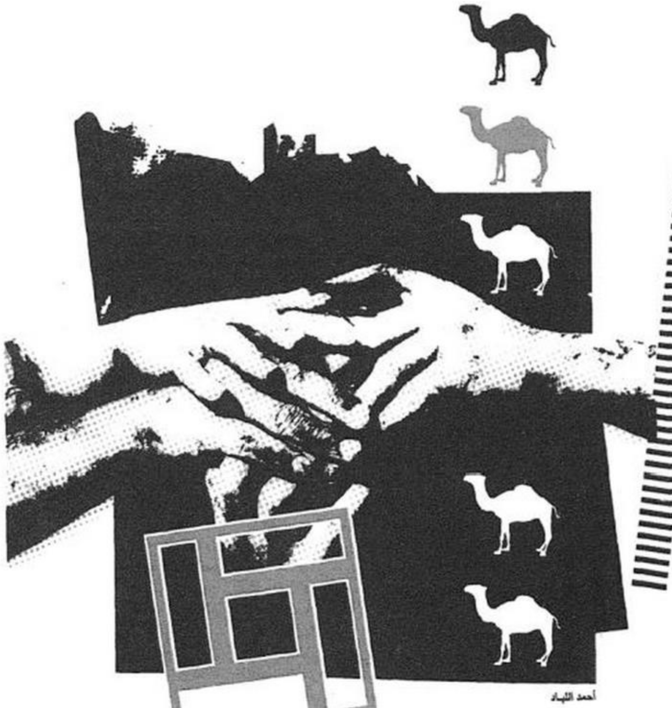
التكامل الاقتصادى «سلعة عامة»

يعرف الاقتصاديون «السلعة» بأنها كل شيء نافع من ناحية وأن توفيرها يتطلب تكلفة أو تضحية من ناحية أخرى. فالسلعة يجب أن تكون نافعة ولكنها أيضاً ليست مجانية بل إن لها تكلفة. فليس كل شيء نافع سلعة. فالهواء وهو أنفع الأشياء لا يعتبر سلعة لأنه لا يكلف شيئاً (لم يعد الأمر كذلك بشكل مطلق، فنظراً لأننا نعيش فى عالم ملوث، فقد أصبح الحصول على الهواء النقى مكلفاً من حيث الذهاب إلى الأماكن النظيفة والتى لم تفسدها أشكال التلوث البيئى). والأصل أن العلاقة بين المنفعة والتكلفة تحدد ما ينتج من سلع، فما دامت المنافع تزيد على التكاليف، فإن المجتمعات تتجه إلى توفير هذه السلع حيث إن ما تحققه من ورائها من منافع يزيد على ما تتحمله من تكاليف وأعباء. وتقوم عادة السوق بتوفير هذه السلع. ولكن هذا الأمر لا يتحقق دائماً فى الواقع حيث إن هناك من السلع التى لا شك فى منافعها والتى تزيد فيها هذه المنافع على تكاليفها، ورغم ذلك فإنها لا تتوافر تلقائياً فى السوق. وهذا يقتضى التفرقة بين ما يعرف بالسلع الخاصة «private goods» والسلع العامة «public goods».

ويشترك النوعان فى أن توفيرهما يتطلب تكاليف وأعباء، وبالتالى فهى ليست منحاً مجانية، ولكنهما يختلفان فى نوع المنفعة التى تترتب عليهما ومدى إمكان الاستئثار أو شيوع الانتفاع بها. أما التكاليف فلابد أن يتحملها أفراد أو مؤسسات بعينها. وما لم يكن هؤلاء الأفراد والمؤسسات على استعداد لتحمل تكاليف إنتاج السلعة، فإنه لا يمكن توفيرها مهما بلغت منافعها. ولذلك فإن توفير أى سلعة

التجارة البينية العربية أقل من ١٠٪ من حجم التجارة الخارجية للدول العربية فى حين أنها تبلغ حوالى ٤٠٪ فى مجموعة الدول الآسيوية وأكثر من ٢٠٪ فى دول أمريكا اللاتينية، فضلاً عن السوق الأوروبية التى تزيد فيها التجارة البينية على ٦٠٪

لماذا لا يتكامل العرب اقتصاديا؟



أحمد اللباد

إنما هو رهن بمدى توافر الاستعداد لتحمل تكاليف وأعباء توفيرها، فإذا لم يوجد هذا الاستعداد فلن تنتج هذه السلع وإن طال الحديث عن أهميتها. وبطبيعة الأحوال فإن الاستعداد الاختيارى لتحمل تكاليف وأعباء توفير السلعة، إنما يرتبط بمدى تقدير المنفعة العائدة من هذه السلعة ومقارنة هذه المنفعة بالتكاليف المطلوبة. والعبرة هنا بالمنفعة والتكلفة العائدة لمن يتحمل التكلفة، أما ما يعود على الغير فإنه لا يدخل فى الحساب. ولذلك فمن الضرورى أن تكون هذه المنافع قابلة للاستئثار وليست شائعة. وهنا نجد أن السلع تختلف فيما بينها من حيث شيوع أو استئثار المنافع المترتبة عليها وهذا هو أساس التفرقة بين «السلع الخاصة» و«السلع العامة». فالأولى تعرف مبدأ الاستئثار principle of exclusion بمعنى أن المستخدم للسلعة يفيد منها. بشكل عام. وحده دون مشاركة الآخرين، وبالتالى فإنه يكون عادة على استعداد لتحمل تكاليفها. وتنجح السوق بالتالى فى توفيرها. أما «السلع العامة» فإن منافعها تكون عادة شائعة، فمتى أديت لفرد فإن الغير يمكن أن يفيد منها بلا تكلفة، الأمر المعروف فى أدبيات الاقتصاد بـ«الراكب المجانى» free rider. ومن هنا فإن السلع العامة تثير عادة مشكلة كبرى فى توفيرها. فهى ليست أقل أهمية أو فائدة من «السلع الخاصة»، بل قد تكون أكثر أهمية، مثل توفير الأمن والاستقرار والعدالة ونظام نقدى مستقر ومرافق عامة. ومع ذلك فالغالب الا يتقدم أحد، اختياراً، لتحمل تكاليف توفيرها. فلا يوجد أى تناقض أو عدم رشادة فى التأكيد على أهمية ومنفعة سلعة أو خدمة من ناحية وعدم إمكان توفيرها من ناحية أخرى. فالاعتراف بمنفعة السلعة أو الخدمة لا يعنى، منطقياً قبول تحمل أعباء وتكاليف إنتاجها وتوفيرها. فقد تتركز التكاليف والأعباء على فئة فى حين أن المنفعة تكون شائعة وموزعة على آخرين. وبالتالى نكون بصدد سلعة أو خدمة عامة بحيث لا يكون أحد مستعداً لتحمل أعباء توفيرها، ولذلك فإنه من المتفق عليه أن السلع والخدمات العامة لا يمكن توفيرها اختياراً. رغم أهميتها. وأنه لابد من تدخل سلطة عليا أو الوصول إلى اتفاق بين المتعاملين على كيفية توفيرها وتوزيع أعباء إنتاجها عليهم.

وفيما يخص الموضوع الذى نحن بصدده، فإننا نعتقد أن التعاون أو الاندماج الاقتصادى العربى هو نوع من السلعة أو الخدمة العامة الإقليمية التى تعود بالنفع على الجميع، ولكن هذا النفع شائع متى تحقق أفاد منه الجميع ولا يمكن حرمان أحد منه. وعندما نتحدث عن الجميع فإننا نشير إلى الأفراد والمشروعات سواء منها القائمة أو المحتملة الإنشاء، وسواء منها الوطنى أو الأجنبى. فالجميع يشمل كافة الوحدات الاقتصادية فى الحاضر والمستقبل التى تتعامل مع الاقتصاد. وبالمقابل فإن توفير هذه السلعة أو الخدمة ليس أمراً مجانياً، بل تترتب عليه أعباء وتكاليف. وإذا كانت منافع التعاون الاقتصادى تعود على الجميع بهذا المعنى، فإن القرار فى شأنها هو من شأن السلطات السياسية التى تضع القيود على سيادتها ومدى الحواجز بين الصناعات القائمة بها وبين الخارج. ففى حالة التعاون الاقتصادى العربى، فإننا نجد أنفسنا بصدد وضع لدول مستقلة عليها أن تقدر المنافع والأعباء التى تعود عليها. كدول أو نظم سياسية. من هذا التعاون وما يترتب على ذلك من تأثير على نشاطها الاقتصادى. فإذا كانت الأعباء التى تفرض على هذه الدول. كنظم سياسية أو قطاعات اقتصادية. تجاوز المنافع التى تعود عليها مباشرة فلا أمل فى أن تقبل مثل هذا التعاون وذلك بصرف النظر عما يعود بالفائدة على الآخرين مهما بلغ عددهم ومهما كانت هذه المنافع. ولا يتناقض هذا السلوك إطلاقاً مع الرشادة الاقتصادية، بل إنه يعتبر انصياعاً لها. فليست الرشادة هى فى المقارنة بين المنافع الإجمالية والتكاليف الإجمالية، وإنما هى فى المقارنة بين المنافع العائدة إلى متخذ القرار السياسى بالتكامل الاقتصادى والتكاليف التى يتحملها، أما ماعدا ذلك فإنه لا يعدو أن يكون من العناصر الخارجية externalities التى لا تدخل فى حسابه. فنقطة البدء فى مناقشة قضية التعاون الاقتصادى العربى، هى أنها قضية تعنى بالعلاقة بين قرارات سياسية. تتخذ لإزالة العقبات أمام التكامل

الاقتصادى وأن المنطق وراءها هو مدى ما يتحقق لمتخذى هذه القرارات من منافع أو تكاليف تعود عليها مباشرة.

أعباء وتكاليف كبيرة:

بدأ الحديث عن التعاون الاقتصادى العربى . كما ذكرنا . منذ إنشاء الجامعة العربية، بعد الحرب العالمية الثانية، وارتفعت النبرة خلال فترة الخمسينيات والستينيات فيما عرف بحركة القومية العربية. وهكذا فإن الدعوة إلى التعاون . أو الاندماج الاقتصادى . ارتبطت فى الأساس بدعوة سياسية قومية. وتستند هذه الدعوة إلى وحدة الأمة العربية، وإن الحدود السياسية إنما هى حدود اصطناعية فرضها الاستعمار ومن ثم وجب إزالتها . فالأقطار العربية القائمة ينبغى أن تزول لتتحقق الوحدة العربية السياسية. وهكذا جاءت الدعوة للتعاون الاقتصادى العربى فى بدايتها وتحمل فى طياتها . بشكل غير صريح ولكنه غير خفى . تساؤلات عن مدى شرعية الحدود السياسية ووجود الأقطار العربية نفسها.

وقد عاصر هذه الفترة شيوع نظم حكم عربية ذات طابع عسكرى وانقلابى مما ساعد على تأكيد هذه الهواجس والمخاوف. وهكذا بدا كما لو كان ثمن التعاون الاقتصادى العربى هو تهديد نظم الحكم والأوضاع الاقتصادية القائمة فى العديد من البلدان. وهى تكلفة عالية لا يقبل أحد بتحملها حتى وإن كانت المنافع المقابلة هى اتساع السوق وزيادة الازدهار الاقتصادى، وهى منافع شائعة تعود على الجميع بلا تحديد. أما التكلفة السياسية على النُظُم القُطرية فهى مركزة وكبيرة فى نفس الوقت. ومع بروز الثروة النفطية، وخاصة فى السبعينيات، ظهر تناقض أكبر بين الثروة المالية الجديدة وبين دعوة الوحدة العربية أو الثورة العربية. فالدعوة للتعاون الاقتصادى العربى بدت فى ذلك الوقت . بشكل ما . كما لو كانت دعوة للمشاركة فى هذه الثروة الجديدة الوافدة، الأمر الذى أوجد حساسية لدى قطاعات واسعة من مواطنى الدول الخليجية. فشعار نفط «العرب للعرب» يمكن أن يتضمن مفاهيم كثيرة بعضها يشير إلى اقتسام هذه الثروة بين العرب. وبذلك فقد تضمنت الدعوة إلى التعاون الاقتصادى العربى . منذ البداية . تهديداً للنظم السياسية القائمة وللهياكل الاقتصادية السائدة. وهو ما يمثل ثمناً باهظاً لعديد من النظم السياسية، وبالتالى وجب منطقياً عدم الحماس له، أو الرغبة فى اقتسام الثروة النفطية بعد أن خف خطر التهديد السياسى. وهو أمر لا يدعو بدوره إلى الحماس لدى النخب فى الدول النفطية. وهكذا غلب على الدعوة للتعاون العربى تلميحات بتهديدات خفية على المستوى السياسى أو الاقتصادى.

ولا يقتصر الثمن السياسى للتعاون الاقتصادى العربى . آنذاك . فيما بدا من تهديدات لاستقرار العديد من النظم السياسية، بل إنه حتى مع اختفاء مثل هذا التهديد وخاصة بعد أن بدأت مرحلة التعايش بين النظم المختلفة بعد حرب ٦٧، فإن هذا التعاون كان يتضمن . بشكل ما . تقييداً لسلطات النظم السياسية القائمة فى العديد من البلدان العربية. فالحاكم فى معظم البلدان العربية ويستوى فى ذلك الدول النفطية وغير النفطية . آنذاك . وأياً كان لقبه . ملكاً أو أميراً، أو رئيساً، أو قائداً . فهو عادة حاكم مطلق لا تكاد تحد إرادته أية قيود، وهو يتمتع بهذه السلطات تجاه أبناء شعبه حيث لا سلطة تعارضه. ولاشك أن فتح الأبواب لأبناء الدول الشقيقة. ووراء كل منهم حكومته . من شأنه أن يقيد من سلطات الحاكم إزاء بعض الضغوط من الدول الشقيقة حماية لمصالح أبنائها، الأمر الذى يتضمن تضييقاً لسلطات الحاكم.

وإذا كانت الدعوة إلى التكامل الاقتصادى العربى قد صاحبها . وخاصة فى بدايتها . مخاوف من تحمل تكاليف وأعباء سياسية للنظم السياسية القائمة . فإن الأمر لم يخل أيضاً من تكاليف وأعباء اقتصادية يمكن أن تتحملها بعض القطاعات الصناعية التى تتمتع بحماية لا ترغب فى التخلى عنها.

فالصناعة فى معظم الدول العربية قد قامت على أساس إحلال الواردات ووجود سوق محلية تحظى بحماية جمركية عالية نسبياً. ولذلك فإن هذه الصناعات ترى بشكل عام فى تحرير التجارة مع العالم الخارجى أو من خلال تعاون إقليمى إضعافاً لمركزها التنافسى فى الداخل، وبالتالى مهددة لأرباحها. وهكذا فإن مثل هذه الصناعات تعبر عادة عن نوع من المقاومة لأية إجراءات يترتب عليها إضعاف ما تتمتع به من حماية للسوق المحلية. ومن هنا موقفها المناوئ فى كثير من الأحيان لإجراءات التعاون الاقتصادى الإقليمى فيما يتضمنه من تخفيف أو إزالة ما تتمتع به هذه الصناعات من مركز متميز فى أسواقها المحلية.

والتعاون الاقتصادى الإقليمى، شأنه شأن كل قرار اقتصادى، يؤدى إلى منافع واضرار، عوائد وأعباء. فهناك المستفيدون منه. كما أن هناك أيضاً المتضررين، والعبرة فى النهاية هى بالمقارنة بين حجم ووزن المنافع من ناحية وحجم ووزن الأضرار من ناحية أخرى. ومع ذلك فإن الأمر ليس متعلقاً فقط بالحجم المطلق لكل منهما، بل كثيراً ما يتعلق بالصوت العالى Voice . فهناك بعض المصالح القادرة على التعبير عن نفسها بقوة رغم انها قد لا تكون كبيرة، فى حين أن مصالح أخرى كبيرة قد لا تنجح فى التعبير عن نفسها بنفس القوة رغم أهميتها. ويعتبر المثال السابق عن المقارنة بين موقف بعض الصناعات الوطنية من تحرير التجارة بالمقارنة وموقف جمهور المستهلكين منه نموذجاً واضحاً للعلاقة بين الصوت العالى وحجم المصالح.

فإذا كان تحرير التجارة يضعف من الوضع التنافسى . أو الاحتكارى . لعدد من الصناعات المحلية، فإنه يوفر للمستهلكين فى نفس الوقت فائدة كبيرة فى إتاحة السلع بأسعار أقل وربما بنوعية أفضل. وهكذا نجد تقابلاً بين ما قد يلحق بعض الصناعات من خسارة، وبين ما قد يحققه المستهلكون من كسب كنتيجة لتحرير التجارة أو للتعاون الاقتصادى الإقليمى. وقد يكون الكسب المتحقق أكبر من الخسارة الواقعة، ولكن الغالب هو أن صوت الصناعيين يكون عادة أعلى وأقوى من صوت المستهلكين. ولذلك أسباب. ونشير فى هذا الصدد إلى أمرين. الأمر الأول التفرقة بين الخسارة «المحققة» «realized loss» وبين الكسب «الضائع» «foregone benefit» ، فهنا نقارن بين شركة تحقق بالفعل خسارة أو نقصاً فى الأرباح، وبذلك فإنها تتحدث عن أشياء تحققت بالفعل بالمقارنة بالماضى، وهى أمور يمكن قياسها، وبالتالى فإن الشعور بها يكون عادة قوياً. أما الكسب المحتمل، أو المتوقع، فهو إشارة إلى «أمل» لم يتحقق فى أى وقت فى الماضى، وإنما هو تطلع إلى المستقبل. ولذلك فإن المطالبة به تكون أقل حدة مما هو الحال فى الدفاع عن الخسائر المتحققة. هذا عن الأمر الأول الذى يؤدى إلى رفع أصوات المقاومة (الصناعات المحلية) أعلى من أصوات التأييد (جمهور المستهلكين). فبعض أصحاب الصناعات وهم يعارضون التعاون يتحدثون عن خسائر حقيقية تلحقهم، أما المستهلكون فيندر أن يدافعوا عن الأمل فى مكاسب يمكن تحقيقها.

أما الأمر الثانى فهو يرجع إلى تركز أو تفرق أصحاب المطالبات. فبالنسبة لأصوات الصناعة المطالبة بإبقاء الحماية فإن عدد الصناعات يكون عادة محدوداً ولذلك فإن حجم الخسارة التى تلحق بكل منهم تكون عادة كبيرة تبرر المطالبة بالصوت العالى فضلاً عن أنهم لقلة عددهم يكونون عادة قادرين على تنظيم مقاومتهم بشكل فعال. أما أصحاب المصلحة فى خفض أسعار السلع المتاحة وتحسين نوعيتها فإنهم من جمهور المستهلكين، وهم أعداد كبيرة متفرقة كل منهم قد يحقق كسباً صغيراً. ورغم أن مجموع المكاسب قد يكون كبيراً بل وكبيراً جداً، فإن أصوات المطالبة بالتحرير قد لا تكون عالية. فهم لتفرقهم وتشتتهم غير قادرين على التنظيم وبالتالى الفاعلية. وهم أيضاً بالنظر إلى تشتتهم فإن النفع العائد على كل منهم يكون عادة قليلاً لا يبرر التعبئة الكبيرة لهذه القضية. ومن هنا كثيراً ما نجد أن مصالح الأقليات تجد آذاناً مصغية أكثر من مصالح الأغلبية، لأن الأغلبية بطبيعتها كسولة وغير منظمة. وينطبق هذا المنطق بالنسبة للمقاومين والمؤيدين لإجراءات تحرير التجارة. فالمقاومة تأتى عادة من أقلية نشطة ذات مصالح كبيرة ومركزة، فى حين أن التأييد لا يظهر بنفس القوة لعدم تركز هذه المصالح وتشتتها بين أعداد كبيرة قليلة الاهتمام.

إذا كان صحيحاً أن مزيداً من الاندماج الاقتصادى الإقليمى (العربى) نافع ومفيد، فإن السؤال يطرح نفسه، لماذا إذن لم يتحقق هذا التقارب الاقتصادى العربى، ولماذا ظل شعاراً للمناسبات أكثر منه حقيقة على أرض الواقع؟

وما تقدم لا يحول دون الاعتراف بأن هناك اعتراضات تمثل معارضة مشروعة للحماية من المنافسة «غير العادلة» من الدول الشقيقة. فمنتجات بعض الدول تتمتع بميزة تنافسية تجاه أسعار الدول الأخرى الشقيقة المنافسة ليس بسبب كفاءة إنتاجية وإنما بسبب مزايا تتمتع بها فى دولها فى شكل إعانات صريحة أو ضمنية. وقد اعترفت اتفاقات منظمة التجارة العالمية بحق الدول المنضمة إلى

الاتفاقية باتخاذ إجراءات لمواجهة «الإغراق» أو الإعانات لحماية الصناعة المحلية فى مواجهة منافسة الدول الأخرى. ولا شك أن نوعاً من هذه الإجراءات لابد أن يراعى فى تحرير التجارة ضمن أشكال التعاون الاقتصادى العربى. ولذلك فقد يكون من الواقعية الاعتراف بمشروعية جزء من هذه المخاطر التى تتعرض لها بعض القطاعات من جراء فتح الأبواب بين الدول العربية، والعمل على وضع آلية «لتعويضها» عن هذه المخاطر.

ومن هنا فقد يكون من المناسب أن تتضمن برامج التكامل الاقتصادى الاتفاق على تخصيص ميزانية وموارد مالية مناسبة لتعويض الأطراف المتضررة من زيادة حجم التبادل التجارى العربى، والعمل فى نفس الوقت على الإزالة التدريجية لأسباب هذه الأضرار. وقد عملت السوق الأوروبية منذ البداية على الاعتراف بأن بعض القطاعات . وخاصة فى الزراعة فى بعض الدول مثل فرنسا . يمكن أن تضار أكثر من غيرها من مزيد من التكامل الاقتصادى الأوروبى، فكفلت اتفاقات التعاون الاقتصادى الأوروبى توفير آلية لتعويض هذه القطاعات. ومن هنا ينبغى النظر إلى التكامل الاقتصادى العربى باعتباره مشروعاً اقتصادياً له منافع كما أن له تكاليف، وهذه وتلك لها نتائج مالية يجب أن تتحملها الدول. فالتكامل الاقتصادى العربى، مثل أى مشروع مهم ولكنه ليس هبة بلا تكلفة، حتى وإن كانت فوائده أكبر.

أمر منطقى تماماً:

إذا كان التحليل السابق صحيحاً، فإن معنى ذلك أن التعاون الاقتصادى العربى لم يتحقق فى الواقع رغم ما بدا من منافعه لأن هناك أسباباً منطقية تبرر تجاهل هذه المنافع الاقتصادية حيث إن هناك تكاليف وأعباء أكثر أهمية وخطورة من هذه المنافع بالنسبة لمتخذى القرار، وهو عادة قرار ذو طابع سياسى حيث يتعلق بعلاقة الدولة بالخارج ومدى حدود سلطاتها ومزاياها وسيادتها.

يتصل بذلك إن منطق التعاون الاقتصادى الإقليمى لا يزدهر إلا فى إطار من الديمقراطية. فالنظم الديمقراطية ليست. بطبيعتها . عدائية أو تآمرية، فضلاً عن أنها بتداول السلطة، فإنها لا تسمح بقيام السلطة المطلقة للحكومات والتى تقاوم أية مشاركة فى هذه السلطة، سواء من الداخل أو من الخارج. وقد يكون من المفيد هنا أن نتذكر أن من أسباب نجاح التعاون الاقتصادى الأوروبى، هو أن القائمين على إنشاء السوق الأوروبية المشتركة قد عمدوا منذ البداية فى اتفاقية روما بإنشاء السوق عام ١٩٥٧ على التأكيد على أن المشاركة فى عضوية هذه السوق سوف يقتصر فقط على الدول الأوروبية التى تمارس الديمقراطية وتشترك فى المبادئ والقيم العامة لاحترام حقوق الإنسان. فمع شيوع الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان تتضاءل إلى حد بعيد المزايا السياسية للاستئثار بالحكم والسيطرة على جميع المقررات السياسية والاقتصادية للبلاد.

يتطلب العلاج إذن الاعتراف بهذه الأمور وإيجاد آلية لمعالجة هذه المطالب المشروعة. وقد يكون من المفيد فى هذا الصدد ألا تقتصر جهود العمل على التكامل الاقتصادى العربى على المطالبة بإزالة الحواجز، وإنما الاعتراف بأن التعاون أو التكامل الاقتصادى العربى لا يعدو أن يكون مشروعاً له تكلفة كما أن له منافع، وبالتالى ضرورة توفير «ميزانية عربية» لهذا المشروع، لتعويض المتضررين من هذا المشروع. وبدون الاعتراف بهذه التكلفة ومحاولة تعويضهم عنها، فسنظل نتكلم عن مزايا التعاون الاقتصادى فى المنتديات والمؤتمرات، ولن يمنع ذلك المتضررين منها من العمل على وقفها فى هدوء وبلا جلبة والله أعلم. ■

للاستزادة:

الاقتصاد العربى فى عصر العولمة
مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية
حازم الببلاوى
أبو ظبى، ٢٠٠٢



حدث فى مارس ١٩٤٤ الميلاد

محمد المهدى

■ ■ أنطوان دى سانت اكزيبيرى Antoine, De, Saint-Exupery ١٩٠٠/ ١٩٤٤ أديب فرنسى عمل طياراً وربطه عمله بالأرض حينما كان يراها من طائرته مجردة. وبالناس حينما ابتعد عنهم فازداد شوقا وارتباطًا بهم. وبالصحراء لأنها هيأت له السكون والصمت ومواجهة الموت فى سلام. يتغذى بالشجاعة من وحدة الكون والإيمان. تعرض للموت عدة مرات، وكان فى كل مرة

Le Petit Prince

(الأمير الصغير)

Antoine de Saint - Exupéry
Gallimard (Folio), 1999, 97 pages.

لا يفكر إلا فى إعادة الكرة حينما تكتب له النجاة. ولكن فى مارس عام ١٩٤٤ لم يعاود الكرة لأنه لم تكتب له النجاة من رحلة استكشافية فوق أرض الجزائر. وذكر منذ فترة أنه عثر على بقايا طائرة على ساحل فرنسا المتوسطى، يعتقد أنها كانت للأديب اكزيبيرى.

من أعماله (بريد الجنوب) ١٩٢٩، (طيران الليل) ١٩٣١، (أرض البشر) ١٩٣٩ وكانت آخر أعماله التى نشرت من بعد اختفائه (القلعة) ١٩٤٨، انفرد أكزيبيرى بكتابة قصة. رسم صورها بنفسه. يعزى فيه الصغار، ويلوم فيها الكبار محاولا تنمية قدرات ومدارك وحس الكبار حتى يصبح فى مقدورهم فهم عالم الصغار.

اسم القصة (الأمير الصغير) نشرت عام ١٩٤٣ وأعتقد أنها جديرة بأن نقدمها للصغار فى زمن إفساد الصغار، وللكبار فى ذكرى مرور ٦٠ عاما على اختفاء صاحبها.

كان بيكاسو يقول إنه يتمنى أن يرسم كما يرسم الأطفال، بمعنى أن يرسم بذهنية وتلقائية الأطفال، وهناك كما يقول (اكزيبيرى) عالمان. عالم الصغار وعالم الكبار. وإذا أمكن للبشرية أن تدون تاريخ عالم الكبار فإنها رغم كل تقدم لا تستطيع أن تدون تاريخ عالم الصغار، فمشكلة البدء تشابه مشكلة النهاية من حيث الغموض. ورغم أن الميلاد أقل غموضا لأنه يسير مع النمو إلى التفتح والوضوح بمفهوم الكبار، ولكن لا ندرى كيف يحسه أو يصفه الذين يولدون. ولا يمكن بالطبع معرفة ذلك، فكما أن لحظات الموت غير ممكنة التدوين، فإن الميلاد والطفولة لا يمكن تدوينها فى حينها لنقص طاقات الإدراك، وأدوات التعبير عند الصغار بمفهوم الكبار.

ونعرف عدة مذاهب فلسفية للتاريخ اعتبرت فى غالبيتها التاريخ، والتأريخ علما، ولكنا نجد (برتراند راسل) يعتبر التاريخ والتأريخ فنا. فعلى المؤرخ فى رأيه أن يقرأ، ويقرأ فى المرحلة المراد الكتابة عنها. ثم يطرح جانبا مراجعه ويبدأ فى الصياغة بعد تمثل المرحلة. وهذا ما انتهجه تقريبا عدة أدباء الآن منهم (أمين معلوف) و(رضوى عاشور). وتعتبر هذه الطريقة هى أفضل ما وصلنا إليه للآن لتمثل حالة الطفولة فى التفكير والتعبير.

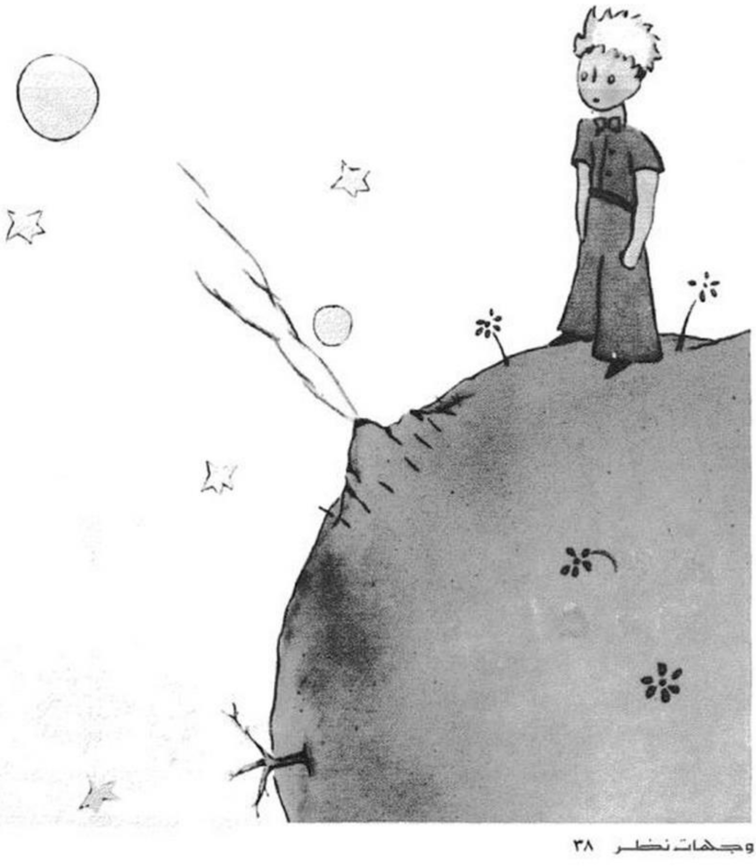
لحظة الموت

عانى (اكزيبيرى) من المشكلتين معا حينما أراد كتابة قصته الفريدة والوحيدة للأطفال والكبار معا... (الأمير الصغير)

المشكلة الأولى هى التفكير. وفيها الداء. برمزية الحوار الطفولى بما يجسم درامية الخيوط الخفية بين الصغار والكبار. والثانية. وفيها الدواء. وهى التعبير بالرسم المصاحب لكل صفحة من صفحات القصة بما يعقد عروة جميلة بين الأمير الصغير والطيار الضائع فى الصحراء.

فإذا كان الأول يمثل لحظة البدء بكل معجزاتها، ونقائها، وبساطتها، ووصولها إلى الأعماق والحقيقة فى أقل الكلمات، فإن الثانى يمثل لحظة النهاية أو الموت الذى يواجهه طيار هبط اضطراريا فى صحراء خالية، بذهنية الكبار... من ذكريات معقدة، واضطراب، وخوف، وتتبع للألم الجسدى حينما تأتى اللحظة الحاسمة.. لحظة الموت.

كان (اكزيبيرى) بارعا. ولو أنها كلمة لا تناسب المقام. حينما صور لنا هذه اللحظة فى قصة أخرى أخذ عليها الجائزة الكبرى للأكاديمية الفرنسية هى قصة (أرض البشر). تحكى واقعا عاشه الكاتب حينما اضطر إلى الهبوط مع زميله فى صحراء عرف بعد نجاته أنها صحراء ليبيا.. «ولم أعد أكتشف أى شىء فى نفسى، اللهم إلا جفافا عظيما فى القلب. أنا على وشك الموت ولكن لا أعرف



والمـــــوت.. والكـــــاتب الـــذى اختـــفى

اليأس، وحتى الألم لا أعرفه. وإنى لأسف على ذلك فإنى أعتقد أن الألم لو أتى لكان حلواً كالماء، فإن المرء يرثى عندئذ لنفسه، ويشكو إلى نفسه كما لو كان يشكو لصديق عزيز، ولكن لم يعد لى فى الدنيا صديق».

نلاحظ فى العبارة قدرا من التسليم ينمو فى عبارة أخرى صاغها فى لحظة أقرب للموت من الأخرى فيقول «وسرت مرة أخرى أمام حقيقة لا أفهمها. اعتقدت أنى هالك وأنى وصلت إلى أقصى درجات اليأس، ولكن ما كدت أستسلم لمصيرى حتى عرفت السلام. ويبدو أن الإنسان يكتشف نفسه فى تلك اللحظات، ويصبح صديقا لنفسه، ولا يعود هناك شىء يستطيع التغلب على ذلك الشعور بالكمال الذى يرضى فينا حاجة ضرورية لم نكن نشعر بها من قبل».

تعرض (اكزيبرى) للموت مرتين. الأولى فى صحراء ليبيا، والثانية فى جواتيمالا. وأعطته هذه اللحظات العصيبة تجارب أخرى عديدة، وإحساسا صوفيا بدور الإنسان أمام الخطر. فلحظة الميلاد فى نظره بسيطة، ولحظة الكبر بسيطة. بل ولحظة الموت بسيطة ما دامت تصل الإنسان بنسيج الأخوة البشرية، وبهذه الأرض التى يراها من طائرته بلا نقاب، وبلا شرايين الطرق الخادعة حين الاقتراب منها.

لحظة الموت فى الصحراء لا تعنى شيئا ما دامت تعطى للوجود كل معنى وهى خير من موته فى قطار الضواحى الذى يحمل الرجال كل صباح إلى أعمالهم بلا معنى وكأنه يردد قول الشاعر الرقيق الراحل صلاح عبد الصبور:

أعطيك ما أعطتنى الدنيا من التجريب والمهارة

لقاء يوم واحد من بكارة

لحظة البكارة والنقاء أين توجد؟

فى نهاية قصة (أرض البشر) يلتقى الكاتب فى قطار بعمال بولنديين يتم ترحيلهم من فرنسا إلى بولندا، ويرى بين هذه الأكوام البشرية البائسة الغافلة، طفلا (كأنه فاكهة مذهبة).. (هذا وجه موسيقى، هذا موزار الطفل، هذه هدية جميلة من الحياة. وإن الأمراء الصغار الذين كنا نسمع عنهم فى الأساطير لا يختلفون عنه فى شىء. فماذا يصبح هذا الطفل لو وجد الرعاية والتثقيف؟.. ما يعذبنى هو موزار الصريع فى كل فرد من هؤلاء الناس. وليس هناك إلا الأرواح لو هبت على الصلصال لاستطاعت أن تخلق الإنسان».



هناك كواكب لأوراق الكبار،
وفـــــردوس واحـــد مفقـــود
للبراءة والنقاء.. والصغار

كتب اكزيبرى قصة (أرض البشر) عام ١٩٣٩، وقصة (الأمير الصغير) عام ١٩٤٣. اكتشف بها لحظة النقاء فى لحظة البدء والطفولة.. لحظة تشابه فى طاقتها وعفويتها كافة استهانة الإنسان بالموت نفسه، وكان طبيعيا أن يوجه الكاتب قصته للأطفال، فقد كتبها ورسمها لهم. وإن كان أمله وهدفه أيضا أن تمس رمزيتها العميقة، وألحانها الرقيقة أوتار الكبار المتراخية، فتشدها، وتعيد إليها على الأقل بعضا من ذكريات ألحان الطفولة ليغنى الكبير والصغير قصيدة واحدة.

يبدأ القصة بالاعتذار للأطفال لأنه يقدم قصته إلى صديق من الكبار، ولكنه يستدرك فيقدمها لصديقه عندما كان طفلا.

يحكى لنا الكاتب جزءا من ذكريات الطفولة عندما كان فى السادسة يمارس الرسم ككل الأطفال. أراد بخياله النقى أن يرسم ثعبانا ضخما ابتلع ذئبا. ولكن الكبار استهانوا برسمه، ونصحوه ككل الكبار بترك الرسم وتعلم مهنة مفيدة.. وتعلم الطيران.. وصار طيارا يجيد الحديث عن البريدج والجولف، ويسعد الكبار بهذه الأحاديث الجادة.

حدث ذات مرة أن تعطلت طائرته فى صحراء خالية، أخذه الهم والرعب وهو يحاول إصلاحها. وفجأة وفى وسط صمت الصحراء يسمع صوتا طفوليا يقول له:

. من فضلك ارسم لى خروفا.

التفت فى رعب ليجد أمامه طفلا له هيئة غريبة ولكن ساحرة. يدور الحوار بين الطيار والطفل. الأول يلح فى معرفة كيف جاء إلى الصحراء المعزولة، والثانى يلح فى طلب رسم الخروف. يرسم الطيار المطلوب على عجل حتى يصل إلى إجابة عن سؤاله، ولكنه لا يتبين حقيقة هذا (الأمير الصغير) إلا بين سطور كلامه، فهو لا يحب الاستجوابات بطريقة الكبار.

الأمير الصغير سقط أيضا من كوكب صغير يعيش فيه وحيدا، وطبقا للقاعدة الجغرافية التى تجعل نصف الكرة الشرقى من الأرض مشمسا، لحظة ما يكون نصفها الغربى مظلما، فكذلك كوكب الأمير الصغير ولكن فى حدود حجمه. وبالتالى يستطيع أن يمارس هوايته ورياضته المفضلة التى أحجم عنها الكبار منذ زمان، وهى رؤية غروب الشمس مرات عديدة وذلك بتغيير مقعده مرة فى اتجاه الشرق، ومرة فى اتجاه الغرب.

فى كوكب الأمير الصغير ثلاثة براكين تناسب حجمه، وبالتالى يستطيع أن يستخدم اثنين منها فى الطبخ، بينما الثالث خامد، وعمله اليومى الذى يقوم به فى همة هو تنظيف الكوكب من الأعشاب الضارة التى يمكن أن تكبر وتصبح نوعا من الأشجار الضخمة (BAOBABS) فتهدد كوكبه بالانفجار. من هنا يكتشف الطيار سر طلب الأمير رسم الخروف. حتى يخلصه من هذه الأعشاب.

. ولكن هل يأكل الخروف الورود؟

. نعم

كيف إذن يحمى وردته حبه الوحيد وأنيس وحدته على كوكبه من الخروف؟ ينشغل الطيار بهمة بطائرته، ويجيب ككل الكبار كيفما اتفق على تساؤلات الصغار، ولكن أميرنا الصغير طفل من عالم لا يعرف منطق الكبار. يكتشف اللعبة وينفجر فى الطيار قائلاً: إنه قد عرف ذات يوم رجلا يقوم بجمع الأرقام دائما ويردد (أنا رجل جاد. أنا رجل جاد) ولكنه لم يعرف فى حياته كيف يتأمل نجما، أو يستنشق عبير وردة، أو يحب إنسانا... وحار الطيار أمام عالم العبرات التى انفجرت من عيون أميره الصغير.

عزف الطيار إن كوكب الأمير فيه وردة صغيرة هى همه الحقيقى، لقد أعجب بها ذات يوم



فأجابت بغرور (أنا فعلا جميلة فقد ولدت مع الشمس) ويأخذها الغرور والغموض فى يوم آخر فتطلب أن يحميها من النمور وهى تعلم أنه لا توجد نمور فى الكوكب، أو تصطنع السعال وتطلب أن يحميها من الرياح. ويحار الأمير أمام انفعالاتها المصطنعة ويقرر الرحيل عن كوكبه.

وقبل أن يكمل قصته لصديقه الطيار يسر إليه قائلاً: (إننى لا أفهم شيئا على الإطلاق، كان يجب على أن أحكم عليها بناء على الأفعال لا الأقوال. كانت تعطرنى وتنير لى، فما كان يجدر بى أن أهرب منها أبدا. كان يجب على أن أدرك حنانها وراء خدعها الواهية، فالوردة متناقضة على هذا النحو، ولكن كنت صغيرا جدا حتى أعرف كيف أحبها).

ودع الأمير وردته دون أن يفهم آخر كلماتها (أنا أحبك، وأنت لم تدرك شيئا بسبب خطئى، وهذا ليس مهما لقد كنت أنت أيضا أبله مثلى.. حاول أن تكون سعيدا).

ويبدأ جولته يبحث عن السلوى والمعرفة فهبط على كوكب صغير لا يسع سوى عرش بسيط يجلس عليه ملك مهيب يملأ عباءته الكوكب، ويهوى إصدار الأوامر. ويعجب الأمير لهذا الملك الذى يحكم كوكبا خاليا، ولكنه يتصور أنه يحكم الكون، ويتحكم فيه بشكل مطلق... حتى غروب الشمس، ويأذن له الملك فى أن يطلب رؤية غروب الشمس، ويجيب الملك بأن عليه انتظار اللحظة المناسبة.

يضيق الأمير الصغير بهذا الكوكب ولا يغريه منصب الوزير المعروض عليه من قبل ملك يعيش فى وهم ويقرر الرحيل مرددا (إن عالم الكبار هذا عالم غريب).

يصل إلى كوكب آخر يشغله شخص مغرور يحمل قبعة، ويطلب من الأمير أن يصفق، وكلما صفق رفع قبعته فى تحية متواضعة. يضيق الأمير بترديد اللعبة دون معنى ويسأل لإنهائها فى بساطة لا يرى فيها قلة أدب بمنطق الكبار.

ماذا يجب عمله لكى تسقط القبعة؟ ولكن المغرور لا يسمعه، فالمغرورون لا يسمعون إلا المديح، ويقرر الرحيل مرددا:

. إن الكبار بالتأكيد أطوارهم غريبة.

ويصل إلى كوكب ثالث فيجده مشغولا بسكير يشرب لينسى.. ينسى العار.. عار أنه يشرب ثم يلوذ بالصمت. ويعجب الأمير ويترك الكوكب قائلا:

إن الكبار بالتأكيد أطوارهم غريبة جدا.

ينزل الكوكب الرابع فيجده مشغولا بشخص ممتلئ منكب على الأوراق يحمل على طرف شفتيه سيجارة غير مشتعلة ويردد فى أرقام، وحينما يصل إلى خمسمائة مليون يقول للأمير:

. ألا زلت هنا؟ خمسمائة وواحد مليون من.. لا أدرى مطلقا.. أنا مشغول للغاية. أنا جاد أنا لا ألهو بالهزار. اثنان وخمسة وسبعون. يكتشف الأمير أن رجل الأعمال يعد النجوم، ويعدها لأنه يمتلكها، ويمتلكه لأنه وجدها ليست فى ملكية أحد. إنه يستطيع أن يحتفظ بورقة عليها عدد نجومه فى البنك.

يعجب الأمير الصغير لهذا العمل غير الجاد فى نظره، ويقول لرجل الأعمال إنه يمتلك فى كوكبه وردة يعتنى بها وثلاثة براكين ينظفها دائما، وبالتأكيد أنا مفيد لوردتى وبراكينى، ولكن ما فائدتك أنت لنجومك.. ويرحل الأمير مرددا:

. إن شخصيات الكبار غير عادية تماما.

وكان الكوكب الخامس وأعجبها لا يشغله سوى مصباح ورجل يشعل المصابيح. يقوم الرجل بإشعال المصباح ثم يقول مساء الخير، ثم يقوم بإطفائه ويقول صباح الخير. ويفهم الأمير أن هناك تعليمات للقيام بهذا العمل. وكان الجزء الأول من هذه المهمة فى السابق يتم فى المساء، والجزء الثانى يتم فى الصباح. أما اليوم فالكوكب يدور أسرع وبالتالى على الرجل أن يقوم بالمهمة كل دقيقة. وينقضى شهر على حديث الأمير مع رجل المصباح بمقياس الزمان الغابر، أى ثلاثين دقيقة بمقياس زمان اليوم الملتهب.

> كان بيكاسو يقول إنه يتمنى أن يرسم كما يرسم الأطفال، بمعنى أن يرسم بذهنية وتلقائية الأطفال

يثير عمل هذا الرجل إعجاب الأمير فإنه الوحيد الذى يهتم بشىء غير نفسه، وتغريه الإقامة عند هذا المتبتل الذى تتاح الفرصة فى كوكبه لرؤية غروب الشمس مائة وأربعا وأربعين مرة كل أربع وعشرين ساعة. ولكن الكوكب صغير جدا لا يسع سوى المصباح وصاحبه.. ويرحل الأمير حزينا.

كان الكوكب السادس يسكنه عالم فى الجغرافيا يمسك دفترا ضخما ويقوم بتدوين معلومات المكتشفين. ويسأل الأمير أن يصف له كوكبه حتى يضيفه إلى علم الجغرافيا. ولا يرى الأمير شيئا يثير الاهتمام فى كوكبه سوى الوردة والبراكين الثلاثة. ويحزن حين يعلمه العالم أن هذه أشياء لا تدون... إننا نسجل ما هو ثابت فقط ووردتك زائلة.

. ماذا تعنى كلمة زائلة؟

يظل الأمير يردد بعد أن فهم.. وردتى زائلة. ويطلب من العالم أن يستكمل معرفته فيشير عليه بزيارة كوكب الأرض. كوكب الأرض به ١١١ ملكا و ٧٠٠٠ من الجغرافيين و ٩٠٠,٠٠٠ رجل أعمال وستة ملايين ونصف سكير و ١١١ مليون مغرور. أى نحو مليارين من الكبار. وكان يقوم على إنارة الأرض قبل اختراع الكهرباء ٥١١,٥٦٢ رجلا يشعلون المصابيح، كما أن فى مقدورنا أن نضغط كل سكان الأرض فى أصغر جزيرة بالباسيفيك.. ولكن هل يصدق الكبار؟

أرض البشر

هذه اللمحة من (اكزيبرى) عن سكان الأرض تجعله يختار لأميره الصغير النزول فى الصحراء. فالصحراء يصفها فى قصة (أرض البشر) قائلاً: (هذه هى الصحراء تجعل قواعد الحياة المقدسة بين رمالها عالما، فالصحراء التى يحسبها المرء قاعا صفصفا تمثل رواية خفية تهز مشاعر الناس، وليست الحياة الحقة فى الصحراء هجرة قبائل سعياً وراء المراعى، ولكنها جهاد يبذل، وما أعظم الفرق بين نوع الرمال فى الأرض الخاضعة، ونوع الرمال فى الأراضى الثائرة. وليس كذلك الأمر بالنسبة لكل الناس؟ هذه الصحراء البعيدة عن البشر، ولكن لكونها بعيدة فإنها تربط المتأمل بالبشر)

يقول أيضا: (فما أنا إلا شخص تائه بين الرمال والنجوم. لم أعد أحس بأى لذة سوى لذة التنفس.. ورغم ذلك رأيت نفسى مفعما بالأحلام).



ينزل الأمير الصغير وكأنه رسول إلى أرض البشر، إلى الصحراء، ولكنها الأرض على اى حال. أرض الكبار. وبكل النقاء، والحب، والبساطة يلتقى بثعبان فيشفق على هذا الكائن الضعيف الذى يشبه الإصبع، ولا يستطيع أن يذهب بعيدا، ويجيبه الثعبان الذى ورث خبثا من عالم الكبار بأنه يستطيع أن يحمله إلى أبعد مما تحمله سفينة.. (ومن أمسه ارجعه إلى الأرض التى خرج منها، إننى أستطيع أعيدك يوما إذا ما برح بك الشوق إلى كوكبك).

ولا يفهم الأمير الصغير هذه الألغاز فيرحل ويصعد جبلا عاليا أملا أن يرى الناس من ارتفاعه، ويردد صباح الخير.. صباح الخير. ولا يجيبه سوى الصدى.. صباح الخير.. صباح الخير. ويضيق بهؤلاء الناس الذين لا يعرفون سوى ترديد ما يقال لهم. لا يعرفون الخيال، ولا يعرفون تبادل الحوار. ويلتقى فى بستان بآلاف الورود، ويدرك أن وردته ليست فريدة فيبكى، ولكنه يفيق على صوت يقول (صباح الخير). يلتفت ليتعرف على ثعلب فيطلب منه أن يلعبا سويا فهو حزين ولكن الثعلب يقول للأمير:

. أنا لست مستأنسا، فأنا ثعلب وأنت من البشر، والبشر يطاردون الثعلب لأنه يأكل الدجاج. ولكن إذا استأنستنى سنكون أصدقاء.

ويضيف الثعلب:

. إن المرء لا يعرف إلا الأشياء التى يستأنسها، فالناس ليس لديهم وقت لمعرفة شىء، إنهم يشترون الأشياء الجاهزة من عند التجار، ولا يوجد تجار أصدقاء، فالناس ليس لديهم أصدقاء.

يتعجب الأمير الصغير من هذه النتيجة ويصير صديقا للثعلب، ثم يذهب إلى البستان ويحدث الورود بأن علاقته بوردته الوحيدة علاقة ألفة، فهى بالتالى فريدة لا ليست ككل الورود.

ولكنه مضطر إلى ترك الثعلب عند الرحيل، ويشعر بالأسف ولكن الثعلب يعزيه قائلا:

. الجوهر يخفى عن الأنظار وعلاقتك بوردتك باقية. أنت مسئول عنها.

ويشاء حظ الأمير الصغير، أو الإحكام البديع فى قصة (اكزيبرى) أن يلتقى بعد هذه التجربة برجل يقوم بتحويل قطارات المسافرين.. قطارات الحياة. البعض يرحل لليسار، والبعض يرحل لليمين. وقطارات يتصور الامير الصغير أنها تعود من رحلاتها، فيفهمه الرجل بأنها قطارات أخرى، فمن يرحل لا يعود.

◆ ولماذا يستقل الناس القطارات وعما يبحثون؟

. إنهم لا يعلمون، الأطفال فقط يدسون أنوفهم فى زجاج القطارات، ويعرفون عما يبحثون. إنها لعبة بسيطة أو قصاصة ورق تمثل لهم كل الحياة. ولكن هل يعلم الكبار؟

الكبار.. يلتقى الأمير بأحدهم، فيجده مشغولا بتسويق اختراع جديد. حبوب من يبتلعها مرة كل أسبوع تعفيه من شرب الماء فيوفر وقته. ويسأل الأمير: ولكن ماذا يفعل بوقته المكتسب؟ يعجب الأمير لاستغلال الكبار للوقت الفائض فى أمور مادية.. فلو كان لديه وقت لضيعه فى السير على مهل إلى نبع الماء.

نبع ماء.. يفيق الطيار عند هذه اللحظة من ذكريات الأمير بعد مرور ثمانية أيام، وبعد أن شرب آخر قطرة ماء كانت معه. ويقنع الأمير بضرورة البحث عن الماء. فالماء عنده يصلح القلب، والجلوس فى الصحراء يجعل الإنسان لا يسمع شيئا، ولا يرى شيئا. ومع ذلك هناك شىء يشع فى الصمت.. إن جمال الصحراء ذاتها تخفى بئرا فى مكان ما، إن جمالها غير منظور. إنها حكمة صديقه الثعلب (الجوهر يخفى عن الأنظار).

ويجد الطيار بئرا فينشغل بأن يشرب الصغير، ويشرب هو. ولكن الأمير يستأنف.. الكبار لا يعلمون أنهم يتهالكون على القطارات السريعة، إنهم يزرعون آلاف الورود ولا يدرون السبب الحقيقى. إن السبب الحقيقى خفى لا يرى بالعين، ولكن يدرك بالقلب.

ويتذكر الأمير المكان الذى سقط فيه من كوكبه على الأرض، ويشعر الطيار بالانقباض. إن أميره الصغير يدبر أمرا. إنه يطلب منه أن يتركه فى هذا المكان، ويعود لإصلاح طائرته على أن يرجع إليه فى مساء الغد. وعند عودة الطيار فى اليوم التالى يجد الأمير معلقا على حائط يتبادل حديثا غريبا مع شخصية غير مرئية. وعندما يقترب يلمح أسفل الحائط ذلك الثعبان الأصفر الذى يقضى على الإنسان فى ثلاثين ثانية. يجرى مسرعا ويلتقط أميره بين ذراعيه، وينبض قلب الأمير كعصفور أصابته طلقة من صياد. يستعيد الأمير ابتسامته، ويبلغ الطيار أنه سعيد لأن صديقه أصلح طائرته، يستطيع إذن أن يعود لبيته، فالأمير الصغير ينوى أيضا العودة. إن لديه الخروف وصندوقا، وكمامة للخروف، ووردته الضعيفة الساذجة تعيش وحيدة قلقة فى كوكبه. وعند المساء سيكون كوكبه فوق هذا المكان تماما، ولكنه لا يستطيع أن يطلع صديقه على موضعه فهو متناهى الصغر وسط آلاف النجوم.

ويستدرك.. ولكن هذا أفضل لأنك ستحب كل النجوم حينما تحاول أن تبحث عنى فى السماء. سأكون فى نجمى الخاص أضحك، وأنت تحب ضحكتى، أنك سترى كل النجوم تضحك.

وتضحك كل النجوم

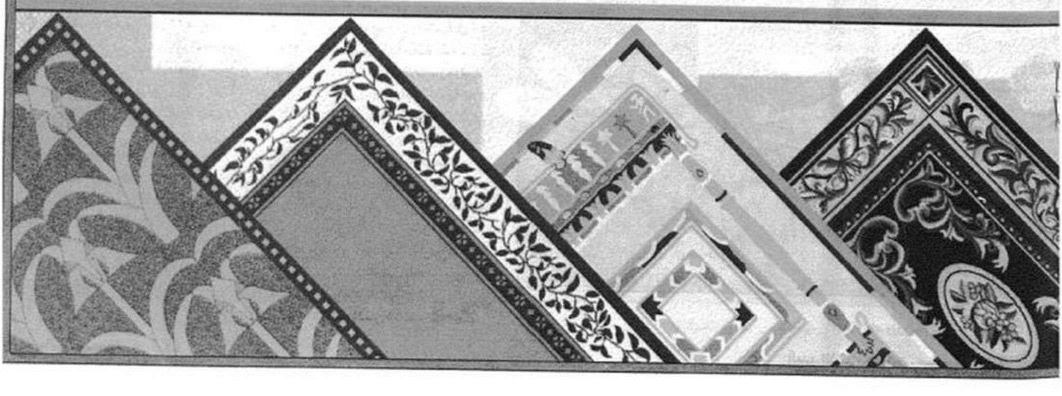
فى المساء ينسحب الأمير الصغير فى هدوء ليلتقى بالثعبان، يلحق به الطيار ولكنه عازم على تحمل مسئوليته ليرحل إلى بيته الحميم، وحبه الوحيد، ولكن جسمه ثقيل لن يرتفع عن الأرض إلا بعضة الثعبان.. ويسقط فى الصحراء بلا ضوضاء.

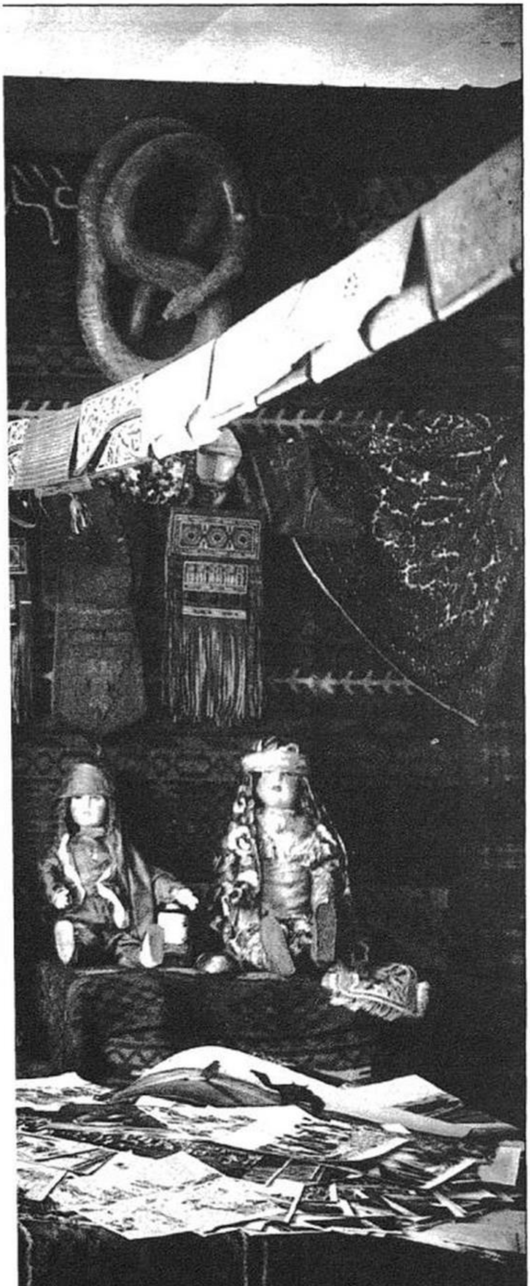
أما الطيار فلا تبقى له سوى الذكريات.. تتردد فى أذنه تارة ضحكة الأمير فتضحك كل النجوم، وتارة بكاء الأمير فيبكى الوجود، ولا يستطيع تفسير هذه الكآبة للكبار، إلا بأنها نوع من الإرهاق.

يرسم (اكزيبرى) آخر صفحة فى كتابه خالية تماما، إلا من نجم معلق فى السماء ويقول لنا.. إذا قمتم بسياحة فى الصحراء الأفريقية أرجوكم ألا تتعجلوا وانتظروا تحت هذا النجم، فإذا ظهر الأمير الصغير لا تتركونى فى كآبتى.. اكتبوا لى إنه عاد.

ورحل (انطوان دى سانت اكزيبرى).. ولم يعد الأمير الصغير، ولا ينتظر أن يعود، فقد بتنا فى زمان يفخر فيه الكبار حينما يقلد الصغار خشونتهم، وغفلتهم، وطغيانهم. ■


متواجد في مراك





«باريس العربية» قرنان من العلاقات

ليلى حافظ

■■ عبر قرنين من الزمن ارتبطت «باريس» العاصمة الفرنسية بالعالم العربى وبالعرب. وخلال القرنين اختلط التاريخ بالسياسة، والسياسة بالمجتمع، والحقائق بالخيال، والاهتمام بالرفض، والرفض بمحاولة للفهم. ولكن من المؤكد أن العربى تواجد وبقوة فى باريس طوال القرنين التاسع عشر والعشرين. هذا الحضور العربى فى باريس دفع خمسة من الصحفيين والمصورين الفرنسيين والعرب لإصدار كتاب مصور بعنوان «باريس العربية»، يأخذ القارئ فى رحلة عبر التاريخ والجغرافيا التى شهدت تلاقى العرب بباريس، ويركز فيه بالكلمة وبالصورة على هذا الجانب من العاصمة الفرنسية، الفكرى والفنى، وأيضًا الاجتماعى والعمرانى، وربما أيضًا السياسى والاقتصادى.

فعبر الكتاب، يسرد تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين للعاصمة الفرنسية، وتاريخ أجيال عربية وفرنسية، وضعها مصيرها فى مفترق الطرق معًا، وعرفت معًا القبول والرفض، والرغبة والعنف، ومن خلال تاريخ المدينة، يتعرف القارئ على التاريخ الذى ربط فرنسا بالعالم العربى والشرق عامة، والدور الذى أرادت فرنسا أن تلعبه فى تلك المنطقة من العالم. فمن باريس تشكل مفهوم «السياسة العربية»، من عهد نابليون بونابرت، إلى جاك شيراك، مرورًا بنابليون الثالث، وبالجنرال ديجول. كما يبرز الكتاب باريس، كعاصمة الإمبراطورية الفرنسية التى بدأت سياستها الاستعمارية فى الجزائر منذ عام ١٨٣٠، وحتى حربها التى أطلقت عليها «حرب بلا اسم»، إلى أن تم استقلال الجزائر وانفصلت عن فرنسا بعد ١٣٠ عامًا، مع كل الآلام التى صحبت هذا الانفصال.

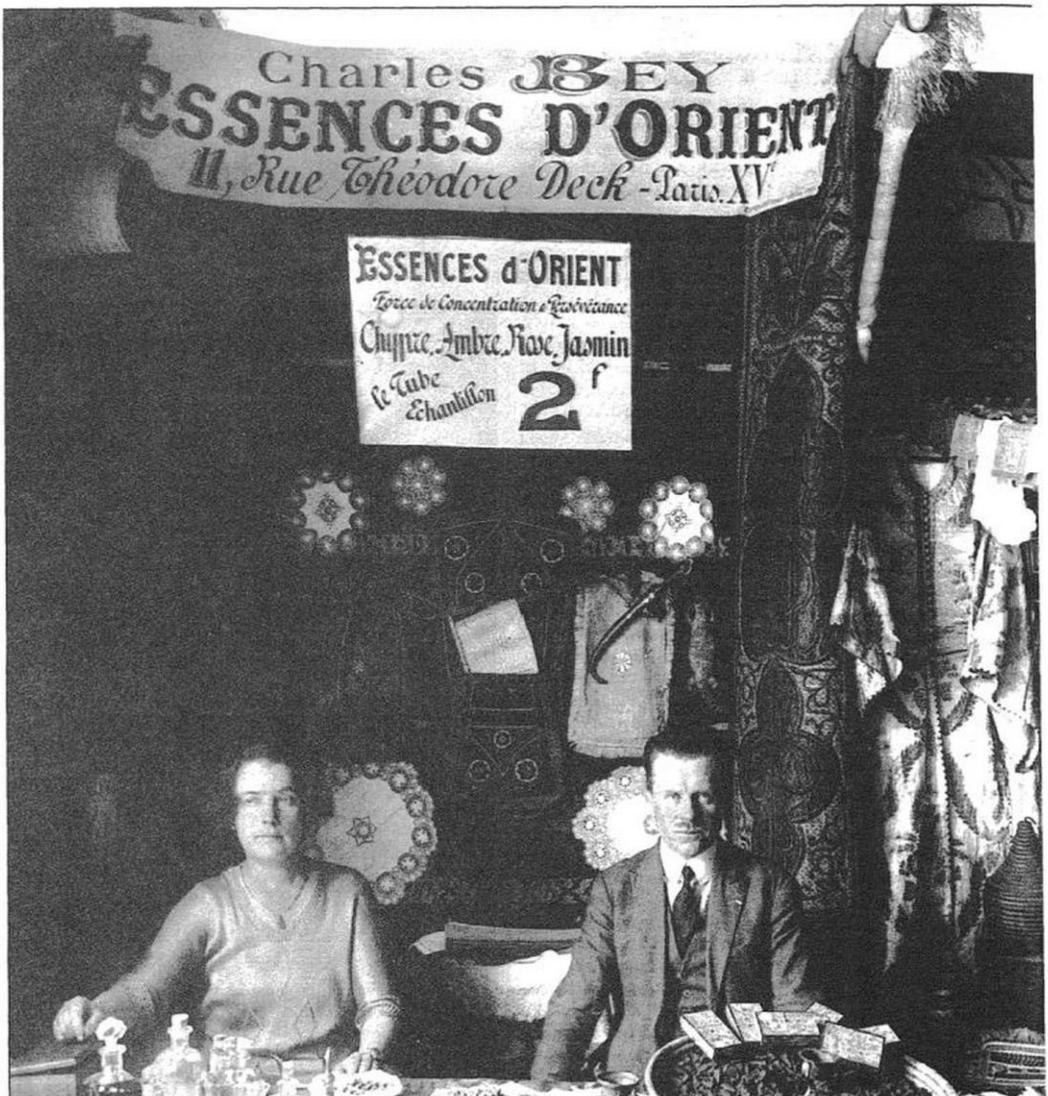
ولكن رغم الحروب والصراعات بين فرنسا والعالم العربى، إلا أن تاريخهما لم يخل من الانبهار الفرنسى بالشرق، فبدأ الاهتمام بالشرق منذ أن ترجمت قصص ألف ليلة وليلة فى عام ١٧٠٤ ومنذ عام ١٧٥٠ اهتمت فرنسا بمصر، حتى قبل نشر أعمال شامبليون، فاهتم المجتمع الأرستقراطى والفنى الفرنسى بالمعابد المصرية والفن الرومانى الموجود فى مصر، ثم لا ينسى الكتاب ذكر عشرات الآلاف من المفكرين والمثقفين العرب، الذين اتخذوا من باريس عاصمة ثقافية لهم، فجاءوا أفواجًا من المغرب العربى ومن مصر ومن المشرق العربى إلى باريس، خلال النصف الأول من القرن العشرين. وخلال تلك الفترة تبلورت علاقة الرفض بين الفرنسيين والعرب فى باريس، فيقول الكتاب إنه منذ عام ١٩٢٥ تشكلت الأسس التى قامت

Le Paris Arabe: 2 Sièdes de présence des Orientaux et des Maghrébins, 1830 - 2003

(باريس العربية: قرنان من الوجود المشرقى والمغربى ١٨٣٠ـ ٢٠٠٣)

de collectif

La Découverte, 2003, 248 Pages, EUR 39.90



فرنسي وزوجته يعرضان منتجات من العطور الشرقية

أم كلثوم خلال حفلة باريس الشهيرة



راقصة شرقية فى العاصمة الفرنسية



عليها مشاعر الرفض، وخلال الثلاثينيات تأججت مشاعر الكراهية تجاه العرب، ومنذ أن اندلعت حروب الاستقلال، تفجر العنف فى باريس بين الجانبين.

مع النصف الثانى من القرن العشرين بدأت العلاقة بين باريس والعرب تأخذ شكلاً آخر تراوح ما بين الحب والكراهية، والرفض والقبول. وطرح على الفرنسى إشكالية الآخر، ووضعه فى موقف اضطر فيه الفرنسى أن يقبل هذا الآخر. ثم دخل الجدل منطقة التساؤلات حول الاندماج العربى فى المجتمع الفرنسى، وتعيين وزير من أصول عربية لتحقيق الاندماج، ثم تشكل المجلس الفرنسى للديانة الإسلامية. وأخيراً، ومع التطورات العالمية تجاه الإسلام، والتعصب الدينى، وحروب الخليج، دخلت العلاقات الفرنسية العربية إلى منحى جديد.

وعبر الكتاب نشر باسكال بلانشار وايريك ديروو وإدريس اليازامى وبيير فورنيه وجيل مانسيرون، أكثر من ٥٠٠ وثيقة وشهادة جماعية لم تنشر من قبل، من بين عشرة آلاف وثيقة تم العثور عليها، وتابعوا مسيرة الأفراد، والأحداث وزاروا الأماكن التى شهدت على تلك الأحداث طوال قرنين من الزمن، قام خلالها القارئ برحلة غير مسبوقة، اعتبرت بمثابة رحلة فى «ألبوم صور عائلية».

تبدأ الرحلة منذ عام ١٨٣٠، وفى هذا الجزء الأول الذى ينتهى فى عام ١٨٧٨، أطلق الكتاب عليه « من المملكة العربية إلى مقهى المور». ففى تلك الفترة التى امتدت ٤٨ عاماً، كانت فرنسا قد عرفت مصر من خلال حملة نابليون واستمر تأثير تلك الحملة على الباريسيين عبر القرن التاسع عشر ومن خلال الهدايا التى قدمها محمد على إلى فرنسا، والتى أصبح بعضها من أبرز الآثار التى تتميز بها باريس، مثل المسلة المصرية فى أهم ميادينها ميدان الكونكورد، والغزال الذى أهدى إلى الملك الفرنسى ووضع فى حديقة النباتات وكان قبلة لآلاف الزوار، بالإضافة إلى كل الآثار التى شكلت جزءاً كبيراً ومهماً من متحف اللوفر. ثم فى عام ١٨٢٨ نشر الأديب الكبير فيكتور هوجو كتابه «الشرقيات»، والذى سجل بداية موجة جديدة أكثر تعاطفاً مع الشرق والغرب.

وتمثل تلك الفترة بداية الاستعمار الفرنسى للجزائر، فى عام ١٨٣٠، وبداية سيطرة فرنسا على شمال أفريقيا، واستسلام عبد القادر المناضل الجزائرى فى عام ١٨٤٧ ثم تدفق العائلات الفرنسية إلى الجزائر للإقامة والاستيطان.

فى تلك الفترة اختلط فيها الانبهار الباريسى بالتاريخ والفن المصرى والعربى، مع الاستعمار والعنف والحروب فى شمال أفريقيا وفى سوريا، مع الفكر والثقافة الفرنسية التى انبهر بها المفكرون المصريون بصفة خاصة،

مثل رفاعة الطهطاوى، الذى جاء إلى باريس فى عام ١٨٢٦، إماماً لمجموعة من الطلاب. وفى عام ١٨٤٦ فتحت فى باريس سفارة لتونس، يرأسها أحمد بيه، ولى العهد، وسكرتيره أحمد بن أبى ضياف، وخير الدين اللذان سيكون لهما شأن فى تاريخ تونس الحديث عن طريق المطالبة بإقامة نظام الملكية الدستورية. هؤلاء وغيرهم تأثروا كثيراً بباريس الثقافية والسياسية، واعتبروا وجودهم فيها مرحلة مهمة فى تاريخ اكتشافهم للغرب، مثل الكاتب اللبنانى الكبير أحمد فارس الشدياق الذى أسلم وترجم الإنجيل إلى العربية، وأقام فى باريس، فاتخذها مركزاً له حيث أصدر، مثل رفاعة الطهطاوى، جريدة باللغة العربية. وفى باريس تعرف على لامارتين وعلى الأمير عبد القادر، ونشر روايته الهزلية «ساق على ساق» التى كانت بمثابة سيرة ذاتية يحكى فيها عن شخصية ترحل عبر الشرق والغرب وينتقد فيه رجال الدين والسياسة فى الشرق وفى الغرب.

وهكذا، وفى فترة الإمبراطورية الثانية، تحولت باريس لتكون مسرحاً متميزاً للصحافة العربية، ومع صحف مثل «المبشر» و«المشترى» اللبنانية، بدأت دار نشر لاهاشيت تنشر كتباً باللغة العربية. ولكن تلك الصحف لم تكن تهم الباريسيين كثيراً، بل ما أثار اهتمامهم هو المعرض الدولى فى عام ١٨٥٥ الذى قدم إلى المواطن الفرنسى نكهة شرقية من روائع الشرق، فأقيم على ضفة نهر السين معرض عن الجزائر، عرض فيه كل منتجات الجزائر الشرقية من جلد النمور والأسود إلى أشجار النخيل الطويلة. كما أقيم فى المعرض فندق مصرى بكل ما فيه من متاجر ومقاه ومطاعم مصرية. واهتم المستشرقون بالأجنحة الشرقية فى المعرض، وخاصة الجناح المصرى الذى عرض فيه أيضاً خريطة مجسمة لقناة السويس وخريطة كاملة لمصر.

ولكن التأثر بالشرقيات وبالفن والمعمار العربى لم ينته مع انتهاء المعرض، بل استمر، خاصة مع الاحتفال بافتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩، ورحلة الإمبراطورة يوجينى إلى مصر، مما أثر على الفن والموضة فى الملابس الباريسية والمأكل والمشرب، وأيضاً فى المعمار. فضم منزل الكاتب الكبير فيكتور هوجو ملحقاً صمم على الطراز الشرقى. كما انتشرت الأرائك والنرجيلة حتى فى منازل البسطاء.

واستمر الاهتمام بالعرب والمسلمين طوال القرن التاسع عشر، فلم يكن يمضى عام إلا وكانت باريس شاهداً على معرض عربى أو كتاب رحلات إلى الشرق مثل كتب شاتوبريان ولامارتين ثم فلوبير ونيرفال، وبدأ الفنانون والمصورون أيضاً يتأثرون برحلاتهم إلى دول شمال أفريقيا، مثل ديلاكروا الذى زار المغرب فى عام ١٨٣٢ وقدم لوحات كثيرة مستوحاة من تلك الرحلات.

باريس تتعرف على العرب القادمين:

خلال تلك الفترة بدأت تتكون فى باريس نواة المجتمع العربى، فجاءت مجموعة من العرب ليقيموا فى باريس، ولقد انعكس ذلك على بناء مربع عربى فى مدافن بير لاشاز، فى عام ١٨٥٥ ثم بناء مسجد فى العام التالى داخل المدافن. وفى نفس الوقت تدفق المفكرون والطلاب من الدول العربية بالأخص من مصر إلى باريس.

ولكن أكثر ما أثر فى باريس هو التقاؤها مع الأمير عبد القادر، المناضل الجزائرى الكبير الذى جاء إلى باريس فى طريقه إلى المنفى فى سوريا، بعد أن منحه نابليون الثالث حريته. وفى باريس استقبل عبد القادر بحفاوة كبيرة، ففى دار الأوبرا، استقبل نابليون الثالث الأمير عبد القادر بالأحضان أمام جميع الحاضرين، وتفجرت الصالة بتصفيق حاد، وخلال أسبوعين أمضاهما الأمير عبد القادر فى باريس، كانت شعبيته فى تصاعد مستمر، وقام بزيارة الكنائس، نوتردام والمادلين، ليؤكد سماحة الإسلام. وحتى فى ذلك الوقت، فى عام ١٨٦٧ أثبت عبد القادر أن الإسلام والمنطق لا يتعارضان.

ولكن باريس لم تتعرف فقط على المفكرين والمثقفين والقادة والمناضلين من العرب، ولكن كان لها أيضاً موعد مع رجال الصحراء، الطوارق الذين حضروا إلى باريس فى عام ١٨٦٢، فكان للزيارة أثر كبير فى تصور الباريسيين لأهل الصحراء والقصص والأساطير التى كانت تحاك حولهم. ففى يونية عام ١٨٦٢ استقبلت باريس ثلاثة من زعماء الصحراء الجزائرية وكتبت الصحف تصف ملابسهم «سراويلهم الواسعة، وطرابيشهم الضخمة وعصيهم وسيوفهم».

كما تعرفت باريس أيضاً على المحاربين الجزائريين الذين حاربوا فى صفوف الجيش الفرنسى فى الحرب بين فرنسا وروسيا عام ١٨٧٠ فكان محمد بن دريس اللوفتانت فى الفرقة الثالثة الذى أصيب فى المعارك.

استهل الكتاب الفترة التالية والتى تأخذ القارئ من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٢، بالمعرض الدولى الذى نظم عام ١٨٨٩ والذى كانت أهم نقطة جذب فيه هى برج إيفل. ولكن يقول الكتاب إن المعرض الدولى هذا العام كان له، مثل معرض عام ١٨٧٨، نقطة جذب أخرى هى شارع «لوكير» (القاهرة) الذى افتتح فى هذا العام تجسيداً لفكرة من خيال الكونت الفرنسى ديلور دى جليون، الذى استقر فى مصر لفترة ما، وقرر أن يهدى الباريسيين تصوراً خيالياً من أحد شوارع القاهرة، واستنسخ منازل هذا الشارع ومئذنة جامع من القاهرة. وكتبت صحيفة المعرض تقول «نحن فى القاهرة». ولكن شارع لوكير بدأ يتخذ شكلاً شرقياً بعد أن افتتحت فيه المقاهى واستقبلت الراقصات الشرقيات القادمات من بلاد شمال أفريقيا، واستمر إلى أن انتهى المعرض وأغلق الشارع، ولكن الراقصات استمررن فى عرض فنهن فى أنحاء باريس. ولقد أدى ذلك إلى نشر صورة سيئة عن العرب فصورهم البعض بأن نساءهم راقصات وسيدات خليعات (صورة ٦). وفى مجلات مثل «لو بوتى جورنال» (صورة ٤) تظهر فرنسا تجلس على العرش وتحت الصورة عنوان يقول: (إخلاص «فرنسا الأخرى») فى عام ١٩٠٧.

ومع نهاية القرن التاسع عشر، وسقوط مصر تحت الاحتلال البريطانى، اتجه رجال الأعمال والمال إلى بريطانيا، ولكن جامعات باريس ظلت مفتوحة لتستقبل المفكرين والمثقفين المصريين والعرب. فكأن باريس كانت على موعد مع المثقفين العرب فى تلك الفترة، فجاءوا وأصدروا صحفاً ومجلات تنقل إلى باريس هموم العرب. إذ شهدت فى عصر واحد حضور جمال الدين الأفغانى مع محمد عبده، فأصدروا معاً بالعربية مجلة أصبح مقرها، فى شارع سيز، قبلة لكل المثقفين العرب والمستشرقين والأتراك والإيرانيين. وفى نفس الفترة جاء جيمس سانوا، منفياً من مصر وأصدر مجلة هزلية بعنوان «أبو نضارة زرقة»، وأطلق على نفسه اسماً مستعاراً «أبو نضارة»، واستطاع أن يوزع الصحيفة فى مصر رغم الحظر.

وتتوالى أسماء المثقفين العرب والمصريين الذين حضروا إلى باريس سواء كمنفى أو للتعليم، مثل اللبنانى شكيب أرسلان الذى كان صديقاً للشاعر أحمد شوقى، وخليل جبران قبل أن يستقر فى الولايات المتحدة، وشكرى غانم اللبنانى المارونى، وطه حسين، الذى كتب الكثير من كتبه ورواياته مستوحاة من باريس والحياة فى فرنسا، وترجم كتابه «الأيام» إلى الفرنسية وكتب مقدمته أندريه جيد.

ولكن تظل باريس تنظر إلى العرب نظرات لا يتخللها فقط الكثير من الانبهار ولكن أيضاً الخوف. ففى المعرض الدولى بباريس الذى افتتح فى عام ١٩٠٧، لم يتردد المنظمون أن يعرضوا صوراً للمعارك التى قام بها الطوارق ضد الفرنسيين، وتصور لبعض الطوارق على الجمال يمثلون المعركة ويهاجمون مواطناً (صورة ٧) فى حديقة باريسية حديقة فانسان. أو تصور هزلى للجانبين العربى والفرنسى فى إحدى الألعاب «الدامة». وتظل صورة العربى تظهر بشكل هزلى حتى عام ١٩٠٧ عندما تبدأ الأزمة بين فرنسا

مؤذن مسلم فى عاصمة النور



أسرة من المهاجرين العرب الأوائل فى فرنسا



وألمانيا وتستعين فرنسا بالعسكريين المغاربة ليحاربوا فى صفوف الجيش الفرنسى، وتصدر ملصقاً بعنوان «ما ندين به إلى المستعمرات». ثم الحرب العالمية الأولى واشتراك جيش المستعمرات فى الحرب للدفاع عن فرنسا وهم فى الصورة فى طريقهم إلى الجبهة. ففى الحرب ضد ألمانيا كانت مخاوف فرنسا تتركز على احتمالات أن تثير المعارك التى تجرى على الجبهة الشمالية النوازع الوطنية فى دول شمال أفريقيا، فقامت فرنسا بحملة دعاية كبيرة فى تلك المنطقة لتصور الحرب ضد ألمانيا وحليفتها تركيا، وكأنها حرب ضد الإمبراطورية العثمانية التى مارست سياسة قمعية ضد الشعوب العربية الإسلامية.

وفى الفترة التى امتدت من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩٢٦، كانت باريس فى قلب العالم خاصة فى عام ١٩١٨ حيث عقد مؤتمر السلام فى فيرساى، وأصبحت باريس عاصمة أمل الشعوب المقهورة فى التحرر وفى السلام، شهدت حضور وفود عربية وشخصيات كبيرة مثل الأمير فيصل ابن شريف مكة، جاء لكى يطالب بدولة عربية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية (صورة لأحد أعضاء الوفود العربية) كما شهدت حضور لورانس العرب يرتدى الزى العربى الذى جاء يساند الأمير فيصل ولكن القوى الكبرى فى ذلك الحين وأدت الحلم العربى وكتب يقول إن تلك الأيام التى قضاها فى باريس كانت الأسوأ له وللأمير فيصل.

ولكن تلك الفترة كانت أيضاً تلك التى شهدت فيها باريس بداية الوجود الإسلامى، فتم بناء مسجد باريس الكبير فى ١٥ يولية عام ١٩٢٦ وبحضور سلطان المغرب مولاى يوسف، وافتتح مسجد باريس بحضور الرئيس الفرنسى جاستون دوميرج الذى أكد فى كلمته أن الجمهورية الفرنسية تحمى كل المعتقدات الدينية وأكد احترامها لكل من يؤمن بها وتضمن له الحماية والمساواة، مؤكداً أن تلك السياسة هى الدليل الأساسى للديمقراطية الفرنسية. وفى كلمته قال الجنرال لوايوتيه «عندما تمتد المئذنة إلى سماء باريس، فسوف ترسل صلاة جديدة، لن تشعر أبراج كنيسة نوتردام الكاثوليكية بالغيرة منها». واعتبر بناء مسجد إسلامى فى قلب باريس بمثابة نقطة تحول تاريخية، فلقد سجلت دخول الدين الإسلامى رسمياً فى الجمهورية الفرنسية، ولكن ذلك بدون



صورة هزلية فرنسية للعرب

أن تتخلى الجمهورية عن سيطرتها على حياة المسلمين داخلها.

لم تكن باريس فقط المدينة التى احتوت المسلمين رغم مخاوفها منهم، ولكنها أيضاً كانت تلك التى احتوت المقاومة المغربية رغم أن المقاومة كانت ضد الاستعمار الفرنسى. ولكن فى باريس فى الفترة ما بين الحربين العالميتين التقت المقاومة المغربية وتعرفت على المجتمع الفرنسى الذى عقدت معه روابط متينة. فنشأت منظمة «تونس الضحية»، وأقام الأمير خالد ابن الأمير عبد القادر الجزائرى روابط قوية مع العمال الجزائريين فى باريس واستمر فى نضاله إلى أن طرد من باريس، وفى عام ١٩٢٦ قام ميسالى حاج بتكوين «نجمة شمال أفريقيا»، وتم تكوين «اتحاد العلماء»، ثم «اتحاد الطلبة المسلمين من شمال أفريقيا»، وأقامت تلك الجمعيات والمنظمات السرية روابطها مع اليسار واليسار المتطرف فى فرنسا. وفد من شمال أفريقيا يشارك فى مظاهرة نظمتها الجبهة الشعبية فى فرنسا عام ١٩٣٦، وبعد ٢٥ عاماً تشهد شوارع باريس مظاهرات أخرى يشارك فيها الجزائريون المقيمون فى باريس احتفالاً بالاستقلال.

ولكن الاستقلال بالنسبة لحشود الجزائريين الذين زحفوا على باريس للإقامة فى الدولة التى استعمرتهم طوال ١٣٠ عاماً، لم يكن يحمل أية أحلام وردية ففى ضاحية نانتير بباريس عاشت العائلات الجزائرية فى أسوأ الظروف وفى منازل مثل المخيمات، وحتى السبعينيات من القرن العشرين لم تتحسن أحوال المهاجرين من شمال أفريقيا، هؤلاء الذين عاشوا على هامش المجتمع لا يعرف المجتمع الفرنسى عنهم شيئاً كثيراً، ولكن ظل تحت رقابة دائمة من البوليس الفرنسى، فمن تلك الأحياء الفقيرة التى تعانى من البطالة خرجت أعمال العنف والعصابات.

قد تكون تلك الأعمال هى التى غذت مشاعر العنصرية ضد العرب من أصول مغربية، فقد شهدت باريس فى السبعينيات تزايداً كبيراً فى مشاعر العنصرية تجاه الجالية العربية، وكانت أحداث مقتل جلالى بن على بيد بواب إحدى العمارات، ومقتل محمد دياب فى مقر البوليس فى فيرساى فى عام ١٩٧٢ ما فجر مشاعر الغضب لدى الجالية العربية فى باريس، فخرجت فى مظاهرات للاحتجاج ضد العنصرية ومقتل مواطنيهم. ولكن المسائل تطورت وتزايدت أعمال العنف ضد العرب الباريسيين خاصة من جانب أعضاء الجبهة الوطنية، اليمين المتطرف. وكانت تلك النزعة الجديدة القديمة هى التى دفعت العرب من الجيل الثانى إلى أن يخرج من صمته ويبدأ فى المطالبة بحقه فى المساواة فى الحقوق.

وفى ديسمبر عام ١٩٨٣، شهدت باريس «مسيرة البور، العرب من أصول مغربية، من الجيل الثانى الذين تظاهروا، ليس من أجل الاستقلال كما فعل آباؤهم قبل عشرين عاماً، ولكن من أجل الاندماج فى المجتمع الفرنسى. حيث ظهر هذا الملصق يقول «من أجل المساواة وضد العنصرية.. مائة ألف شخص يوم ٣ ديسمبر فى باريس» فى ميدان الباستيل. وفى مسيرة ثانية من أجل المساواة، عبرت البلاد كلها إلى أن وصلت إلى باريس فى ديسمبر عام ١٩٨٤، وفى هذا الوقت نشأت منظمة «اس أو اس» العنصرية ومعها بدأ يتشكل جيل جديد من العرب أبناء المهاجرين.

من هذا الجيل ولدت موجة جديدة عنصرية ضد الإسلام بدأت فى التسعينيات مع ظهور أول بوادر للحجاب الإسلامى، ولكن الإسلام تطور خلال التسعينيات، وبدأت المساجد تتزايد فى أنحاء المدينة، كما تزايد عدد الممارسين للشعائر الدينية فى العاصمة الفرنسية). ومع ظهور بوادر العمليات الإرهابية مع الانفجارين ١٩٨٦ ثم فى عام ١٩٩٤ فى محطتى المترو سان ميشيل والايتوال، تفجرت المخاوف بين المواطنين بما لم يشهد لها مثيل من قبل، واتجهت العيون إلى منطقة الشرق الأوسط، تبحث فيها عن مصدر تلك الأعمال.

ولكن ذلك لم يمنع العرب من أن يعتبروا باريس نقطة الالتقاء، خاصة بالنسبة للفلسطينيين. فبالنسبة لهم باريس هى أكثر العواصم الأوروبية مؤهلة لأن تلعب دور الوسيط بين الأطراف المعنية كلها. وباريس هى بالنسبة للعرب الصوت المعتدل الوحيد الذى يسمعونه خاصة بعد حرب الخليج الثانية. وهى باريس التى اعتبرها العرب من الخليج إلى المحيط، الصديق الذى يساندهم وقت الأزمات.

باريس المقاومة وباريس المحتل السابق، وباريس الثقافة والفكر والمقاومة ضد التهميش والعنصرية، هى أيضاً بالنسبة للعرب باريس الفن والموسيقى. فمن قلب باريس شدت أم كلثوم، وتعرف الباريسيون على صوتها الرائع ورغم ذلك لم يتعرف الباريسيون بعد فى تلك الفترة، فى السبعينيات، على الموسيقى العربية بشكلها العام، فلقد ظلت الموسيقى والمطربون المغاربة والجزائريون داخل دائرة مستمعيهم من الجاليات العربية المغربية. أما الأفلام الجزائرية والمسرحيات العربية مثل مسرحية «محمد يأخذ حقيبته» للكاتب قاطب ياسين، فقد بدأت تجد طريقها إلى المسرح الباريسى. ولم تتعرف باريس فعلاً على الموسيقى الجزائرية والمغربية إلا فى التسعينيات رشيد طه وفلوديل وخالد، فى الحفل الموسيقى فى قلب باريس عام ١٩٩٨.

ومع تلاقى الفنون، تلاقت أيضاً الرياضة بين باريس والعرب، وفى قلب باريس تصدرت صورة زين الدين زيدان على قوس النصر فى شارع الشانزليزيه بعد أن حصلت فرنسا على كأس العالم فى كرة القدم.

تظل باريس بالنسبة للعرب، منذ قرنين من الزمن، محطة مهمة فى تاريخهم، كما ظل العرب بالنسبة لباريس معضلة لم تصل بعد إلى أن تتحقق من مشاعرها الحقيقية تجاههم، هل هى مشاعر كراهية أم حب؟ عنصرية أم اندماج؟ فهم أم تجاهل؟ ■


اتكلم دولي
ووفر أكتر
150
عاما
في خدمة مصر



من وبــاء ١٩١٨ إلى أنفلــونزا الطيــور

لا يكاد يمر عام دون ظهور سلالة جديدة من الأنفلونزا فى إحدى مناطق العالم بعضها يوقع مئات الضحايا والبعض الآخر يمر بقليل من الأضرار. وخلال الشهور القليلة الماضية ظهر فيروس أنفلونزا الطيور بجنوب شرق آسيا مما أوقع عشرات الضحايا من البشر. وسر خطورة هذا الفيروس هو قدرته على الانتقال مباشرة من الدواجن إلى البشر.

إن كثيرًا من العلماء يعتقدون أن فيروسات الأنفلونزا جاءت من الطيور لكنهم يقولون إن الفيروس يجب أن ينتقل من الطيور إلى الخنازير كي يسبب أوبئة بشرية حيث تبدأ التغيرات الجينية التى تجعل السلالة تصيب البشر والحيوانات.

ويعيد فيروس أنفلونزا الطيور الحالى إلى الأذهان وباء الأنفلونزا الذى ضرب العالم عام ١٩١٨، وكان الأشد فتكًا (٣٠ مليون قتيل). وقد وجد الباحثون الأمريكيون والبريطانيون أن أنفلونزا ١٩١٨ كانت أقرب إلى أنفلونزا الطيور، مما كان يعتقد من قبل وأشار العلماء فى بحث نشرته مجلة «ساينس» العلمية الشهر الماضى إلى أنه ليس معروفًا حتى الآن بشكل دقيق سر شراسة أنفلونزا ١٩١٨، لكنهم أعربوا عن أملهم فى أن يساهم هذا البحث فى حل «اللغز القاتل» حتى يستطيع العلماء التعامل مع سلالات الأنفلونزا الأخرى القادمة.

مجلة «وجهات نظر» تنشر تقريرًا يلقى مزيدًا من الضوء حول أنفلونزا الطيور وتحديدًا فيروس ١٩١٨ القاتل وملابساته.

المحرر

ترجمة: أحمد خالد توفيق

بترتيب خاص مع مجلة ديسكفر الأمريكية

باتريشيا جاتسبى

في عام ١٩١٨ حصد الموت نحو ٣٠ مليونًا من البشر بعد أن تمكن وباء الأنفلونزا من أن يلتف حول الكرة الأرضية فى عناق مميت. ولم تكن تلك المأساة هي الأخيرة وإن كانت بالتأكيد الأشد ضراوة فى التاريخ البشرى الحديث.

فى ذروة كارثة وباء الطيور فى هونج كونج الذى انتشر فى كريسماس ١٩٩٧، ثمة لحظة لن ينساها كنيدى شورتردج أبداً. كان (شورتردج) عالم فيروسات أسترالياً اعتاد لمدة ٢٧ عاماً أن يعتبر هونج كونج وطنه، وكان فى سوق دواجن تشونج شاوان للجملة مع فريق يفحص الدواجن، بحثاً عن فيروس أنفلونزا الطيور الذى يطلق عليه H5N1 والذى يمكنه الانتقال مباشرة من الدواجن إلى البشر. وقد فتك الفيروس فى البداية بآلاف الدواجن فى المزارع الواقعة على حدود جنوب الصين قبل أن يتراجع. وفى مايو عام ١٩٩٧ فتك بأولى ضحاياه من البشر، وهو صبى فى الثالثة من عمره كانت حضانته تحتفظ ببعض الكتاكيت والبط الصغير. ثم واصل الفيروس انتشاره بين البشر وهنا عرف (شورتردج) أن التخلص من الطيور صار واجباً.

بعد كل تلك الأعوام من مسح الأنفلونزا، لم ير شورتردج قط شيئاً كهذا. ليس من العسير أن تعرف الدجاجة المريضة، لكن هذه الدجاجة كانت تقف فى قفصها الخشبى، وتبدو طبيعية تماماً. ثم فجأة وببساطة شديدة سقطت على الأرض، ورأى شورتردج الدم يخرج من مذرقها، أى فتحة الشرج. فتساءل: «هل ما نراه هو داء (إيبولا) يصيب الدجاج ؟».

وكان يقصد بالايبولا التعبير عن هذه الميتة الدامية السريعة التى لا تصدق. «فى هذا السوق كان الدجاج يموت أمام عيوننا.. فهل نحن مقبلون على رؤية تغير فى الفيروس؟.. هل سنرى انتشار الفيروس عبر أسواق هونج كونج؟».

يمكن للمرء أن يرتاح لفكرة أنه ما بقى H5N1 فيروس طيور غير متطور، وبالتالى فإن فرصته فى الانتقال للناس من حين لآخر تظل محدودة. لكن ماذا لو تحول H5N1 إلى صورة يناسبها البشر أكثر ؟. وماذا لو ارتبط بأنفلونزا البشر فى زواج غير مقدس، وخلق سلالة تنتقل بسهولة ؟. وانتقل من شخص لآخر عبر السعال والعطس ؟.. يقول شورتردج: «هذا لم يحدث قط فى التاريخ، وإنه لاحتمال مخيف..».

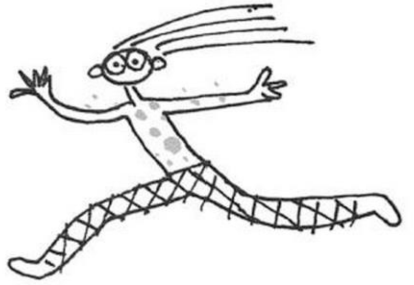
طيلة عطلة الكريسماس تلك، ظل شورتريدج وزملاؤه فى مستشفى (كوين مارى) يواصلون الاختبارات. كان خمس عينة الدجاج مصاباً بالفيروس H5N1 وفى ٢٩ ديسمبر. قبل أن تكتمل الأبحاث .بدأت الحكومة بصرامة فى إجراءات ذبح كل الدجاج الموجود فى السوق والمزارع، وهو ما يربو على المليون طائر، ثم بدأت عملية تطهير المخازن المغلقة. وجاء أول العام الصينى ورحل، دون أن يتم الاحتفال به بأطباق السمك والدواجن التقليدية. لم تعد هناك حالات بشر مصابين بفيروس H5N1 ومضت الأشهر وبدا أن الأزمة فى هونج كونج تبدو أقل أهمية. لكن (روبرت وبستر). وهو عالم فيروسات فى مستشفى (سانت جوداس) لأبحاث الأطفال فى ممفيس. يعترض تماماً على ذلك قائلاً:

«لو كان هذا الفيروس قد تكيف على البشر، لكان نصف البشر فى العالم قد هلكوا الآن.. وكنا سننتظر الوباء الشامل التالى».

لقد مرت بعالمنا ثلاثة أوبئة أنفلونزا شاملة خلال القرن العشرين. أسوأها حتى الآن هو ما يطلق عليه الأنفلونزا الأسبانية عام ١٩١٨. فقد أصيب كل فرد على ظهر الأرض تقريباً بالوباء، وهلك ثلاثون مليوناً، وهم أكثر بكثير من قتلى الحرب العالمية الأولى. أما الأنفلونزا الأسيوية عام ١٩٥٧ فقد قتلت سبعين ألف أمريكى (أرقام باقى العالم غير معروفة)، وقتلت أنفلونزا هونج كونج عام ١٩٦٨ ستة وثلاثين ألفاً. وعلى قدر ما نعلم فإن أوبئة الأنفلونزا الشاملة هذه والأوبئة المحدودة التى تحدث بعدها كأنها توابع الزلازل، تسببها طبيعة الفيروس المتغيرة. تحدث الأوبئة المحدودة من انحراف جينى: تحولات طفيفة تكفى فحسب كى يتسلل الوباء إلى الجهاز المناعى لبضعة أفراد، بينما الوباء الشامل يتضمن انحرافاً مزلزلاً. تبدلات جينية كبيرة إلى حد أنها تجعل الجميع عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم. لكن يبقى هنا حشد من الأسئلة: من أين تأتى هذه الفيروسات القادرة على إحداث أوبئة شاملة ؟.. ماذا يجعلها بهذه الشراسة ؟.. هل نجونا بمعجزة فى هونج كونج ؟ هل هى مجرد مسألة وقت قبل ان نواجه وباءً كوباء عام ١٩١٨ ؟؟

ينتمى فيروس الأنفلونزا لإحدى ثلاث عائلات تسمى أنفلونزا A وB وC الأوبئة الشاملة تميز فيروسات النوع A (مجموعة ينتمى لها فيروس هونج كونج). وككل فيروسات الأنفلونزا تستعمل حمض RNA الوراثى أحادى الخيط كمادة المورثات، وترتكب أخطاء أثناء نسخ نفسها، لهذا تتغير الفيروسات خطوة بخطوة، وتنحرف عن شكلها الأصلى. والتغيرات الأهم تتم فى بروتينات السطح الشائك التى تستعملها لتصيب بالعدوى الجهاز التنفسى للإنسان (بروتين يدعى مولد التجلط H والنيورامينيديز N).

لكن النوع A من الفيروسات غريب



... ومن الدجاج ما قتل!

الأطوار: إن حمض RNA الخاص به يأتى فى ثمانية أجزاء. فلو هاجم فيروسان مختلفان من النوع A نفس الخلية، فإن بوسعهما خلط القطع الجينية كأنها أوراق اللعب على منضدة. إعادة التصنيف هذه قد تخلق أنواعاً فرعية من الفيروس تحتشد فيها مواد وراثية لم يعتدها أى نظام مناعى، مع جينات ترمز لبروتينات من نوعى H وN جديدة تماماً، وربما بروتينات أخرى كذلك.

فى نهاية الستينيات بدأ الباحثون فى الأنفلونزا يفهمون أن إعادة التصنيف reassortment كانت هى سبب التحولات المفاجئة التى تسبب الأوبئة الشاملة. وبدءوا يستوعبون حقيقة أن الحيوانات هى على الأرجح مصدر الجينات الجديدة الخطرة.

لكن أية حيوانات ؟.. من المعروف منذ زمن أن الخنازير البيتية تصاب بالأنفلونزا. وفى كل خريف منذ عام ١٩١٨ كانت خنازير الولايات المتحدة تصاب بأنفلونزا الخنازير النمطية، والتى يسببها الفيروس H1N1 وهو قريب لفيروس ١٩١٨ البشرى (تصنيف الفيروسات يقوم بترقيم الفيروس حسب جينات مولد التجلط والنيوراميديز). لكن فيروس عام ١٩٦٨ فى هونج كونج كان يحوى مولد تجلط ينتمى لا إلى الخنازير بل الطيور. وعندما احتدم هذا الوباء صار (ويستر) جزءاً من فريق مسح عالمى يبحث عن مستودعات الأنفلونزا فى العالم. وعن طريق تحليل فيروسات الأنفلونزا فى الحيوانات، راح الباحثون يأملون فى العثور على مصدر الجينات التى اختلطت بأنفلونزا الإنسان، لتخلق هذه السلالات المخيفة المميتة.

وفى السبعينيات وأوائل الثمانينيات، جمع (روبرت ويستر) وزملاؤه فى مستشفى «سانت جوداس» أدلة كافية تلقى بالمسئولية على الطيور، ففى ممفيس وجد ويستر فيروسات الأنفلونزا فى البط العائد من كندا فى الخريف، وفى كندا وجد أن ٢٥٪ من البط الذى فقس حديثاً لديه فيروس الأنفلونزا. ووجد فيروسات أكثر فى الإوز والنوارس وطيور الشاطئ التى تهاجر كل ربيع بين شمال وجنوب أمريكا.

ويقول (ويستر): «إنه يمكنك أن تجد هذه الفيروسات أينما نظرت إلى طيور الماء المهاجرة».

وبينما يصاب البشر بالعدوى من استنشاق الفيروس، فإن طيور الماء تصاب عن طريق البراز - الفم. إنها تسكب كميات هائلة من الفيروس فى برازها، ومما يثير العجب ان الفيروس يمر من طير لآخر دون أن يسبب المرض.

.ويستطرد قائلاً: «هذه الطيور تحوى خمسة عشر نوعاً من فيروسات الأنفلونزا A.. لكنها لا تمرض».

إن تنوع الفيروسات فى هذه الطيور يشير إلى تاريخ مشترك طويل من الارتقاء. بالإضافة لهذا يبدو أن الجينات فى فيروسات الطيور تلك متوقفة عن التطور، ومتكيفة تماماً مع عائلها بحيث لا تقدم لها التحولات الجديدة أية مزية، ولهذا لا تشجعها. يواصل (ويستر):

«هذا فى حد ذاته يؤكد لى أننا وجدنا المستودع الرئيس للفيروس. إن الفيروسات لا تكسب الكثير من قتل عائلها، وحين يكون لفيروس تاريخ طويل فى حيوان ما، فمعنى هذا أنه وصل إلى معاهدة سلام مع الجهاز المناعى للحيوان، فلا يسبب إلا مرضاً طفيفاً».

تأتى المشكلة حين يصل الفيروس إلى الطيور المدجنة مثل الدجاج والديك الرومى وهى طيور لم يتكيف عليها.. هنا ينتزع الفرامل التى توقف تطوره. وتصيب الفيروسات عائلها الجديد بالمرض فتستجيب الأنظمة المناعية ومن ثم يتحول الفيروس لتفادى النظام المناعى. ربما يقتل عائله كذلك.

وقد حدث فى التسعينيات، على سبيل المثال، أن ظهر وباء عنيف فى الدجاج المكسيكى، وتم تتبعه إلى سلالة أنفلونزا تشبه تماماً تلك التى تصيب طيور الشاطئ من دون أن تؤذيها. وتسببت أوبئة الأنفلونزا كذلك فى خسائر ضخمة فى مزارع الدواجن فى الولايات المتحدة، أكثرها يحتشد حول مسار طيور الماء المهاجرة. يمكن أن تبلغ المشكلة المدن كذلك. ففى ديسمبر عام ١٩٩٧ وبينما كانت هونج كونج تعانى الفيروس H5N1 كانت (نيويورك) تغلق وتنظف أسواق طيورها مؤقتاً، بسبب انتشار فيروس طيور آخر هو H7N2 إن فيروسات H7 مثلها مثل H5 مشهورة بتحولها إلى طواعين دجاج مخيفة. إن الموظفين فى نيويورك يصرحون بسرعة أن H7 لم يسبب قط تهديداً للبشر. لكن نفس الشىء قيل بالطبع عن H5 حتى العام الماضى: حين حدث ما حدث فى هونج كونج.

و يقول (إدوين د. كيلبورن) عضو لجنة التخطيط للأوبئة بالمعهد القومى الأمريكى للصحة:

«أنا الآن أشعر بالخطورة أكثر مما كنت قبل موضوع هونج كونج. لقد رأينا ما يستطيع فيروس طيور أن يفعله».

كانت هناك أدلة منذ وبائى عامى ١٩٥٧ و١٩٦٨ على أن الأنفلونزا الوبائية تسببها الفيروسات البشرية التى استبدلت بجيناتها بعضاً من جينات الطيور .. غالباً طيور الماء. لكن التقاط العدوى من الخنازير بدا أكثر احتمالية. فعلى حين لا يحمل البشر مستقبلات لفيروسات الطيور على خلاياهم فإن الخنازير تحملها. وسادت نظرية أن أنفلونزا الطيور تصير اكثر تكيفاً مع البشر لو مرت بعائل وسيط كالخنزير. والخنازير فى مزارع آسيا (حيث نشأ وباء ١٩٥٧ و١٩٦٨) تكون غالباً موجودة مع البط والدجاج. ولدى الخنازير مستقبلات لأنفلونزا البشر كذلك. لهذا قد يستنشق الخنزير فيروسات الطيور فى الماء أو الفضلات، أو يستنشق فيروساً بشرياً من فلاح يسعل، ثم يصير وعاء يخلط فيه الفيروسان. ومن هنا يهاجم الفيروس الناتج البشر المجاورين.

وما أظهره وباء (هونج كونج) حتى الآن هو أن القفزة من الطيور إلى البشر مباشرة أمر ممكن. ولربما لم تكن الخنازير مهمة كما كنا نعتقد. من ناحية أخرى، فإن نظرية (الخنزير - الوعاء) مغرية وقد تأيدت ببعض ملاحظات: فى العام ١٩٩٣ اختلط فيروس البشر H3N2 ونسخة طيور من الفيروس H1N1 فى الخنازير الأوروبية، فنتج عن هذا فيروس أصاب طفلين فى هولندا. لكن طبقاً لما يقوله (يوشيهيرو كاواوكا) عالم الفيروسات فى جامعة (وسكونسين) فى (ماديسون)، لا توجد أدلة مباشرة على أن الخنازير كانت متورطة فى أنفلونزا البشر عامى ١٩٥٧ و١٩٦٨.

لهذا من يعطى ماذا ؟.. ولمن ؟.. ربما كانت فيروسات الطيور مسئولة عن الوباءين الأخيرين. لكن أقرب شىء لأنفلونزا ١٩١٨ الأسبانية هو فيروس يبدو كفيروس الخنزير H1N1 الذى ظهر أول مرة عام ١٩١٨، ومازال فى الخنازير حتى اليوم. وحسب التاريخ المدون، فإن البشر مرضوا أولاً، مما يوحى بأن البشر نقلوا الفيروس للخنازير. لابد أن هذا القاتل العالمى الذى ظهر من ثمانين عاماً هو الأنفلونزا التى نحاول فهمها. للأسف أيضاً هو الأكثر صعوبة فى القبض عليه. ففى عام ١٩١٨ لم يكن هناك أحد يعرف ان الأنفلونزا يسببها فيروس، لذا ضاع المسبب من البداية. وفى الثلاثينيات حين عرف العلماء أن فيروساً هو المشتبه فيه، كان فيروس ١٩١٨ المميت قد رحل. أو حسبنا هذا حتى عام ١٩٩٧ حين بدأ الباحثون يعيدون إحياء هذا الشبح الجينى.

لقد مسحت الأنفلونزا الأسبانية العالم على موجتين. خلال موجة الربيع كانت معدية جداً لكن أقل شراسة. وحين بدأت موجة



...ومن الدجاج ما قتل!



الخريف راح الفيروس يقتل الناس، خاصة الشباب، فى جماعات. وكان لدى (جيفرى تاوبنبرجر باحث الفيروسات فى المعهد العسكرى لعلم الأمراض بواشنطن) سؤالان: من أين جاء الفيروس؟ ولماذا توحش فجأة؟

كان أول ما قام به هو البحث عن عينات من أنسجة ضحايا عام ١٩١٨ ومن بين ٧٠ عينة لم يجد الـRNA الخاص بالأنفلونزا إلا فى حالتين. «العينة الأولى كانت لمجند عمره ٢١ سنة من (فورت جاكسون) ومن المدهش أنه توفى يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٩١٨، وهو نفس اليوم الذى مات فيه زميله فى (كامب أويتون) بـ(نيويورك). الثانى مات خلال ثلاثة أيام بأوديما رئوية.. رئتاه غرقتا فى السوائل تماماً».

أظهرت دراسته الأولى التى انصبت على أجزاء من جين مولد التجلط فى حمض RNA الذى وجده فى الضحية الأولى، والذى بدا تماماً كفيروس الخنزير H1N1. وما زال يبدو كجين ثديى حتى اليوم حتى أنه أمكن معرفة ترتيبه. ويضيف (تاوبنبرجر): «إنه أقرب فيروس ثديى لفيروسات الطيور.. لهذا من المحتمل أنه جاء من طائر.. لكن السؤال هو منذ متى؟».

ويمكن إيجاد دليل من دراسة أجسام الأنفلونزا المضادة فى دماء الناس الذين عاشوا لدى بدء القرن. لربما كان بعض الناس لديهم أجسام مضادة لفيروس H1N1 جاءت من الأسلاف حوالى العام ١٩٠٥ ولربما راح الفيروس يتسلل خلسة لعدة أعوام قبل ظهور الوباء الأسبانى. لربما تسلل إلى الناس لكنه لم يستطع الانتقال بسهولة أو بسرعة. لقد احتاج إلى وقت حتى يتعلم مهاجمة البشر.

يقول (تاوبنبرجر) متأملاً: «ترى هل رأينا شيئاً كهذا فى هونج كونج؟. لربما كان ما حدث فى هونج كونج مؤخراً يكرر ما حدث عام ١٩٠٥.. إن الأمر يستحق التفكير».

من ناحية أخرى لم يكن فيروس ١٩١٨ شبيهاً بفيروس طيور هونج كونج. فى فيروسات الدجاج H5 وH7 يؤدى تحول بسيط فى جين مولد التجلط، إلى أن ينقلب فيروس هادئ الطباع لقاتل مميت. هذا التحول يسمح للفيروس بالوصول إلى خلايا خارج مجاله الطبيعى.. ليس فقط فى أمعاء الطيور وجهازها التنفسى، بل قلبها وكليتها ومخها. هذا التحول المخيف كان من العلامات المميزة لفيروس الطيور الذى سبب مرضاً شديداً وقتل ثمانية عشر شخصاً فى هونج كونج، لكن (تاوبنبرجر) وجد أن فيروس ١٩١٨ افتقر لهذا التحول.

ليس معنى هذا أن التحولات التى تزيد الشراسة لا توجد فى أماكن أخرى. وقد حصل (تاوبنبرجر) على مصدر آخر من فيروسات ١٩١٨ ليفحصها. ففى العام ١٩٩٧ سافر (جون هالتين)، وهو عالم أمراض متقاعد من سان فرانسسكو، إلى (بريفيج)، وهى قرية فى الاسكا قضت عليها الأنفلونزا تقريباً عام ١٩١٨. وبعد أخذ إذن أهالى القرية وبمساعدة رجال الشرطة، فتح قبور ضحايا الأنفلونزا الذين دفنوا فى الجليد، آملاً فى أخذ عينات من الرئتين. من بين هؤلاء كانت امرأة شابة بدينة «ترقد على ظهرها وقد تحولت يداها لعظام.. لكن حالة باقى الجثة كانت جيدة لشدة عجبى. جلست على الأرض وقلت لنفسى: هذا هو المكان الذى سنجد الفيروس فيه، ليكشف السر عن وباء ١٩١٨». صارت هذه الشابة مفتاح (تاوبنبرجر) لتتبع جينات الفيروس. لقد ساعدت طبقة الدهن فى جلدها على حفظ نسيج رئتيها ٧٩ عاماً.

جلب نجاح (تاوبنبرجر) و(هالتين) حماساً لمزيد من الحملات إلى الشمال القطبى فى أغسطس. وتحت قيادة (كيرستى دونكان)، وهو جغرافى كندى، سافر الفريق إلى (سبيتزبرجن) شمالى النرويج، لاستخراج أجساد ستة عمال مناجم ماتوا عام ١٩١٨. أظهرت دراسات الرادار الاختراقية للأرض أن قبورهم تحت خط الجليد الدائم. وبرغم ان احتمالات العثور على فيروس حى فى رئاتهم كانت معدومة، فإن الفريق ارتدى ثياباً واقية.

حين تم العثور على القبور كانت فوق طبقة الجليد الدائم. يقول (وبستر): «الأخبار الطيبة هى أننا ظفرنا بعدة عينات.. الأخبار السيئة هى أن الأنسجة لم تكن متجمدة». فى أفضل الأحوال يجد الباحث نفسه أمام أجزاء صغيرة، إلى حد يثير الجنون، من حمض RNA الوراثى، تحتاج إلى عامين حتى تصل إلى «ما وصل إليه (جيفرى) الآن». يقول (تاوبنبرجر) إنهم لو وجدوا فيروساً حياً فى (سبيتزبرجن) لاحتاجوا إلى أسبوع او اثنين لمعرفة تتابع الجينوم الوراثى كله. وخلال أسابيع كان الفريق سيصل إلى معرفة جينات واحد من اكبر السفاحين على وجه الأرض، وربما عرف مصدره.

وحين تمكنت السلطات الزراعية فى هونج كونج عام ١٩٩٧ من استخلاص الفيروس القاتل للدجاج، تبين أنه H5 وتم نقله إلى مختبر مؤمن فى الولايات المتحدة. وحين وجد موظفو الصحة العامة فيروساً غامضاً لدى طفل مريض، أرسلوه إلى الباحثين الهولنديين المهتمين بالفيروسات الغريبة. وحين اتضح أن فيروس الدجاج هو المسبب لمرض البشر، فعلت الحكومة ما كان عليها أن تفعله: أغلقت الأسواق، وقتلت الطيور بالغاز. ليس الدجاج فقط بل البط والإوز والطيور المائية التى ربما نقلت لها العدوى (أقرب مولد تجلط فى فيروس هونج كونج تم العثور عليه فى إوزة صينية). لقد حدثت تغيرات عظمى فى نظام التجارة العالمى، مثلاً يتم اختبار الدجاج القادم من جنوب الصين مرتين على جانبى الحدود. ولم يعد مسموحاً بخلط الدجاج مع البط أو الأوز. وفى تطور هائل للعادات الصينية، صارت الطيور المائية تؤخذ لسوق منفصل، وتقتل مقدماً وتباع متبلة.

ولكى نقلل فرص انتقال فيروس الحيوانات إلى البشر، من الجوهرى أن نعرف أى الفيروسات يجلب المتاعب، وأين هى. ولمدة عقود ظل العلماء يختزنون السلالات المهمة فى ثلاجاتهم والآن حان وقت فتح هذه المكتبات، ومعرفة شجرة عائلتها. وقد جرب الهولنديون اختبارات سبق لـ(وبستر) إجراؤها كى يتعرفوا فيروس الأنفلونزا فى طفل هونج كونج. لكن الخبرات التى اكتسبناها من هونج كونج تبين أن مستويات المسح الصحى الحالية ليست جيدة بما يكفى.

على الأرجح سوف يتضح أن المخزن الأمثل لفيروس دجاج هونج كونج موجود فى الطيور المائية المهاجرة. يقول (وبستر): «ليس بوسعك قتل كل البط والطيور المائية فى العالم.. هذا غير معقول.. هذا يجعلك تدرك أن الأنفلونزا مرض غير قابل للاستئصال».

وتستطيع مضادات الفيروسات أن تعمل ضد الأنفلونزا لكن أفضل سبل الحماية هى اللقاح. ما زال اللقاح الأفضل هو الذى يشبه الفيروس الأصلى كثيراً لكنه أكثر أمناً. وحتى هذه اللحظة لا يوجد شبيه آمن لفيروس أنفلونزا الطيور.

يسأل (وبستر): «هل لدينا لقاح على الرف إذا احتجنا إليه؟.. لا.. ولم لا؟. لأننا لم نجد فيروساً بديلاً يصنع لقاحاً. ولماذا؟.. لأننا لم نجر المسح اللازم.. لابد من البحث فى كل جنوب شرق آسيا».

وفى لقاء لمعهد الصحة القومى، ناقش علماء الفيروسات وإداريو الصحة العامة الحاجة إلى إجراء مسح فى المستقبل. ويجب أن تكون اللقاحات جاهزة ضد الأنواع الفرعية الخمسة عشر. حتى لا يأخذنا H5 على حين غرة».

الآن يلتقط الباحثون انفاسهم وقد سرهم أن H5N1 قد قتل فى مهده، لكن (وبستر) يشعر بأن قفزة أخرى من الطيور للإنسان ستحدث فى المستقبل القريب. ويضيف «وباء هونج كونج كان إنذاراً مما قد يحدث.. كان هذا سفاحاً، مثل وباء ١٩١٨، متجهاً إلى طريقه».■

مرت بعالمنا ثلاثة أوبئة أنفلونزا شاملة خلال القرن العشرين. أسوأها حتى الآن هو ما يطلق عليه الأنفلونزا الأسبانية عام ١٩١٨. فقد أصيب كل فرد على ظهر الأرض تقريباً بالوباء، وهلك ثلاثون مليوناً، وهم أكثر بكثير من قتلى الحرب العالمية الأولى

غـــذاء أكثـــر.. وجـوعى أكثـر

أحـمـد مـسـتـجـيـر

تطلب الأمر عشرة آلاف سنة ليصل إنتاج العالم من القمح وغيره من الحبوب إلى بليون طن. حدث ذلك عام ١٩٦٠، ثم تطلب الأمر بعد ذلك أربعين سنة لا أكثر ليصل هذا الإنتاج (فى عام ٢٠٠٠) إلى بليونى طن

«من يملك خبزه يواجه الكثير من المشاكل...

أما من لا يملكه، فلن تكون أمامه سوى مشكلة واحدة!»

مثل بيزنطى

نشأت الزراعة، أول اعتداء للإنسان على الطبيعة، منذ نحو عشرة آلاف عام. ومنذ ذلك الحين والإنسان يحاول دائماً تحسين محاصيله، بانتخابه ما يلائم من نباتات، من البرية أولاً ثم بعد ذلك من حقوله التى زرعها. كان ينتخب النباتات سريعة النمو متميزة الإنتاج المقاومة للآفات والأمراض وللظروف الجوية. أصبحت عشائر النباتات التى انتخبها قدامى الفلاحين هى محاصيل اليوم التى تغذينا جميعاً. المحاصيل التى يعمل عليها مربو النبات من علمائنا. كان القمح هو أول نبات اهتم به الفلاح القديم، وعليه نشأت الحضارة فى الهلال الخصيب. جاء هذا النبات الذى نأكل حبوبه اليوم، عن تجربة فى الهندسة الوراثية قامت بها الطبيعة قبل ظهور العلم والعلماء. والهندسة الوراثية هى عبور بالجينات يتخطى الحواجز بين الأنواع. أجرت الطبيعة تهجيناً بين ثلاثة أنواع مختلفة من النجيليات، كل يحمل جينوماً من سبعة كروموزومات، ليظهر قمحنا بجينوم من ٢١ كروموزوماً. ولقد تطلب الأمر عشرة آلاف سنة ليصل إنتاج العالم من القمح وغيره من الحبوب إلى بليون طن. حدث ذلك عام ١٩٦٠، ثم تطلب الأمر بعد ذلك أربعين سنة لا أكثر ليصل هذا الإنتاج (فى عام ٢٠٠٠) إلى بليونى طن.

كانت هى الثورة الخضراء.

البـــدايـــة

فى عام ١٩٤٣ أقامت مؤسسة روكفيلر مركزاً علمياً تطبيقياً بالمكسيك لتربية النبات، مهمته مساعدة فقراء الفلاحين هناك، وتولى أمره نورمان بورلوج. بدأت بهذا المركز ثورة القمح «الهادئة» فى أواخر الخمسينيات، إذ تمكن هذا الرائد من استنباط «القمح القزمى» الشتوى. كانت أقماحاً جديدة عريضة التكيف مقاومة للأمراض متميزة فى تحويل السماد والماء إلى حبوب ثمينة. كانت قصيرة الساق. والفلاح، فرضاً، يحب القمح طويل الساق ذا المظهر المهيب الحبيب المثير للإعجاب. لكن القمح القصير قد أثبت دائماً أنه أكثر فائدة، فمثل هذا النبات يبذل طاقة أقل فى تنمية ساقه القصيرة، ثم إن هذه الساق القصيرة تستطيع بسهولة أن تحمل السنابل وما بها من حبوب، فى الوقت الذى تنحنى فيه الساق الطويلة عند النضج وتسبب المشاكل. كانت النتائج مذهلة حقاً، حتى لقد وصلت المكسيك، وكانت تستورد القمح، إلى الاكتفاء الذاتى عام ١٩٥٦، وعلى عام ١٩٦٤ كانت تصدر نصف مليون طن من القمح!

إلى الهند والباكستان

فى عام ١٩٦٣ أقامت مؤسسة فورد والحكومة المكسيكية «المركز الدولى لتحسين الذرة والقمح» (السيميت CIMMYT) كامتداد للمشروع الأصلى، ثم رأى بورلوج أن يتحول إلى الهند وباكستان لتجريب سلالاته الجديدة من القمح. كانت رغبته هذه مثيرة للجدل، ولا تزال. إذ يرى الكثيرون أن على فلاحى العالم النامى أن يزرعوا محاصيلهم المحلية (العدس مثلاً فى الهند، والكاسافا فى أفريقيا) لا محاصيل الحبوب التى يفضلها الغرب. لكن بورلوج كان يرى أن ليس بين هذه المحاصيل المحلية ما قد انتخب للمحصول الغزير، وكان يعتقد أن القمح بالذات هو الأفضل لأنه ينمو فى كل البيئات تقريباً، ولا يتطلب إلا القليل من المبيدات، ولديه مقاومة ذاتية للحشرات.

كانت الهند تحت الاستعمار البريطانى قد خبرت عام ١٩٤٣ أسوأ مجاعة فى التاريخ (مجاعة البنغال)، مات فيها من الجوع فى ذلك العام أربعة ملايين. كان السبب الرئيسى فى هذه الكارثة هو الانخفاض الحاد فى إنتاج الغذاء بتلك المنطقة، وإن كان أمارتيا سين (حامل جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ١٩٩٨) قد رأى أن نقص الغذاء كان حقاً من بين أسباب المشكلة، لكن، كان هناك سبب أهم، هو أن هيستريا الحرب العالمية الثانية لم تجعل لتوفير الغذاء عند الحكام البريطان أولوية عليا. وعندما تحررت الهند من الاستعمار عام ١٩٤٧ ظلت ذكريات مجاعة البنغال تؤرقها، وكان من الطبيعى أن يصبح للأمن الغذائى أهميته القصوى عند الساسة الحاكمين. ظلت الحكومة إذن تركز على زيادة رقعة الأرض المزروعة، لكن السكان كانوا يتزايدون بمعدل يفوق معدل زيادة المساحة المضافة من الأراضى. وعلى عام ١٩٦٤ كانت الهند على شفا أزمة غذائية رهيبة. استوردت الدولة ٢٥.٤مليون طن من الحبوب فيما بين عامى ١٩٦١ و١٩٦٥، ثم ١٩ مليون طن فى عامى ١٩٦٦ و١٩٦٧، كان تعداد الهند آنئذ ٤٨٠ مليون نسمة. ناشد رئيس الوزراء مواطنيه أن يغفلوا وجبة واحدة فى الأسبوع!

عندما وصل بورلوج إلى الهند، فشل فى البداية فى اقناع المسئولين باستخدام بذوره. لكنه مكث يحاول ويحاول. وفى عام ١٩٦٥ كان شبح المجاعة وقد غدا واضحاً حتى لتوافق حكومتا الهند وباكستان على استيراد بذور القمح القزمى. رتب بورلوج الأمر لقافلة من ٣٥ شاحنة تنقل البذور الممتازة من المكسيك إلى ميناء لوس إنجيلوس. تعرضت القافلة للكثير من المضايقات على الحدود بين المكسيك والولايات المتحدة، بل وحتى بعد دخولها الميناء. وأخيراً أبحرت السفينة. هنا يقول بورلوج «دلفت إلى سريرى قرير العين، معتقداً أن المشكلة قد انتهت، لأستيقظ فى الصباح على أخبار تقول إن الحرب قد اندلعت بين الهند وباكستان»!

وبالرغم من ذلك، فقد تمكن من زراعة قمحه القزمى فى شبه القارة الهندية بمعاونة بعض من العلماء المحليين كانوا قد تدربوا لديه فى المكسيك. كانوا يزرعون بذور القمح والمعارك الطاحنة تدور على مرمى البصر. زرع المحصول متأخراً، فكان الإنبات فقيراً، وعلى الرغم من هذا فقد زاد المحصول بنسبة ٧٠٪. نجحت النتائج فى منع وقوع المجاعة بمنطقة الزراعة. وإن كانت قد أصابت مناطق أخرى. بل لقد حدث أن قامت مظاهرات صاخبة فى

... من يملك ثمن الخبز؟!



كيرالا عام ١٩٦٦ عندما قدم دقيق القمح لأناس لم يعرفوا غير الأرز غذاء منذ قرون!

وبسبب ظروف الحرب، حصل بورلوج على الموافقة للمضى قدماً فى مشروعه. وفى لا زمن كان قد دبّر الأمر لزراعة مساحات شاسعة: «لولا الحرب، ربما لم يكن لى أن أتمكن من اختبار فكرتى». كان المحصول التالى أروع: زيادة قدرها ٩٨٪.

وفرت الثورة الخضراء للهند الاكتفاء الذاتى من الحبوب. كانت الخطة التى اتبعت هى الاستمرار فى إضافة أراض جديدة للزراعة، ثم الزراعة مرتين فى السنة لا مرة واحدة أثناء فصل الأمطار كما كان الأمر (مما استدعى إقامة مشاريع هائلة لإنشاء السدود)، ثم استخدام البذور المحسنة وراثياً. أساساً القمح والأرز، وكذا الذرة والدخن. نجحت الثورة الخضراء فى إنتاج من الحبوب تاريخى بلغ ١٣١ مليون طن فى موسم ١٩٧٩/٧٨ وتحولت الهند من دولة مستوردة للحبوب لتكتفى ذاتيا عام ١٩٧٤ وتصبح واحدة من أكبر الدول المنتجة للحبوب. وكانت باكستان قبل الهند ببضع سنين قد حققت نفس هذا الهدف. عندما رفعت مصر الحظر على استيراد القمح من باكستان فى مارس ٢٠٠٢ صرح مصدر باكستانى مسئول بأن لدى الباكستان مليون طن قمح فائض يمكن تصديره. ولقد كان نجاح الهند هذا واحداً من بين الأسباب التى جعلت من إنديرا غاندى وحزبها قوة سياسية عظمى فى الهند. كانت المحاصيل الجديدة العالية الغلة تحتاج ماء أكثر وأسمدة أكثر ومبيدات أكثر، وقد تمكنت الهند من أن تسدد إلى البنك الدولى كل ما اقترضته من أجل توفير جميع متطلبات الثورة الخضراء.

أسلوب خطة الهند للاكتفاء الذاتى من الحبوب كان هو توظيف العلم والتكنولوجيا فى الزراعة، وتوطيد سياسة سعرية تحفز المزارع على رفع إنتاجه، بجانب اتخاذ الإجراءات التى تضمن ألا يتمكن رجال الأعمال مرة أخرى من تخزين الغذاء من أجل الربح. ثمة مثل سائر من التاميل يقول: «إذا كان علينا أن ننتظر حتى تهدأ كل الأمواج قبل أن ننزل إلى المحيط ونستحم، فإنا أبداً لن نستحم، علينا أن نتحدى المياه وننزل». فقط علينا قبل ذلك أن نتعلم السباحة. ولقد تعلم الهنود السباحة واكتسبوا الخبرة وتوفرت لديهم المعارف. «لو أنا انتظرنا قبل استخدام هذه الخبرة وتلك المعارف حتى يصبح كل شىء مثالياً: حتى تصبح استجابة الفلاح مثالية، حتى يصبح البرلمان مثالياً، حتى يصبح الوزراء مثاليين، حتى يصبح التعاون بين الوزراء مثالياً. لو انتظرنا هذا كله، فإنا أبداً لن نستطيع انجاز مهمتنا. لابد أن ننطلق». كذا قال وزير الزراعة الهندى الجسور سى. سوبرامانيام. وانطلق.

بجانب سلالات القمح القزمى التى طورها بورلوج، استنبطت الثورة الخضراء أيضاً سلالات ممتازة من محاصيل الغذاء الرئيسية، من بينها الأرز نصف القزمى (وطوره المعهد الدولى لبحوث الأرز، إيرى IRRI، بالفلبين) والسورجم والدخن والذرة، وكذا الكاسافا والفول. نجحت هذه السلالات فى رفع إنتاجية المحاصيل فى أمريكا اللاتينية: ضاعفت غلة القمح والأرز فى الدول التى استخدمتها.

وعلى تسعينيات القرن العشرين كان نحو ٧٥٪ من مساحات الأرز الأسيوية تزرع بهذه السلالات الجديدة، كذا كان نحو نصف القمح المزروع فى أفريقيا، وأكثر من نصف قمح أمريكا اللاتينية وآسيا، ونحو ٧٠٪ من الذرة بالعالم. قدر أن ٤٠٪ من مزارعى العالم يستخدمون بذور الثورة الخضراء، وبأفضل النتائج فى آسيا، تليها أمريكا اللاتينية.

لكن هذه السلالات التى طورت فى أمريكا اللاتينية وفى آسيا كانت أقل نجاحاً فى المناطق الجافة، مثل أفريقيا ما تحت الصحراء. وتقوم الآن بعض المؤسسات الدولية بمحاولاتها لتطوير سلالات جديدة من محاصيل الغذاء أكثر ملاءمة للزراعة فى هذه المناطق.

يقول بورلوج إنه لولا زراعة السلالات فائقة الإنتاج لمات الملايين من الجوع، أو لاضطررنا إلى زيادة المساحة المنزرعة زيادة هائلة. ولقد قدر البعض أن تحول الهند إلى هذه السلالات قد وفر للدولة عناء زراعة مائة مليون فدان من الأرض العذراء. يستطرد بورلوج: «لو ان سلالات الحبوب الموجودة عام ١٩٥٠ كانت لا تزال هى هى عام ١٩٩٩، إذن لتطلب الإنتاج العالمى من الحبوب فى هذا العام الأخير (١٩٩٩) مساحة من الأرض تبلغ ١.٨ بليون هكتار بدلاً من الـ ٦٠٠ بليون هكتار التى زرعت عام ١٩٩٩.

[هناك فى الواقع مثال يستحق الذكر هنا فى تمجيد عمل مربى النبات لإنتاج السلالات غزيرة الغلة. ففى عام ١٩٤٠ أنتج مزارعو الولايات المتحدة ٥٦ مليون طن من الذرة بزراعة ٣١ مليون هكتار من الأرض (بمتوسط قدره ١.٨ طن/هكتار) وفى عام ١٩٩٩ أنتجوا ٢٤٠ مليون طن من الذرة بزراعة ٢٩ مليون هكتار (بمتوسط ٨.٤ طن/هكتار)].

فى عام ١٩٦٨ نشر بول إيرليش كتابه الشهير «القنبلة السكانية»، كتب فيه يقول: «إنه لمن قبيل الخيال الجامح أن نتصور أن تتمكن الهند يوماً من تغذية سكانها». وعلى عام ١٩٧٤ كما رأينا كانت الهند قد اكتفت ذاتياً من الحبوب. ففى عام ١٩٦٥ كانت الهند تنتج ١٢.٣ مليون طن قمح، وصلت عام ١٩٧٠ إلى ٢٠ مليون طن، ليبلغ إنتاجها الآن ٦٠ مليون طن. كان معدل الزيادة فى إنتاج الغذاء منذ الستينيات يفوق معدل زيادة السكان. لقد ازداد تعداد الهند إلى الضعف منذ عام ١٩٦٨ الذى نشر فيه إيرليش نبوءته، بينما ارتفع محصول القمح ثلاثة أضعاف. إن السياسة التى تهدف إلى مكافحة الجوع لابد ان تعنى أن يكون معدل الزيادة فى إنتاج الغذاء أعلى من معدل زيادة السكان. من هنا اضطر إيرليش أن يحذف هذه النبوءة فى الطبعة الجديدة من كتابه.

ثم بدأ الهجوم

غدت «الموضة» فى ثمانينيات القرن الماضى هى البحث عن الأخطاء فى الزراعة غزيرة

من يملك ثمن الخبز؟!



المحصول. بدأ المناورون يُسِرُّون إلى مؤسستى فورد وروكفيلر وإلى الحكومات الغربية بأنّ تقنيات الإنتاج الوفير ستُفسد العالم الثالث.

إذا لم يُحسَن الاستخدامُ المُكثَّفُ للمخصبات والمياه، فستحدث آثار سلبية خطيرة على الأنهار والترع، كما قد تُستنفَدُ مواردُ المياه الجوفية، ويُعجِّل تمليح التربة. يمكن على أية حال بالإدارة الرشيدة تقليل هذه الآثار، كما أنّ زيادة غلة الفدان إنما تعنى اختصار الأرض المخصصة للزراعة والإبقاء على مساحات أكبر من الغابات دون أن تُجتث لإفساح المجال للمحاصيل. فلما أراد بورلوج أن يتوجه إلى أفريقيا، بعد آسيا، قررت بعض المنظمات «الخضراء» أن توقفه. أصيب مجتمع «الخضر» بالجنون، ليضغط على الدول المانحة والمؤسسات الكبرى حتى لا تدعم أفكاراً مثل المخصبات غير العضوية فى أفريقيا. لجأوا إلى أرقام عن تلوث المياه بالأسمدة مأخوذة من الولايات المتحدة وطبقوها على أفريقيا. وهذا فى الحق تطبيق خاطئ تماماً لأن استخدام هذه الأسمدة الكيماوية فى أفريقيا قليل للغاية، حتى ليمكن استعمالها عقوداً طويلة قبل أن تتسبب فى الآثار الجانبية التى ظهرت فى أمريكا. وفى النهاية قررت مؤسسة فورد والبنك الدولى الانسحاب من معظم المشاريع الزراعية بأفريقيا. وانسحبت أيضاً مؤسسة روكفيلر. قال بورلوج: «إن خوف البنك الدولى من الضغوط السياسية للخضر فى واشنطون، قد أصبح هو العقبة الوحيدة الكبرى فى تغذية أفريقيا». ثم تمكنت أحزاب الخضر فى أوروبا من إقناع معظم حكوماتها بأن توقف توفير الأسمدة لأفريقيا. كان الاستثناء هو دولة النرويج. غضب بورلوج: «إن بعض المناورين فى دول الغرب هم ملح الأرض، لكن الكثيرين منهم يؤمنون بحكم النخبة. هم لم يجربوا يوماً الإحساس بالجوع. يناورون من مكاتبهم الفخيمة فى واشنطون وبروكسل. لو أنهم عاشوا فى العالم الثالث شهراً واحداً. ولقد عشت أنا هناك خمسين عاماً. إذن لطالبوا بالجرارات والأسمدة وقنوات الرى، ولغضبوا إذ يرون مثل هذه النخبة فى بلادهم ينكرونها عليهم».

كان القمح الذى طوّره لا يعطى إنتاجه الغزير إلا مع التسميد الكثيف والرى الغزير، الأمر الذى يعنى استنزاف المواد الغذائية من التربة، مما يتطلب ضرورة تزويدها بالأسمدة الكيماوية. فالأسمدة العضوية تحتاج إلى تربية حيوانات أكثر تستهلك الحبوب. وكان من رأيه أن محاصيل الحبوب غزيرة الإنتاج، والأسمدة غير العضوية، ونظام الرى المُحكم هى أمور قد غدت واجبة مع الانفجار السكانى الذى بدأ منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. وكان هناك من المعارضين من اقترح، للعجب، أنه من الخطأ أن نرفع إنتاج الغذاء فى العالم النامى؛ فالأفضل أن نترك الطبيعة تؤدى دورها القبيح فى الحد من تزايد السكان.

سوى أنّ الإحصائيات تقترح أن المحاصيل عالية الإنتاج تكبح النمو السكانى، لا تُسرعه، فكما يقول أحد الثقاة، إن التنمية هى أفضل وسائل منع الحمل، الأطفال فى زراعة الكفاف أيد عاملة تُستحسن زيادتها فإذا ما توفر الغذاء فسيحرص الآباء على إنجاب عدد أقل حتى يمكن تعليمهم.

ثم حدث، للعجب أيضاً، أن بدأت الحركة البيئية تتحول عن موقفها الرافض لاستخدام الأسمدة الكيماوية فى الزراعة! وإذا بروبرت بليك رئيس لجنة الزراعة المستدامة المعارضة يقول فجأة إنه «قد اتضح له أن هذا الموقف الرافض ليس أمراً واقعياً، وأن نورمان كان على حق طوال الوقت»! أما السبب فى هذا التحول، فى رأى نورمان بورلوج، فهو أن أحزاب الخضر فى أوروبا قد أزعجتها تلك الموجة المفاجئة من المهاجرين تتدفق إلى بلادهم التى لم تكن تستقبل منهم الكثير. عندئذ اكتشفوا أن تحسين الأوضاع فى أفريقيا ليس بالفكرة السيئة على أية حال!

أُنثى الجوع!

نجحت الثورة الخضراء بلا جدال فى زيادة الإنتاج الزراعى. ارتفع الغذاء الكلى المتاح للفرد فى العالم فى الفترة ما بين عامى ١٩٧٠ و١٩٩٠. العقدين اللذين أنجزت فيهما الثورة الخضراء أكبر نجاحاتها، بمقدار ١١٪، وانخفض العدد المقدر من الجوعى بنسبة ١٦٪: من ٩٤٢ مليون جائع إلى ٧٨٦ مليوناً. هذا ما تقوله الأرقام.

فى كل دقيقة يموت من الجوع فى العالم الثالث ٣٠ شخصاً. الجوع يحصد أرواح ١٨ مليون إنسان فى العام. الأطفال يشكلون منهم أكثر من النصف، ونسبة الإناث منهم تفوق نسبة الذكور (أنثى الجوع!). أين توجد الملايين الـ ٧٨٦ من الجوعى؟ نبهتنا وسائل الإعلام الغربية منذ بداية الثمانينيات إلى المجاعات فى أفريقيا. لكن عدد الجوعى بأفريقيا لا يتجاوز ربع هذا الرقم. قيل لنا إن الهند وإندونيسيا قد بلغتا مرحلة الاكتفاء الذاتى من الحبوب، بل وتصدران. لكن، فى آسيا هذه، وبالتحديد حيث أحرزت الثورة الخضراء أزهى نجاحاتها، يوجد ثلثا الجوعى. إن مخازن القمح بالهند مليئة بالحبوب بسبب نجاح الثورة الخضراء فى زيادة غلة القمح والأرز، ورغم ذلك «يموت هناك فى كل يوم خمسة آلاف طفل من الجوع وسوء التغذية». فلما كان الفقراء لا يستطيعون شراء ما يُنتَج، فقد شرعت الحكومة تُخزِّن ملايين الأطنان من الحبوب، ليَفسد البعض منها، ويتزايد القلق من أن تصل الحبوب الفاسدة إلى السوق. رفعت الثورة الخضراء إنتاج الحبوب، نعم، لكنها لم تُقلل الجوع. وما لنا نذهب بعيداً. تقول الجملة الأخيرة من الفقرة الأولى بهذا المقال إن إنتاج الحبوب فى العالم عام ٢٠٠٠ قد وصل إلى بليونى طن. فإذا كان تعداد البشر ستة بلايين، فسيكون نصيب الفرد، طفلاً كان أو بالغاً، هو ثلث طن فى المتوسط، أى نحو كيلوجرام يومياً. العالم بالفعل ينتج ما يكفى كل سكانه من الطعام! المشكلة هى التوزيع!

فإذا نظرنا إلى الأرقام نظرة أكثر عمقاً، وأخرجنا الصين من المعادلة، فسنكتشف أن عدد الجوعى فى بقية العالم قد ازداد بنسبة أكثر من ١١٪: من ٥٣٦ مليوناً إلى ٥٩٧ مليوناً. فى أمريكا الجنوبية مثلاً ارتفع متوسط الزاد الغذائى بنسبة ٨٪، وازداد عدد الجوعى بنسبة ١٩٪. وفى جنوب آسيا ازداد الغذاء المتاح بنسبة ٩٪ على عام ١٩٩٠، لكن عدد الجوعى ازداد ٩٪. لا، ولم تكن زيادة السكان هى السبب فى زيادة عدد الجوعى، فلقد ارتفع القدر الكلى المتاح من الغذاء للفرد فعلاً، لكن الفقراء لم يتمكنوا من الحصول عليه. لم تجد الحبوب طريقها إلى بطون الجوعى. لقد وجد البنك الدولى فى دراسة له عن الجوع نُشرت عام ١٩٨٦ أن الزيادة السريعة فى إنتاج الغذاء، لا تعنى بالضرورة تقليل الجوعى. الجوع الحالى لا يمكن تخفيفه إلا «بإعادة توزيع القوة الشرائية والموارد، نحو من يعانون من سوء التغذية». ببساطة: إذا كان الفقراء لا يمتلكون المال لشراء الطعام، فإن زيادة الإنتاج لن تفيدهم.

فى كل دقيقة يموت من الجوع فى العالم الثالث ٣٠ شخصاً. الجوع يحصد أرواح ١٨ مليون إنسان فى العام. الأطفال يشكلون منهم أكثر من النصف، ونسبة الإناث منهم تفوق نسبة الذكور

أما فى الصين، فقد انخفض عدد الجوعى فى هذه الفترة (١٩٧٠ - ١٩٩٠) من ٤٠٦ ملايين إلى ١٨٩ مليوناً، الأمر الذى يجعلنا نتساءل: أكان السبب هو الثورة الخضراء أم الثورة الصينية؟ إن نجاح الثورة الخضراء، أو غيرها من استراتيجيات زيادة إنتاج الغذاء، فى تخفيف عدد الجوعى، إنما يتوقف على

القوانين الاقتصادية والسياسية والثقافية التي يصنعها الشعب، فهى التى تُحَدِّدُ مَن يستفيد من زيادة الإنتاج، مَنْ سيحصلُ على الغذاء، وبأى سعر.

الفقير يدفع أكثرَ ويحصل على أقل. فقراء الفلاحين لا يستطيعون شراءَ الأسمدة وغيرها من مستلزمات الإنتاج بسعر الجُملَةِ كما يفعل كبار المزارعين. فقراء الفلاحين لا يستطيعون أن يبيعوا محاصيلَهم بأفضل سعر مثلما يستطيع كبار المزارعين. صغار المزارعين لا يستطيعون توفير المياه اللازمة لرِى سلالاتهم الممتازة إلاَّ بأعلى التكاليف. هم يلجئون إلى الاقتراض مَحَلّيًا ويدفعون من فوائد القروض أضعاف أضعاف ما يدفعه المزارعُ الثرى: القروضُ التى تُوَفِّرها الحكومةُ مدعمةً تُفيد الكبارَ أكثر مما تُفيد الصغارَ. الفقراءُ تُعوزُهم السلطةُ، والحكومة تُفَضّلُ الثرى. لا عجب أن يضطر الكثيرون من فقراء الفلاحين فى الهند إلى بيع أراضيهم. ولا عجب أن يُقْدِمَ الكثيرون منهم على الانتحار.

إن إدخالَ التكنولوجيا الزراعية الحديثة إلى نظامِ اجتماعى مُكَرَّس لصالح الأغنياء ضد الفقراء، دون معالجةٍ اجتماعية، سيقود مع الوقت إلى زيادة تركيز ثمار الثورة الخضراء فى أيدى الأغنياء، وستكون النتيجة التراجيدية غذاءً أكْثَرَ وَجُوعاً أكْثَر.

يقولُ رجالُ الثورةِ الخضراء إنَّ مُهِمَّتَهُمْ ومُهِمَّةَ بذورهم المعجزةِ هى رفعُ إنتاج الحبوب، فهذا هو المفتاحُ الأصلى للقضاء على الجوع فى العالم. المحصولُ الأعلى. يقولون. يعنى دخلاً أعلى للفقراء من الفلاحين، ويساعد على خروجهم من دائرة الفقر: الطعامُ الأكثرُ يعنى جوعاً أقل. ومعالجةُ الأسبابِ الجذرية للفقر المُسَبِّبِ للجوع سيستغرقُ وقتاً طويلاً، والناسُ الآن جَوعى يموتون من الجوع. علينا إذن أن نَفْعَلَ ما نستطيع: أن نَرْفَعَ إنتاجَ الغذاء، أن نشترى الوقتَ الذى يحتاجه العالمُ الثالثُ لمعالجة الأسبابِ الاجتماعية الحقيقية للفقر، ولخَفْضِ مُعَدَّلاَتِ الولادة. ولا يمكن لعلماءِ الثورة الخضراء ومستشارى سياساتها أن يطلبوا من أية دولةٍ فقيرة أنْ تُصلِحَ نِظَامَها السياسىَّ والاقتصادىَّ. إن كل ما يستطيعونه هو أن يُسهِمُوا بخبرتِهِم فى إنتاج الطعام. هذه مهمتُهم. لم يكُن لعلماء الزراعة أنْ يأخذوا البُعْدَ الاجتماعىَّ فى الاعتبار.

يقول بورلوج إن أزمةَ الغذاء الحالية، ولحد كبير، هى نتيجةٌ للاهمال الطويل للزراعة من قِبَل القادة السياسيين. فعلى الرغم من أن الزراعةَ تُوَفِّرُ الحياةَ لنسبة تتراوح ما بين ٧٠٪ و٨٥٪ من سُكَّانِ معظم دولِ العالم الثالث، فإن تطويرَ الريف والزراعة لم يَحْظَ من الساسة إلا بأولَوية دُنْيا. ثم إن الكثيرَ من الحكومات تتبع سياسةَ توفيرِ الطعام الرخيص لسُكَّان المُدنِ ذوى الوزن السياسى، على حساب سكان الريف.

ثورةٌ خضراءُ جديدة؟

بحلول القرن الواحد والعشرين يواجه العالمُ احتمالَ ظهور أزمةٍ فى الغذاء جديدة طاحنةٍ ومعقدة، تتطلبُ وسائلَ لتوفير الغذاء الجماعى أفضلَ من وسائل الثورة الخضراء. سيصل تعداد العالم عام ٢٠٢٥ إلى ٨.٣ بليون فرد، ويلزم أن يزداد الإنتاج بأكثر من ٥٠٪ لإطعام الأفواه الجديدة. الأمر يحتاجُ بلاشك إلى ثورةٍ «مستديمةِ الخضرة»، تحتاجُ المزيدَ من العلم الجاد لمواجهة تنويعةِ أعرضَ من المشاكل. لابد من اللجوء إلى البيوتكنولوجيا الحديثة والهندسة الوراثية، جَنْباً إلى جَنْبٍ مع طرق تربية النبات التقليدية. يمكنُ بالبيوتكنولوجيا اختصارُ الزمن وتقليل النفقاتِ اللازمةِ لاستنباطِ سلالاتٍ نَبَاتِيَّةٍ جديدة عاليةِ الإنتاج: نباتاتٍ تقاوم سُمِّيةَ التربة والآفاتِ والجفافَ والملوحةَ، نباتات عاليةَ المحتوى الغذائى. ثم لابد أيضاً أن يُسْتَغَلَّ التنامى الهائل لشبكات الاتصال، الذى تم فى السنينِ الأخيرة، لخَلْقِ نظامِ زراعىٍّ عالمى متكاملٍ، تنتقلُ فيه بسهولة ويُسر المعلوماتُ عن السلالاتِ المحلية والتقنياتِ الزراعية المُخْتَبَرَةِ مَحَلِّيًا فى مناطقها عَبْرَ الأجيال، لتجدِ طريقَها إلى العلماء فى كل مكان ليُضَمِّنوها أعمالَهم. وفى نفس الوقت «علينا أن نُرَوِّضَ غُولَ الزيادة السكانية، وأن يَظَلَّ الإنتاجُ الزراعىُّ راسخاً، وإلا فسيشهدُ القرنُ الواحدُ والعشرون مأساةً لم يسبق لها مثيل»، كما قال بورلوج بحفل تسلمه جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٧٠.

لكن هذا موضوعٌ طويل يحتاج مقالاً آخر. ■

كتاب الزاوية

مذكرات الأميرة جويدان

٣ - الخديوى واللورد كرومر

جلس الخديوى عباس حلمى على العرش وهو فى الثامنة عشرة من عمره، ولم تكن الظروف حسنة. فقد خلف أبوه توفيق باشا، وكان حاكمًا ضعيفًا.

ولما تولى العرش لم يجد فى بداية حكمه تعضيدًا كافيًا، فإن اللورد كرومر لم يكلف نفسه عناء الاتصال بالخديوى الصغير،فكان اللورد كرومر لا ينظر إلى الخديوى إلا كرئيس عنيد الرأى، وربيب له غير محبوب منه. لأنه كان مضطرًا لمخاطبته بلقب «يا صاحب السمو» وهو يعلم أن الخديوى ليس له من الأمر إلا هذا اللقب، على حين أنه كان يشعر بأنه هو الحاكم الحقيقى وكان هذا كافيًا لأن ينظر اللورد إلى الخديوى كدمية يجب عليها الطاعة، ولكن الطاعة كانت غريبة على خلق الخديوى منذ الصغر، وكان قوى العزم عنيد الرأى، وفوق ذلك كان محبًا للكفاح.

وليس من المعقول أن خديويًا . ولو كان نصف وطنى فقط . يتقبل صداقة ديكتاتور أرغم على قبوله من قوة معادية.فكان أصعب وقت مر على الخديوى هو الوقت الذى امتد فيه ظل كرومر فى مصر، فإنه كان يعامل الخديوى باعتبار أنه فى الثامنة عشرة غير عابئ بحدته ولا احتجاجه.

ولما حضر السير الدون غورست تنفس الخديوى. ولو أن غورست كان فى مصر عندما جلس عباس الثانى على العرش لكان ذلك أصلح لتطور أخلاق الخديوى، فإنه اتهم اللورد كرومر بأنه السبب فى بعض خبث الخديوى.

سمير حنا صادق

الحديث عن ... بين المعرفة والعلم والتكنولوجيا

■■ قال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه: «هذا حق يراد به باطل»، ومن الممكن القول هنا بأن «هذا باطل يراد به حق».

فى مقال فى النيويورك تايمز يناقش ستيفن هال Stephen S.Hall كتابا لدك ترسى Dick Teresi بعنوان «اكتشافات مفقودة Losi Discoveries» عن الأصول غير الغربية للعلم. يقول كاتب المقال أن ترسى ذهب إلى بورتلاند (أوريجون) بتكليف من مجلة لفحص مقرر مدرسى عن الأصول «متعددة الثقافات» للعلم، كان المقرر يحتوى على مواضيع تتحدث عن استعمال قدماء المصريين لطائرات شراعية معقدة التركيب وعن مقدرتهم الفائقة على تحريك الأشياء عن بعد Telekinesis أو Psychokinesis. وعن استعمال قبائل الإنكا فى أمريكا الجنوبية لبالونات مليئة بالهواء الساخن للطيران فوق سهولهم ووديانهم. دفعت هذه الزيارة ترسى إلى تحرير كتابه السابق الذكر، ويقول ترسى فى كتابه «من العجيب أن هذه الحضارات التى تملكت (كما يزعمون) الطائرات والبالونات قد استعملت السيف والرمح فى حروبها».

ولكن ترسى، كاتب العلم الجاد كما يقول ستيفن هال، لم يوجه كتابه فقط نحو نقد هذه الخزعبلات. فقد اكتشف، على حد قوله، فى دراسته لتاريخ العلم، أصولاً مهمة حقيقية للعلم الغربى فى بلاد العرب والهند والصين، ويقول ستيفن هال، كاتب المقال «إنها لاشك جرأة من الناشر طبع هذا الكتاب بعد أحداث ١١ سبتمبر، فهو يؤكد تفوق الذكاء العربى والعلم الإسلامى فى القرون القديمة والوسطى».

ولكن ترسى . فيما يرى كاتب هذه السطور . قد ارتكب نفس أخطاء المقرر المدرسى فى محاولة إثبات قضيته، فاستعمل أدلة باطلة فى استنتاج الحقيقة كما سنحاول أن نوضح بعد أن نتفق على التفرقة بين «المعرفة» و«العلم» و«التكنولوجيا».

يتفق أغلب المهتمين بشئون مجتمعاتهم أن أهم وسائل القوة والصحة فى عصرنا الحالى هى «المعرفة»، وقد أصبحت المعرفة الآن تتضاعف كل بضعة شهور. ويرجع الفضل الأول فى هذا النمو السريع إلى إحدى وسائل المعرفة وهو «العلم». ولسنا نزعم هنا أن «العلم» هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة، فلن يستطيع أحد أن يحدد «علميا» أسباب روعة السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، أو جمال تمثال «القبلة» لرودان، أو تفوق رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، ولكن وكما أوضحنا، فإن العلم أصبح يمثل الجبهة النامية سريعاً للمعرفة وبدونه تصبح المجتمعات مهددة بالسقم والضعف وبانهيار وجدانياتها ومقدساتها.

وإذا كنا نعرف ما هو «الطعام» دون أن يكون لدينا تعريف مانع، فإنه كذلك ليس لدينا تعريف «مانع جامع» للعلم. ويضاعف من صعوبة هذا التعريف فى مجتمعاتنا العربية أن كلمة «علم» تستعمل عادة بمعنى «معرفة». فاسم الفاعل منها Scientist (وقد كان صكه بداية فصل مجموعة «الفلسفات الطبيعية» عن فروع الفلسفة الأخرى) يعبر فى لغتنا عن طيف كبير من الناس، فهو قد يعبر عن «عالم» فى معمله أمام كمبيوتر يقوم بالبحث العلمى، وهو قد يعبر عن بروفيسور يقوم بالتنجيم وبمعرفة حظلك هذا الأسبوع وينتحل لنفسه لقب «عالم»، وهو أيضاً يعبر فى مؤنثه عن سيدة تقوم فى الموالد والأفراح بالرقص والغناء.

ورغم استحالة إيجاد تعريف مانع جامع للعلم، فإنه من الممكن والواجب الحديث عن خواص معينة له وعن تخليصه من بعض ما ألصق به من شوائب. ومنها مثلاً أنواع العلم الزائف Pseudoscience . الذى يصل إلى حد الدجل والنصب أحيانًا. وبشكل عام فإنه من أهم خواص العلم :

. القابلية للتكذيب Flasification واجتياز اختبار التكذيب. وهى المقولة التى تذكرنا بها دائماً الدكتورة يمنى طريف الخولى أخذاً عن كارل بوبر. وكمثال، فإن أغلب المكتشفات الطبية مثل اكتشاف علاقة سرطان الرئة بالتدخين، تتم بالفشل إحصائياً فى إثبات أن ما نراه هو مجرد صدفة، أى الفشل فى التكذيب.

. النشر العلمى. فالعلم مثل الزواج لا يصبح شرعياً إلا بعد العلنية. والنشر المطلوب هو فى المجلات العلمية العالمية المعترف بها والتى يفحصها ويحكم فيها المتخصصون، وليس فى المجلات التى انتشرت فى جامعاتنا ومعاهدنا التى لا تقرأ والتى لا يتطلب النشر فيها إلا دفع بعض الرسوم المالية.

. ويزيد من احترام العلم قابليته للقياس والتجريد الرياضى السليم.

. ويتطلب العلم الصحيح القابلية للتطور والتطبيق. إن قوانين كبلر Kepler (١٥٧١ . ١٦٣٠) عن مسارات الكواكب تستعمل الآن لرحلات الفضاء الخارجى. وقوانين ماكسويل Maxwell (١٨٣١ . ١٨٧٩) الأربعة عن الموجات مازالت هى المصدر لعديد من التطبيقات فى ميادين التليفزيون والليزر والضوء وغيرها.

ولكن، لعل أهم ما يواجهنا فى كتاب ترسى، وفى تعاملنا مع العلم فى مجتمعاتنا العربية هو الخلط بين العلم والتكنولوجيا.

لو اعتبرنا أن العلم هو مجرد ابتكار طرق جديدة للتعامل مع الطبيعة (كالزراعة وتدجين الحيوانات وإشعال النار)، فإن العلم وتاريخه سوف يكون خط سيرهما مختلفاً عما نظن أنه الطريق الأجدى لتفهم ظاهرة «العلم»، فإنه من الأجدى والأفضل أن نعتبر أن أهم خواص العلم هى استخراج قواعد معينة قابلة للتعميم فى أى مكان وزمان. لقد بنى المصريون الأهرامات بتكنولوجيا رائعة دون استخدام قوانين الروافع، وقام الصينيون بصناعة المفرقعات دون دراسة الكيمياء وقوانين الغازات، وقام مجهولون باختراع العجلة دون دراسة الاحتكاك والجاذبية. ومالنا نذهب بعيداً: إن العديد من الكائنات الحية تستعمل «التكنولوجيا» فى حياتها، ولعل أوضحها استعمال الشمبانزى لفروع الشجر فى القتال وفى استخراج الحشرات من جحورها، دون معرفتها بالعلم. ولا ينبغى أن ينال التمييز بين العلم والتكنولوجيا من أهمية الأخيرة، فلقد عاش الجنس البشرى (Homo Sapiens) وأجداده (Homo Erectus, Homo Habilis) ملايين السنين بالتكنولوجيا وبدون العلم. لقد أنتجت التكنولوجيا فى غياب العلم وقبله الزراعة، وصناعة المعادن والزجاج، وبناء المعابد والأهرامات، وصناعات البارود والطباعة. ومنذ خمسة آلاف عام بدأت صناعة المعادن وتمكن

العلم أصبح يمثل
الجبهة النامية سريعاً
للمعرفة وبدونه تصبح المجتمعات مهددة
بالسقم والضعف وبانهيار
وجدانياتها ومقدساتها

(Lost Discoveries), The Non-Western Roots of Scince.
اكتشافات مفقودة
الأصول غير الغربية للعلم
Dick Teresi
Simon& Schisste 2002

عمال حضارة بين النهرين من صناعة النحاس والبرونز، وتوجد آثار بجوار بغداد من عام ١٦٠٠ق.م تدل على تقدم فى صناعة الزجاج، وكانت هذه الصناعات تستجدى تدخل ومساعدات قوى ما فوق الطبيعة لضمان جودة المنتج، فتكتب لها التمائم وتتلى عليها التعاويذ. وهو موقف عزف عنه العلم تماماً.

ولكن المسافة بين التكنولوجيا والمعرفة العلمية فى الغرب بدأت تضيق فى عصر النهضة، وخلال القرن السابع عشر أدرك فرنسيس بيكون Sir Francis Bacon أهمية العلم فى التعامل مع الطبيعة ولكن هذا التزاوج بين العلم والتكنولوجيا كما اقترحه بيكون لم يتم على الوجه الأمثل، فلقد ضاع الصنّاع وعلى مدى قرنين من الزمان يبنون ويصنعون الآلات وينسجون الأقمشة بدون أى لجوء لمبادئ العلم. وظل العلماء فى الجانب الآخر يقومون بأبحاثهم دون أى اعتبار لأى تطبيقات عملية لها. ولكن فى عام ١٦٦٠ تم التزاوج بإنشاء «الجمعية الملكية» فى انجلترا التى بدأت بتحسين طرق الملاحة. ونشأت فى بلدان أخرى فى أوروبا هيئات مماثلة. ففى ألمانيا مثلاً تمكن عالم الكيمياء الألمانى لايبيج Julius Von Liebig من صناعة الصبغات الصناعية والمتفجرات والألياف الصناعية. وهكذا تم التزاوج، فلا يوجد مصنع يحترم نفسه لا يحتوى على مركز للأبحاث Researsh and Development (R&D).

ولكن، لا ينبغى لهذا التزاوج أن يعمينا عن أهمية التمييز بين العلم والتكنولوجيا، فإذا كانت التكنولوجيا حاليًا هى إحدى ثمار العلم، فإن للعلم ثماراً أخرى لا يمكن تجاهلها مثل علوم الرياضة والعلوم الإنسانية. والخلط التام بين التكنولوجيا والعلم يؤدى إلى ابتسار النشاط العلمى المجرد. فإذا تم ذلك فإننا نحطم جذور المعرفة العلمية. لكم رأينا فى المؤتمرات العلمية قادة لنا يقولون «التكنولوجيا على العين والرأس، أما العلم فهو ليس من أصولنا وتقاليدنا». وهو موقف خطر يتهددنا بتخلف جسيم.

أوقع الخلط بين العلم والتكنولوجيا ديك ترسى ومعه ستيفن هال فى أخطاء جسيمة فى تاريخ العلم. ففى رأيهم أن البابليين قد اكتشفوا نظرية فيثاغورس

الأصـــول غيـــر الغربيّـــة للعِـــلم

قبله بألف وخمسمائة عام، وأن الهنود قاربوا من اكتشاف التفاضل والتكامل قبل أوروبا بألف عام، وأن ابن الشاهر قد وصف مسارات الكواكب قبل كوبرنيكس بمائة وخمسين عاماً، وأن الصينيين صنعوا خرائط جيدة قبل ميركابتور Mercaptor وانهم قد اقتربوا من قوانين نيوتن للحركة فى القرن الثالث قبل الميلاد.

ويواصل ديك ترسى سرده لخليط وصفه هو نفسه بأنه «شعث Unkempt» من تاريخ مزعوم للعلم. فيتحدث عن صناعة الأزتيك للمطاط المقسى بالكبريت Vulcanized rubber قبل شركة جوديير Goodyear بقرون عديدة، وكيف تمكن الصينيون من صناعة الصلب التى ابتكرها بسمر Sir Henry Bessemer وكيف أن الاختراعات الثلاثة التى غيرت شكل الحضارة، وهى: البوصلة، والبارود، والمطبعة، قد وجدت فى الصين قبل أن يشعر بها الغرب بمئات السنين. وتحدث عن الصليبيين فقال: إنهم واجهوا أسلحة عربية مسلمة مصنوعة من صلب استجلب من مناجم أفريقيا وقسى فى جنوب الهند وطرق فى فارس والشرق الأوسط. وتطورت الأمور بترسى حتى زعم أنه وجد مشابهات فى الثقافة البوذية للجزئيات الفيزيائية الحديثة الاكتشاف، كذلك إشارات إلى أن الثقافات القديمة كانت تبعث على إحساس أحيانًا بتحدثها عن نظرية الكم.

وتحتوى خزانة ترسى، كما يصفها ستيفن هال، على العديد من الأشياء المثيرة للتعجب مثل اكتشاف الجيولوجى تشانج هنج Chang Hung الذى اخترع فى عام ١٣٢





ميلادية جهاز سيزموجراف يكتشف الزلازل ويحدد مصدرها، ثم يتحدث عن الخوارزمى وبيت الحكمة فى القرن التاسع فى بغداد والمرصد الذى بناه المأمون ونصف قطره ٢٠ قدماً، وهو ما يزيد كثيراً عن مرصد تيكو براها Tycho Brahe الذى صنع بعد سبعة قرون. ولا ينسى ترسى الحديث عن مراحيض مريحة التصميم فى الهند بل ويذكر بأن المصريين قد صنعوا علاجاً لقشرة الشعر من دهن فرس النهر! بهذه الأمثلة وبغيرها من المماثل لها، حاول ترسى، مؤلف الكتاب وأيده فى أغلبها ستيفن هال كاتب المقال، أن يثبت الأسس غير الغربية للعلم. ونحن نشعر أنه ارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه أصحاب المقرر المدرسى فى بورتلاند وإن كان بدرجة أقل.

وينبع الخطأ الأساسى فيما كتبه ترسى فى أنه خلط بين المعرفة والعلم والتكنولوجيا فى مزيج وصفه هو نفسه بأنه «شعث» كما ذكرنا من قبل واصطنع بذلك تاريخاً غير صحيح للعلم. وهكذا حاول أن يثبت الحق باستعمال الباطل.

ويرى العديد من فلاسفة العلم ومؤرخيه:

أولاً: إن العلم مشروع إنسانى خاص، له نشأته الخاصة وتياره الرئيسى الخاص، وإن ساهمت فيه بعض الإبداعات الفردية فى أنحاء أخرى من العالم.

ثانياً: إن هذه النشأة فى مكتبة الإسكندرية التى كانت أول مركز للبحث العلمى فى العالم وأنه انتقل بعد ذلك إلى الإمبراطورية الإسلامية، ثم إلى الغرب (إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا)، ثم إلى جميع أنحاء العالم وسنوضح بعض تفاصيل ذلك فيما بعد.

أما ما يقال كثيراً عن فيثاغورس وأرسطو، فإن الأول اقتبس نظريته المشهورة (مربع وتر المثلث قائم الزاوية يعادل مجموع مربع الضلعين) من مصادر عديدة، لعل أهمها الحبل الذى استعمله قدماء المصريين فى رسم الزاوية القائمة والذى ينقسم إلى ثلاثة أجزاء، طول أولها ٣ وحدات والآخر ٤ والثالث (مربع ٣ = ٩، ومربع ٤ = ١٦، ومربع ٥ = ٢٥: ١٦ + ٩ = ٢٥). أما أعمال فيثاغورس الأخرى فكانت أقرب، كما وصفها برتراند راسل، إلى صناعة ديانة سرية تأمر بالامتناع عن أكل الفول وتحكم بالإعدام على من يذيع أسرارها.

أما عن أرسطو فقد كان مثالاً للمعرفة غير العلمية؛ إذ يعتمد العلم فى استخراج قوانينه فى أغلب الأحيان على قدمين هما المشاهدة (استقراء Iduction) وإعمال العقل (استنتاج Deduction). ولكن أرسطو وقف على قدم واحدة وهى الاستنتاج: الأرض مركز الكون لأنها مقر الآلهة، ومسارات الكواكب دائرة لأنها شكل هندسى كامل (!؟)، وإذا ألقينا حجراً فإنه يهبط إلى مكانه الأصلى وهو الأرض، ومن الطبيعى أن سقوط الحجر الكبير أسرع من الحجر الصغير، وإذا صنعنا دخاناً فإنه يصعد إلى مقره الأصلى وهو السماء، وعدد أسنان السيدات أقل من عدد أسنان الرجال لأن أغلب الآلهة من الرجال فهم أرقى من الإناث (وأكثر أسناناً). وكل هذه الاستنتاجات خاطئة.

ولكن ما هو التاريخ الحقيقى للعلم؟

يتفق أغلب مؤرخى العلم على أن للعلم ثلاث مراحل أساسية مع بداية جنينية:

فالبداية الجنينية كانت فى أيونيا، وهى مجموعة من الجزر والمدن كانت موجودة على الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى (تركيا الآن) وكان من أهم نجوم هذه المرحلة طاليس Thales (٦٢٤، ٥٤٥ق.م) الذى صال وجال فى علوم الرياضة والهندسة واكتشف العديد من النظريات منها:

. إن قطر الدائرة يقسمها إلى قسمين متساويين.

. إن زوايا القاعدة فى المثلث متساوى الساقين متساوية.

. إن الزوايا المقابلة فى خطين متقاطعين متساوية.

. إن أى مثلث يمكن تحديده بتحديد طول خط القاعدة والزاويتين الموجودتين عليه.

وهكذا، ولأول مرة على مدى معرفتنا وجدت قواعد وقوانين تسرى على جميع المثلثات والدوائر فى أى مكان وزمان من الكون.

بل وهكذا بدأت استمرارية معرفية من طاليس إلى إقليدس الذى وضع كتابه الأوليات Elements إلى نيوتن الذى ابتاع هذا الكتاب (مترجماً من العربية) من سوق فى ستوربريدج Stourbridge فى عام ١٦٦٣ ففير مجرى حياته.

جاء بعد طاليس صديقه ناكسيماندر Anaximander (٦١٠، ٥٤٧ق م)، ثم أناكسوجوراس Anaxagoras (٥٥٠، ٤٣٠ق م)، وإمبيدوكليس Empedocles (٤٩٠، ٤٣٠ق م).

ولكن هذه البداية الجنينية اشتد عودها فى مكتبة الإسكندرية القديمة التى لم تكن مجرد مكتبة بل كانت مركزاً للبحث العلمى. فعلى مدى سبعة قرون قدمت هذه المكتبة مئات من العلماء والمكتشفات ومن أهم علمائها:

. إقليدس Duclid (٣٣٠، ٢٧٥ق. م) أبو الهندسة الإقليدية الذى تعلم على يديه كل علماء العالم حتى القرن العشرين عندما اكتشفت الهندسة «غير الإقليدية».

. هيروفيلوس Herophilus (٣٣٠، ٢٦٠ق.م) أول علماء التشريح والذى وصف البروستاتا والإثنى عشر وأعطى أسماءها والذى أثبت أن المخ وليس القلب أو الكبد مقر المشاعر والتفكير.

. أريستاركوس Aristarchus (٣١٠، ٢٣٠ ق. م) أول من تحدث عن مركزية الشمس Heliocentricity رافضاً مركزية الأرض Geocentricity، سابقاً كوبرنيكوس بقرون عديدة.

. أرشميدس Archimedes (٢٨٧، ٢١٢ ق. م) الذى ابتكر (إلى جانب قاعدته المعروفة عن الطفو والطنبور الذى لا زال يستعمل حتى الآن) أسس التفاصيل والتكامل وقرب «ط Pi» إلى أقرب مكان لها.

. إيراتوستينس Eratosthenes (٢٧٦، ١٩٥ق. م) الذى أثبت كروية الأرض وحسب محيطها بطريقة بسيطة عبقرية لا تختلف عما ثبت الآن إلا بحوالى ٤٠ ميلاً، والذى رسم خرائط الأرض على كرة ففتح عصر الملاحين العظام.

. وغيرهم.. وغيرهم.

ثم جاء دور الإمبراطورية الإسلامية.

سقطت الإمبراطورية الرومانية، ووصف الحالة جيبون Gibbon Edward صاحب الكتاب المرجعى «انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية»، بقوله «على مدى عشرة قرون لم يسجل اكتشاف واحد يجلب الكرامة والسعادة والصحة للجنس البشرى».

ولكن شعلة العلم التى أوقدتها مكتبة الإسكندرية انتقلت إلى أيدى الإمبراطورية الإسلامية ولمعت قمة ازدهارها فى عصر المأمون الذى أنشأ بيت الحكمة والمرصد السابق ذكره.

وقد أهمل التاريخ هذه المرحلة المهمة فى تاريخ العلم ونتج هذا عن عاملين:

أولاً: التراث المعادى للإسلام الموجود بالغرب منذ أيام الحروب الصليبية والذى

يدفع الدارسين إلى تجاهل ما يدين به الغرب من فضل للعلماء المسلمين. وهو موقف فكرى يزعم أن الإسلام لم يملك إلا السيف وأنه لم يكن للفكر أو للعلم أى دور فى بنـــاء الإمبراطـــورية الإسلامية.

ثانياً: تجاهل المؤرخين المسلمين أنفسهم لدور العرب فى تطور العالم. فقد سادت القيادات الإسلامية تيارات معادية للعمل وأشعلت موجات هستيرية لتثبت الكراهية له. واتهم العلماء المسلمون بالإلحاد وجلدوا وضربوا وأحرقت كتبهم.

ويسجل العالم الباكستانى الأصل بيرفيز هودبهوى Pervez Hoodbhoy فى كتابه الرائع «الإسلام والعلم Islam and Science» أن العلم والعقلانية قد أصبحت مكروهة من القيادات الإسلامية جميعاً بعد ابن رشد إلى الآن ما عدا فترات قصيرة حددها هو بأيام محمد على وجمال عبد الناصر. وقد تسببت هذه الكراهية فى تجاهل إسهامات الإسلام فى العلوم.

قام اهتمام الإمبراطورية الإسلامية بالعلم على أساسين:

الأساس الأول هو الترجمة، قام بذلك مترجمون كان يجزل لهم العطاء وأهمهم حنين بن إسحق وولده إسحق، وقد قدم هؤلاء تراجم كانت هى المصدر الأساسى لحفظ تراث علماء مكتبة الإسكندرية مثل كتاب العناصر لإقليدس وكتاب الماجسطى لبطليموس.

أما الأساس الثانى فكان الإضافات الإبداعية الجديدة فى ميادين العلم، فمن القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر ازدهرت أسماء علماء مثل جابر بن حيان، الكندى، الخوارزمى، الرازى، ثابت بن قرة، البيرونى، ابن سينا، ابن الهيثم، عمر الخيام.

ولما بدأ الغرب اهتمامه بالعلم كان المصدر الأساسى للمعرفة هى الكتب العربية، وكانت اللغة العربية مطلوبة من أى عالم غربى يحترم نفسه، وازدهر المترجمون من العربية إلى اللاتينية وكان من أهمهم جيرار Gerard of Cremona الذى عاش فى طليطلة وترجم ما ينيف على ٨٠ عملاً من العربية إلى اللاتينية وكان من أهمها الماجسطى والقانون لابن سينا.

ثم حرقت كتب ابن رشد فى الغرب واضطهد المعتزلة وإخوان الصفا فى الشرق، وانتقلت شعلة العلم إلى الغرب وصاروا إلى ما صاروا إليه وصرنا إلى ما صرنا إليه.

ولكن ما أهمية تصحيح التاريخ؟

أولاً: إثبات أن لنا تاريخاً أصيلاً فى العلم. وأكذوبة «أن الغرب مادى وعلمى وأن الشرق روحانى ووجدانى» لا أساس لها من الصحة، بل هى خرافة زرعتها فى نفوسنا أمثال قصيدة كبلنج Radyard Kipling الاستعمارية.

ثانياً: لعل أخطر أهمية لعملية التصحيح هذه هى أن نتذكر ما تذكرته أمريكا فى بيان ريجان عن «أمة فى خطر» وما تذكرته كل دول شرق آسيا: إن أساس العلم هو العلوم الطبيعية والرياضة والفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء والفلك، وأنه على الدولة أن تهتم اهتماماً شديداً بهذه العلوم وبتاريخها وبعلمائها. أما التكنولوجيا فهى كفيلة بنفسها.

وقد ابتلينا فى عالمنا العربى بالخلط بين العلم والتكنولوجيا أو بالأحرى بالهروب من العلم إلى التكنولوجيا. فكم حاولنا التقدم علمياً بعمل خطط وهمية هى فى الحقيقة خطط لتنمية تكنولوجيا تحت زعم أنها خطط للعلم «النافع». وهكذا قطعنا علاقاتنا بالعلم وانحدرت كليات العلوم بعد أن كانت من كليات القمة إلى ما صارت إليه الآن. وارتكبنا فى هذا المجال أخطاء فادحة، منها إلغاء السنة الإعدادية فى كليات الطب، ومنها التفكير فى إلغاء قسم الرياضة فى بعض كليات العلوم. ومنها الحديث المستمر عن «تقليم» مقررات الدراسة بحذف تفاصيل العلوم الأساسية. وهو خطأ فادح، فالعلم مثل شجرة باسقة: جذورها هى العلوم الطبيعية وثمارها كثيرة منها التكنولوجيا. ولا تقلم الأشجار بقطع الجذور.

لقد حرر ديك ترسى كتابه فى محاولة لإثبات الأصول غير الغربية للعلم وهى حقيقة تاريخية، ولكنه ضل الطريق فى تقديم أدلته والدفاع عن الحقيقة.

ويقول ستيفن هال فى آخر مقاله إن كتاب Lost Discoveries يمكن أن يكون أساساً لمقرر خاص عن تاريخ المعرفة يسمى «التواضع Humility». ■

كتاب الزاوية

مذكرات الأميرة جويدان

٤- الحريم فى مصر

لا يكاد الرجال، وعلى الأخص الأوروبيون، يسمعون كلمة الحريم، حتى ينصرف خيالهم إلى الرقص والغناء أو بركة من الماء المعطر تتواثب حولها العذارى والفتيات.

ولكن الذى وقعت عليه عين الحريم فى مصر ليس فيه شىء من هذا الخيال. فالجوارى فيها فتيات يلبسن ملابس بسيطة نظيفة، ولكنها غير مغرية. فالحريم بكليته تسيطر عليه امرأة، وهى زوجة السيد أو أمه أو رئيسة الجوارى. وفى كل هذه الحالات تحرص صاحبة السلطان على ألا تبدو الجارية أمام سيدها جميلة فالزوجة تفعل ذلك بدافع الغيرة، والأم حرصًا على ألا يتزوج ابنها من جارية. ورئيسة الجوارى طمعًا فى أن تصبح هى السيدة.

وعلى هذا فالجوارى فى مصر لسن أداة للتمتع واللهو، وإنما هن خادمات، وإن كن أقل من الخادمات حقوقًا، فهن لا يتناولن أجرًا على خدمتهن. ولا يستطعن مغادرة بيت المخدوم إلى بيت سواه.

وكلما علا شأن البيوت زاد عدد الجوارى فيها، لأن التقاليد فى الحريم المصرى تقضى بألا تقوم السيدة بعمل ما. فتقديم القهوة له نظام خاص، وحمل الملابس على البدلة له نظام خاص، وتقديم كأس من الماء له نظام خاص أيضًا. ولهذا قد يرى الإنسان كثيرًا من الجوارى منهمكات ولا يرى عملاً يؤدى. فهناك مثلاً «سفرجى كالفة» ووظيفتها الخدمة على مائدة الطعام فقط، وهنا «قهوجى كالفة» وعملها تقديم القهوة فقط. وهنا «شمورجى كالفة» ووظيفتها تحضير الملابس للسيد، وعملها ينحصر بين الحمام وغرفة الزينة وغرفة النوم.

"خليها على الله"

من يحيى حقى إلى ابنته

علاء الدين وحيد

▪▪ «دعاء للمولى سبحانه وتعالى أن يسعدك. وأن يهبك صحة البدن والروح والعقل. أن يجعل محبة الناس لا تنقطع وأن يجنبك شرار الناس وأرذالهم والذين تنهشهم الغيرة وحب النكد. وأن يجعل المولى جيبك دائماً عمراناً ويدك لا تخلو من النقود وأن تبقى مع ذلك كريمة على الفقراء.. (وعلى والدك أيضاً!) وأن لا تفارق الابتسامة ثغرك ولا الدعاء إلى الله قلبك وأن ترى الدنيا حلوة فى الصباح وفى المساء وأن لا تشعرى بما لا طاقة لك به من تعب أو إرهاق أو ملل أو إعياء وأن تبلغى كل مطالبك وأن تسيرى الهوينا كأنك فى نزهة فلا جرى واللسان مدلدل».

يحيى حقى

«رسائل يحيى حقى إلى ابنته. ص ١٦٢».

[١]

الانفصام فى شخصيات كثير من الأدباء العرب. يجعلهم مع كل ما يكتبون من إبداع يتناول شتى المجالات بحرية واسعة وتحرر. يخفون تماماً عن قرائهم ما يتصل بحيواتهم الخاصة. ربما لأنها على نقيض ما يسطرون ويبدون على الورق. ومن أول هؤلاء فى بلادنا نجيب محفوظ.. الكتوم بهذه الخصوصيات كأنها نوع من الأسرار الحربية. ولذا لا ندهش أن يجهل أصحابه وزملاؤه فى الوظيفة. وقد ظل طوال عمره موظفاً إلى أن أحيل إلى المعاش. طوال نصف قرن.. عنوان منزله ورقم تليفونه وأى شىء عن أسرته. بل وأكثر من ذلك.. هل هو متزوج أو أعزب! إلى درجة أن يقول رئيسه فى إحدى هذه الوظائف وهى مصلحة الفنون. وكان يحيى حقى: «يا نجيب.. ألا توجد مرة تخطئ فيها وتتحدث عن البيت والست المريضة والابن الذى يشغل بالك. فكان رد نجيب محفوظ ضحكة من ضحكاته المميزة دون أن يعلق بكلمة!». (إبراهيم عبد العزيز. مقدمة «رسائل يحيى حقى إلى ابنته». ص٧١).

وهذا الانفصام أو عدم الصدق وإخفاء المشاعر الخاصة حتى المشروعة منها، له تأثيره السيئ على الإبداع.. فيتسبب فى جفاء العالم الفنى الذى يقدم، وهو يفتقد أهم خصائصه وهى الصراحة والعفوية وسلامة الطوية المنبعثة من الروح الفطرية. وعلى العكس من نجيب محفوظ تماماً. قلة من الأدباء العرب الكبار مثل يوسف السباعى ويحيى حقى. فالعقل المفتوح والقلب المفتوح يفضيان إلى الأحاسيس المفتوحة التى لا تكتم شيئاً. وقد انهارت كل السدود الحقيقية والمفتعلة بين الفنان والمتلقى. ومن هنا يشيع الدفء والحب والثقة بين الجانبين، وتكون الرسائل الخاصة التى يكتبها الأديب إلى فلذة كبده.. لوناً آخر من هذا البوح الصادق غير المفتعل.

وقد قدم إبراهيم عبد العزيز «رسائل يحيى حقى إلى ابنته» تقديماً جيداً طويلاً. حوالى ٧٥ صفحة. شأنه فيما سبق من رسائل طه حسين وتوفيق الحكيم.. أحاط بالأب والأم والابنة، مختصراً كثيراً من موقع زوجة الأب. ورسائل يحيى حقى أكثر خصوصية من الرسائل التى كتبها أحمد حافظ عوض فى «من والد إلى ولده». أو أحمد أمين فى «إلى ولدى»، لأن كلاً من الرسائل الأخرى كتبت كمقالات للنشر، توجه إلى الابن وكل الأبناء.. العام فيها أكثر من الخاص، بينما رسائل حقى على العكس.

[٢]

والرسالة بين أفراد الأسرة تنقسم عادة إلى جزءين: الأول يسأل عن الصحة والأخبار، والثانى يفضى صاحبها بما عنده من خاص أمره وما يهمه. وهما قسمان غير متساويين، بل يتراوح كل منهما بين القصر والطول حسب ما تحمل المناسبة.

يكتب الأب فى القاهرة إلى وحيدته التى تصطاف بالإسكندرية، رسالة بتاريخ ٢ يونية (بلا تحديد للسنة) يستهلها بعبارته التقليدية «بنتى الحبيبة نهى». ويبدؤها بوصف القنوط الذى يعانيه فى عز الصيف.. «الدنيا حر جداً هنا». ويتساءل عن الجو عندها وهل نزلت البحر، وهل تعرفت على أصدقاء؟ ويجد أن ليس عنده أخبار كثيرة.. ثم يفضى بما يشجيه.

ويبعث على تسطير الرسالة عامل من اثنين: البدء بالكتابة أو الرد على أخرى. ولكن هناك هدفاً ثالثاً.. كان يدفع يحيى حقى أيضاً إلى أن يفعل.. وهو مجرد شوقه إلى ابنته والأنس بلقائها وهو يخاطبها على الورق، فيدبج خطاباً لها يستوعب بعض لهفته الزائدة إليها.

«عزيزتى نهى. صحيت وأفطرت وحليت الكلمات المتقاطعة فى «الأهرام» وعقلى بالى قال لى أكتب لك هذه الكلمات القليلة لأشعر أنك بجانبى وأنا بجانبك»!

وإذا لم تفصح هذه الكلمات بشكل كاف، لما يحمل الأب الحنون لفتاته من حب غامر.. ففى رسالة أخرى تعرض بعض هذا الحب.

«أفكر فيك وأحلم بك وأناجيك ويتصل ذهنى بك، وقلبى وأعصابى وذبذبات أوتارى ورنة طبلتى وجريان ريقى ومصمصة لسانى، وبربشة عيونى، وحك رأسى، وقولة أستغفر الله، اللهم اجعله خير..».

وفى رسالة أخرى بتاريخ ١٩٨٢/٤/٩ يكتب:

«المهم هو أشواقى إليك وتفكيرى فيك وأحلامى بك وانشغالى عليك واتجاهى نحوك وتبخيرى لك ببخور الست من فوقك لتحتك. أما حشو هذا الدعاء من أخبار فمثل حشو ورق العنب باللحم، اللحم قليل جداً لأنه نادر وكذلك أخبارى التى أحشو بها كل هذا الدعاء نادرة أيضاً فالأيام تمر متشابهة».

وهكذا تتحول السطور إلى مناجاة عاطفية، تنبع خالصة من القلب بشعور متدفق بالغ الصدق والحنو. فى الخطاب المؤرخ فى الأحد ٩ مايو ١٩٨٢، تجىء هذه الكلمات:

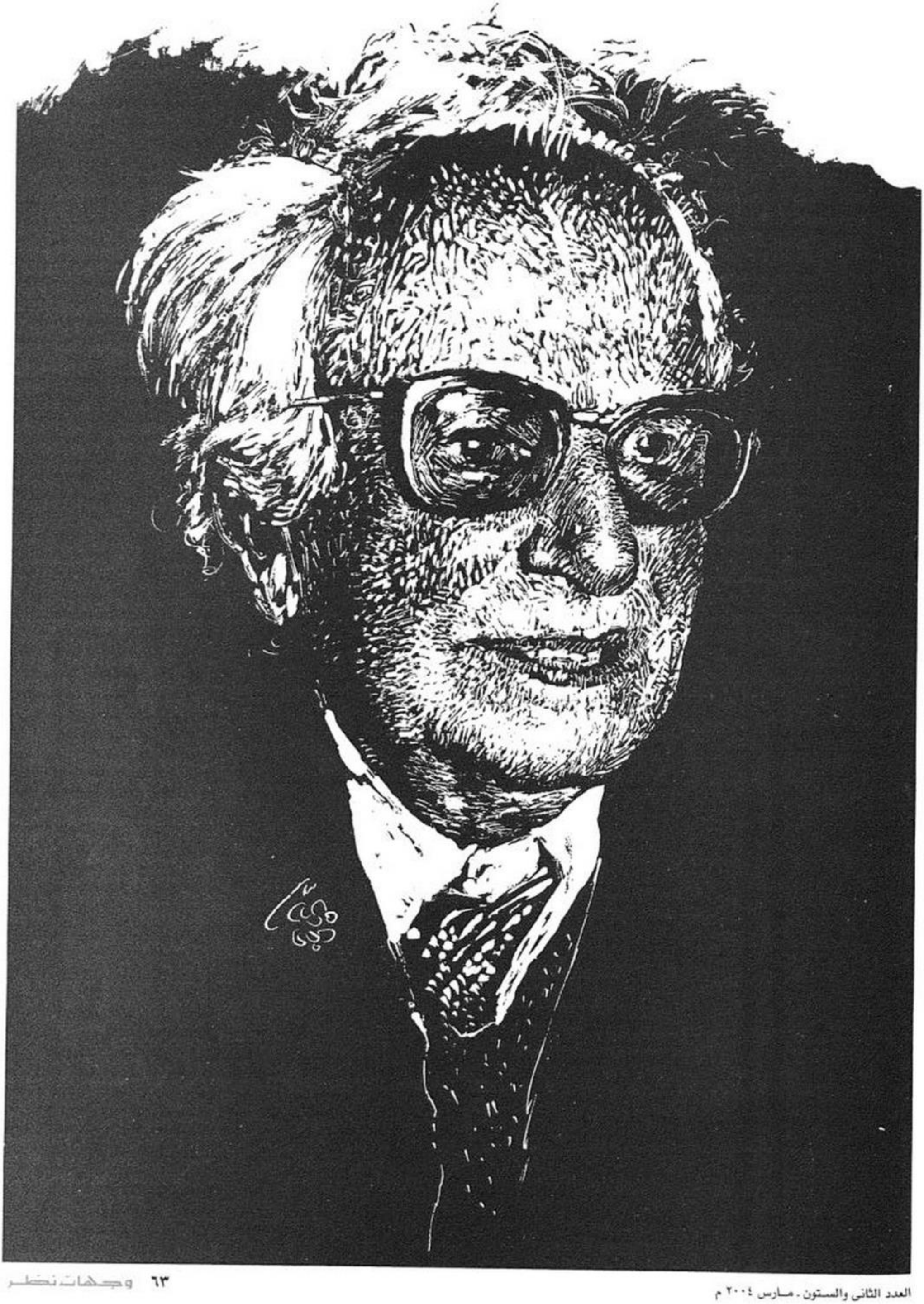
«العقل والفكر والقلب واللب والنبض والتنفس والنوم واليقظة والأحلام عندك».

اتخذ يحيى حقى الأسلوب غير المباشر فى تربية وحيدته منذ طفولتها، ولذا جاء النصح الصريح قليلاً. كما عرفها منذ وقت مبكر فضيلة الاعتماد على النفس والاستعانة بالخالق. وفى إحدى رسائله يكتب لها: «خللى تكالك على الله ولازم تشدى حيلك علشان مواجهة الحياة. كل نصيحة لا تنفع، المهم أنك بنفسك تشدى حيلك وإرادتك وشجاعتك.. اوعى تصدقى إن حد ينفعك زى ما تنفعى نفسك بنفسك».

وهو يتألم كثيراً لما تتعرض له فتاته من هموم ودناءات الناس التى تكتب له عن بعضها. ويحاول أن يخفف عنها. وعندما تتغلب عليها وتزول الشكوى وتكتب له بذلك يسر كثيراً. «خطابك الأخير أثلج صدرى لأنه ربما كان أول خطاب لا يذكر شيئاً عن المتاعب التى تأتى من داخل النفس. وهى فظيعة. أو من الناس وهى أفظع. شعرت بسعادة كبيرة ودعوت لك من كل قلبى أن يديم عليك الطمأنينة والراحة والهدوء والسكينة والاستقرار والأمان والإيمان والتوكل على الله».

اتخذ يحيى حقى الأسلوب غير المباشر فى تربية وحيدته منذ طفولتها، ولذا جاء النصح الصريح قليلاً. كما عرفها منذ وقت مبكر فضيلة الاعتماد على النفس والاستعانة بالخالق. وفى إحدى رسائله يكتب لها: «خللى تكالك على الله»

رسائل يحيى حقى إلى ابنته
إبراهيم عبدالعزيز
القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١



«خليها على الله»



ولأن روح الرسالة الشخصية هو منتهى الصدق واستقراء النفس وطرحها على السجية، فهى تضم فى أعطافها أيضاً الحياة العامة، وما يتعرض له المجتمع من هزات وتدهور ونكسات تصيب الناس جميعاً.. فهبوط الأخلاق واستفحال الأنانية، تزيد من التكالب على المادة وما يفرز من جشع وشر. «فى كل يوم أسمع حولى من يقول لى ليه الناس بتاكل فى بعض. وكل فنان فى الإذاعة يقول الوسط الفنى اليوم مليان سكاكين تضرب فى الظهر».

وفى المجتمع متدهور القيم مفلوت العيار الذى يكثر فيه الفاشلون، يصبح النجاح مدعاة للغيظ والحقد. وتتعرض نهى فى عملها بتليفزيون البحرين لغيرة الآخرين وعدائهم وتشويه أعمالها، فتتألم وتحزن، وتكتب بذلك إلى أبيها. ويرد عليها.. لا مهدهداً مخففاً عنها أحزانها، منددا بعقد الناس فحسب، بل أيضاً بنقدها هى ذاتها! فهو أعرف البشر بتكوينها جيداً، أو كما يقول فى إحدى رسائله إليها «عاجنها وخابزها». فهو يدرك نواحى ضعفها التى تضاعف من الخطر الذى تشكو منه.

يكتب يحيى حقى إليها، كأنه يحدد لها دستوراً واقعياً للحياة العملية:

«لم أستغرب الغيرة حولك وأنا قلت لك هذا من قبل. وهذا طبيعى ولكن يحد منه إنك تقللى من مظاهر الشعور بالتفوق والهمة، وطلب الثناء من الغير. اعملى شغلك بدون حزق. اشعرى أنك تخدمين عملك لا نفسك. وإذا شعرت رغم ذلك بالغيرة فلا تكونى متطرفة فى الحساسية أو خلى كل حاجة تروح بعد ليلة واحدة من النوم. وكل صباح يوم جديد وهم جديد ومشاغل جديدة يعنى لا نكوم هم الأمس على ظهرنا طوال الوقت».

ولأن الأب يعرف ضيق النفس بالنصح، ولأنه أيضاً يقوم بهذا الدور مضطرا.. فهو يعقب على كلماته بقوله بأسلوبه المرح: يا عينى يا عينى على النصايح الأبوية التى لا تنفع أبداً»!

ويقول فى رسالة أخرى عن النصح الذى لا يجد استجابة وبالنسبة إلى وحيدته بالذات: «هل تذكرت كلاماً قلته لك مائة مرة فوقع على أذن من طين وأذن من عجين؟».

[٣]

من الطبيعى أن يكون ابن البلد الصميم يحيى حقى، شديد الإيمان بالله ورسوله.. يعتمد على الخالق فى الكبيرة والصغيرة.. مستشعراً قدرته ورحمته وعظمته فى كل آن. وتعكس رسائله بشكل واضح هذا الإيمان المكين فى السر والعلن. فى خطاب بتاريخ ١٧ أبريل ١٩٨١ يستهله بهذه الكلمات: «بنتى العزيزة نهى. قبل أن أبدأ أتوجه إلى الله سبحانه وتعالى من كل قلبى بالدعاء لأن يشملنا أنت وأنا برحمته ورضوانه ويسدل علينا الستر ويهدى السر. ويعلمنا كيف نشكره على نعمائه ونصبر لما يختاره لنا من قدر».

وتتضاعف الحاجة إلى الله والاتكال عليه، ساعة الأزمات.. فهو نعم المعين ومخفف الآلام ومزيل الكروب. فى رسالة أخرى يكتب الأب: «طب إيه العمل؟ مفيش غير ربنا نتوكل عليه ونترك كل شىء له ونسأله أن يحكم علينا بالعدل بل وبالرحمة وهو عارف بالقلوب والنيات وإن الضرورات تبيح المحظورات».

لقد أكدت رسائل يحيى حقى إلى ابنته، أن الرجل ظل طوال عمره وفى حياته الشخصية وليس فى أدبه فحسب.. شديد الصلة بالسماء والإيمان بالله، رغم كل ما نهل من الثقافات الأجنبية وعاش فى الحياة الفرنسية بالذات. وأنه يبز فى ذلك كل أضرابه الذين سافروا إلى الخارج أو تعلموا هناك، وتغير موقفهم كثيراً أو قليلاً من الدين ومن الله، ثم عادوا إليهما بعد ذلك. وليس أدل على استغراق كاتبنا فى عقيدته، من استعانته بالقرآن شفاء للنفس المعذبة والروح القلقة والوساوس أو الأوهام التى تتربص بالإنسان أحياناً، فتزعجه وتؤلمه وتمرضه. وكانت هذه الأعراض قد مرت بابنته وهى فى الغربة. يكتب فى ٤ أكتوبر ١٩٨٢:

«.. ونصيحتى لك حين تقومين من النوم وأنت منزعجة أن تتعوذى (أعوذ بالله) وأن تبسملى (باسم الله) وتقرئى سورة من القرآن (رب اشرح لى صدرى) وتتوكلين على الله ففى يده وحده الرحمة والشفاء ولن ينفعك مخلوق. هدئى من روعك وتعلمى الصبر والاتكال على الله يا نهى».

ويعقب متألماً.. «قسمتى فى آخر عمرى أن لا أفلح ولا أنجح فى إبعادك عن الوساوس، والهواجس والاضطرابات ولا تعلمين كم أنا حزين لذلك».

ولكن الابنة لا تقاوم بما فيه الكفاية ولا تصمد لما يجتاحها من أوهام تحطم أعصابها، بل تترك نفسها لها تعبث بها كما تشاء مما يزيد انزعاجها. وتكتب بذلك كله فى خطاب لاحق إلى أبيها، فيرتاع الرجل العجوز.

«قلت لك إننى قلق فما بالك بعد أن وصلنى اليوم فقط خطابك المكتوب قبل العيد والذى تصفين فيه حالتك الصحية بصورة مزعجة جداً ومخيفة جداً وتصورى حالى إزاى بقى. أعمل إيه يا رب. أعمل إيه يا رب. كل الكلام مش نافع وكنت أتعشم فيك ولو ١٠/١ من قوة الصمود و١٠/١ من قوة التوكل على الله. ولكن كل هذا فشوش فى فشوش. مش لاقى كلام أقوله لك يا نهى لأنى مغموم قوى قوى قوى..».

وبالرغم من أن نهى كانت الأكثر تأخراً فى الرد على الرسائل، إلا أنها الأكثر شكوى من أبيها الذى يتباطأ فى الكتابة إليها! ولا تكتفى بأن تتضمن خطاباتها ذلك، بل هى توصى كل من تبعثه بالمرور على والدها أن يطالبه بذلك!.. «والله هذه الجملة يا نهى لا تتغير بقت أكلشيه»!

ويصور يحيى حقى فى إحدى رسائله ما يصيبه من الآم حين تتأخر خطابات نهى.. «أخيراً والحمد لله وصلنى أول خطاب وأبادر بالكتابة إليك راجياً أن تنتظم المراسلة، لأنى أحس بأنى جعان وعطشان وبردان وحران وحازقان وغلبان حين يتأخر حضورك معى بالكتابة. آه يا نهى. نعمل إيه، وفى إيدنا إيه. السعادة والرضا من عند الله. وهيهات لمخلوق حتى أقرب الناس أن يحس ما يحس به الموجوع، ولأننا لا نحصل على ١٠٠٪ من مطالبنا نيأس ونرمى كل شىء فى الهوا ونبكى على روحنا بدلاً من مساعدة الآخرين».

ويشعر أنه ينساق مع عواطفه، وربما خرج عن الموضوع، فيكتب معقباً: «الفلسفة نازلة على اليوم زى الدش لواحد ما عندوش فوطة.. يفضل يشر ومناخيره تنز»!

ومن الملاحظ أن خطابات يحيى حقى إلى وحيدته قصيرة، ومعروف أنه أيضاً فى إبداعه «على القد» لا يحب التزيد، ومن جانب آخر يكره الثرثرة. ولذلك فهو فى رسائله لا يطيل. وابنته تدرك هذا جيداً، تعرفه يفضل دائماً الاختصار أو أسلوب ما قل ودل. لا يحب «اللت والعجن» فى الكلام. وهو يذكرها مرة بذلك، لافتاً إياها أن عدم الإطالة فى رسالته مرتبط بنضوب أو قلة الأخبار. يقول لها فى أحد خطاباته:

«لا يدل قصر الخطاب على قلة الأشواق ولكن على قلة الأخبار، فأيامى متشابهة وأصبح النزول للبلد من الجحيم، أصبح المشى مستحيلاً وحتى فى مصر الجديدة».

وفى رسالة أخرى يؤكد هذا المعنى بقوله: «كنت عاوز ألت وأعجن معاك لكن والله العظيم ما عنديش أخبار وكل الأيام متشابهة..».

يكتب فى رسالة ثالثة: «وأنا قاعد على حافة السرير. والملة سلك مخوخ وتحت اللمبة عشان أشوف. أكتب لك بيدى وعقلى وقلبى كأنى احس بأن سلكاً كهربائياً ممدوداً بين مصر والبحرين، وعاوز أرغى وأثرثر وأحكى من هنا لغاية بكرة بس ربنا يقدرنى الاقى أخبار. منين ونحن. أنا وجان (زوجته) وإخوتى. على المعاش تحركاتنا ضئيلة واتصالاتنا محدودة، وخروجنا ودخولنا بالحساب..».

[٤]

ويكاد يحيى حقى فى رسائله لا يذكر متاعبه الصحية فى سنواته الأخيرة، فإذا قلقت عليه ابنته وكتبت له عنها سارع بالإنكار أو التخفيف منها.. حامداً الله وشاكراً نعمه. فى أحد خطاباته يشير إلى انتظاره لعودة طبيب أسنانه لتركيب طقم جديد، فلا يحمل الحديث أقل رنة شكوى.. بل على العكس.. يسطر صاحب «خليها على الله»:

«أعرف ناس يأكلون بدون أسنان وبدون طقم.. كأنهم يقولون ليس المهم نأكل بإيه، بل إيه اللى نأكله ومادام لقيناه نحمد ربنا، فأيهما أتعس.. واحد عنده طقم ومش لاقى حاجة يأكلها وواحد بدون طقم وربنا فاتحها عليه؟»!

يقابل قلقه الزائد عليها قلقها الزائد عليه، خاصة بعد بلوغه السبعين والعمر يتقدم والصحة تعتل أكثر والأمراض تتناوبه. يحاول أن يزيل هواجسها عليه ما استطاع، مؤنباً إياها على مبالغتها.. متجاهلاً أنه واضع البذرة فى شدة الحساسية وذوبان العاطفة. يكتب إليها فى أول فبراير ١٩٨٢ مهوناً من فزعها على وجع أسنانه:

«لازم إنك بتشوفى الأيام دى أحلام زى وقوع السنان وأمثال ذلك. لأنه لاداعى مطلقاً للقلق. بسبب لثة أو تسوس ضرس أو خلع ضرس. وفيه ناس كتير عايشين من غير أسنان بعضهم عمره ٦ أشهر وبعضهم ٦٠ سنة وما فوق زى حالاتى»!

وكان يحيى حقى يبلغ فى ذلك الوقت ٧٦ سنة، كما يشير فى نفس الخطاب.

وفى رسالة أخرى بعد السابقة بحوالى ثلاثة أسابيع أى بتاريخ ١٩٨٢/٢/٢٢، يكتب إلى ابنته مهدئاً مخاوفها:

«ومن هنا الصحة عال، ولم ألبس طاقم الأسنان الجديد لأن الحكيم حاطه فى جيبه وسافر لأمريكا وسيرجع أول الشهر. واطمئنى واهدئى ولا يكون عندك أى فكر ولا انشغال البال والبلبال. وحطى فى بطنك بطيخة صيفى. وخليها على الله والصبر طيب وكل شىء بيد الله ويابن آدم اجرى جرى الوحوش غير رزقك ما تحوش»!

وإذا كان لكل بيت مصرى همومه المنزلية الخاصة. فله أيضاً همومه المنزلية العامة، التى يتعرض لها هو وغيره..

وتصييب المجتمع أو الحى أو الشارع.. وهى مسئولية الحكومة فى المقام الأول من تغيير مصدر مياه الشرب التى تجىء فى المواسير، وتصبح مالحة بعد أن كانت عذبة! ويكتب الأب إلى ابنته ضاحكاً.. عن تفكيره فى مطالبة صاحب البيت بتعويض! «لأنى ماسكنتش عندك إلا لما لقيت المية حلوة ودلوقت بقت مالحة. حيقول لى طيب وأنا أعمل إيه ما هو حالى زى حالك. الصابونة ما ترغيش والميه مالهاش طعم ولازم نقعد كام يوم عبال ما نتعود عليها وكل حاجة بنى آدم يتعود عليها..»!

والرسائل وهى مجال بوح، تتيح الفرصة أيضاً لاستعادة الذكريات القديمة. يذكر يحيى حقى لابنته بمناسبة بداية الشهر العربى. كم من المثقفين العرب يهتم بذلك؟. عندما كانت أمه كعادة أمهات زمان فى الأحياء الشعبية. تصعد به إلى السطح. وكانت هناك سطوح. لمشاهدة الهلال الوليد، متطلعة إلى السماء وإلى وجه ابنها.. داعية له بالتوفيق، منتظرة على وجهه السعد للأسرة.

«أمس رأيت هلال المحرم أول السنة. وكل مرة أدعو الله من قلبى أن يجعله خيراً. وكانت أمى رحمة الله عليها تحب أن تغمض عينيها بعد رؤية الهلال وتفتحها على وجه واحد من أولادها وتقول له: «لما نشوف وشك علينا الشهر ده يطلع إيه؟»!

ولا يكتفى يحيى حقى بتسجيل الملمح القديم من أيام طفولته، بل يعرض أيضاً تأثره بالمشهد الفولكلورى سلباً وإيجاباً. «وكنت كل مرة أخاف لما تشوف الهلال على وشى أحسن تطلع حاجة وحشة تقول ده وش يحيى»!

وأهمية الرسائل أنها تعرض للحياة الخاصة فى جانبها الإنسانى، الذى يكشف أعماق شخصية صاحبها فى ناحيتها القوية والضعيفة وإيجابيتها وسلبيتها، كما تفسر دوافع عالمه الفنى.. بجانب ما تعرض من دقائق دفينة غير معروفة لأنها غير معلنة. ومن هذه الدقائق المستوى المعيشى أو المالى. فيحيى حقى الاسم المشهور الذى عمل بوزارة الخارجية، والموظف الكبير مدير مصلحة الفنون، والأديب ذائع الصيت والمتزوج من فرنسية أيضاً.. من المنتظر مع هذا كله أن يعيش فى رغد وثراء كبير. ولكن الصورة من الداخل على النقيض.

يحدث أن أصيبت زوجته جان بألم فى الصدر وسعال، لا يلائمه صيف القاهرة الحار الرطب.. «ونفسها تسافر حتة طرية بس مش رطبة. ولغاية دلوقت مش عارفين إيه نعمل؟». ولكن السفر يحتاج إلى مال وهو لا يملكه، مما أحزنه وأثر عليه حتى وهو يناقش كتاباً فى ندوة ثقافية.

وحياته المتواضعة ذات الكبرياء تعرضت

«خليها على الله»



لصدمة يوماً. عندما دعا محمد جبريل فى جريدة «المساء» إلى الاحتفال بعيد ميلاد يحيى حقى الـ٨٥ احتفالاً كبيراً مناسباً.. وكان ضمن الكتّاب الذين أدلوا بأفكارهم الناقد فاروق عبدالقادر الذى طالب «ألا نجعله محتاجاً قبل أن نطالب بتكريمه. خاصة أن المسئولين عن الثقافة لا يدركون أنه يحيا حياة مادية متواضعة بالقياس إلى مستوى الحياة التى يحياها أى كاتب لمسلسلات التليفزيون. ويتألم الرجل ألماً شديداً وهو يحس أنه أوذى فى كرامته. ويكتب إلى ابنته:

«الناس شايفانى معنديش عربية وأركب ساعات «المترو» فاكرينى محتاج لحسنة أو معونة. مش عارف أودى وشى فين».

ويستأثر الحيوان المستأنس باحتفال يحيى حقى على المستوى الشخصى ويظهر ذلك فى خطاباته. فهو وزوجته يهويان تربية الكلاب. وفى إحدى الرسائل يتحدث كاتبها عما منى به الزوجان من وفاة كلبهما الأثير، الذى حزنا عليه كثيراً. فى رسالة بتاريخ ١٥ يناير ١٩٧٦ يقول فيها:

«بعد أن عالجنا فيديل من القروح لاحظنا أنه يمشى بصعوبة يوم الأحد الماضى ولكنه طلع السلم وحده. وأكل قليلاً.. ثم عندما جاء المساء إذا به يلهث بشدة ويهتز رأسه وظل على هذا الحال حتى أخذته جان على حجرها وبين ذراعيها، فإذا به يلفظ أنفاسه الأخيرة فى منتصف الليل. وقد رأيت طلوع روحه كأنه بنى آدم. لا تسألى عن بكائها ودموعها ونواحها ونهنهتها وزفراتها وآهاتها. وقد أحسست بحزن شديد هز قلبى وأحسسنا بفراغ بعد غياب صديق عاشرنا ١٢,٥ سنة وأغلب نومه معنا فى فراشنا».

وفى رسالة أخرى يتحدث عن حمامتين، كأقصوصة فنية بارعة.. إنسانية واقعية شديدة العمق وإن عولجت بالعامية. زوج الحمام الذى يربيه، اختفى الذكر منذ أيام.. «هل هو حى أم ميت. والست بتاعته فضلت وحدها وكانت راقدة على بيضة واحدة فكسرتها وبعد كام يوم طارت هى كمان واختفت..»! وهجست الظنون التى استهدفت الجيران، الذين لاشك اقتنصوها وأكلوها! ويقطع الشك باليقين، البحث عن عظام الحمامة خاصة فى مناسبة العيد التى لا يأكل فيها الناس إلا اللحم! وبتفتيش صناديق القمامة وجد آثار الجريمة.. عظام صدر الحمامة! وطالبته الأسرة أن يتحرك ولا يترك الجريمة بغير عقاب.. ولكن الأديب الكبير يتجاهل مع غضبه.. «كانوا فى البيت عاوزين منى أعمل خناقة، لكن أنا صهينت»! ولا تنتهى القصة فبعد أيام رجعت الحمامة!! وهذه المرة أقفل عليها فى القفص.. «لكن صعبت علينا وفتحناد لها.. فطارت.. هل أصبح لها بيتان؟ هل وجدت زوجاً جديداً؟ هل ستعود إلينا؟. أسئلة ظلت بلا جواب، أو على حد قوله: الله أعلم!

وأغلب خطابات يحيى حقى التى يبعث بها إلى ابنته.. هو فى القاهرة وهى إما فى الإسكندرية أو فى البلاد العربية التى تعمل فى تليفزيوناتها. وعندما تتاح لأديبنا الكبير الفرصة فى بعض الأيام وينجح فى ادخار المال اللازم للسفر، يصطحب زوجته جان إلى موطنها فرنسا، والمكوث هناك شهراً ونصف. ورغم اختلاف الأجواء تماماً بين القاهرة وإميان، المدينة الفرنسية التى ينزل بها. فالحال من بعضه إزاء قلة الحركة والمكوث فى البيت وعدم الخروج إلى الشارع كثيراً، والاستماع إلى الراديو ومشاهدة التليفزيون.. وذلك كله بفعل الشيخوخة. خاصة أن إميان مدينة صغيرة ليست ذات ثقل ثقافى تشجعه على المشاركة. يكتب من هناك إلى وحيدته بتاريخ ١٩٨٢/٦/٢٢:

«آكل وأشرب وأعيش كأنى سلطان زمانه، طبعاً تغير نظام حياتى ومأكلى ولكن أحاول ألا أشتط فى الأكل. يكفى أن أشتط فى النوم إذ ليس لدى شغلة ولا مشغلة».

وفى زيارة أخرى لفرنسا. يونية عام ١٩٨٢. يكتب عن انقطاعه عن القراءة العربية مضطراً. «لأن الصحف المصرية لا تصل إلى المدينة. وأحياناً يقع فى يده عدد قديم من جريدة «الأهرام». فيطالعه! وفى أحد خطاباته وهو هناك يشير إلى مجىء العيد وذهابه فلم يحس به.. «مر العيد كأنه يوم كبقية الأيام، أى ضاع وسط الزحام. والأيام هى الأيام، والأخلاق هى الأخلاق. والشكاوى هى الشكاوى»!

وفى رسالة أخرى بتاريخ ١٠ أغسطس ١٩٨٥، يتحدث عن أن الهدف من زيارة فرنسا لم يتحقق، وهو إراحة زوجته وإسعادها وتمضية وقت طيب فى ربوعها. «ولاحظ مع الأسف الشديد أن إقامتها فى بلدها مع أهلها لم تصلح فى تهدئة أعصابها. ربنا يستر».

وهذه الرسائل المنشورة لا تقتصر كلها كما يشير عنوان الكتاب. إنها مرسلة إلى شخص نهى حقى وحدها، يتجاوزها. وهو قليل جداً. إلى غيرها. مثل زوجها الأول أو الثانى. وبالطبع تختلف الأجواء فى كل منها فى الدرجة، وإن ظلت الروح سارية والاهتمام والبوح هى هى. فالإخلاص والحنو والنصح هو ما يبديه كاتبنا لزوج الابنة. فما كتبه للزوج الأول يكشف إدراكه الجيد لمزاياه وعيوبه.. يستزيده من الأولى مشيراً عليه بما يمكن أن تقدم موهبته، من الكتابة السياسية فى تاريخ مصر بعد يولية ١٩٥٢. وفى الثانية يطالبه بالتخفف من اندفاعه «وتغليب فائدة الاستماع على فائدة الكلام». وكذلك خفض الصوت «إن الصوت الخفيض يقى من الزلل أكثر من الصوت الجهور».

وإذا استوعب النصف الأول من الرسائل صالح زوج الابنة، فإن بقيتها عن هموم يحيى حقى نفسه فى ذلك الوقت. الرسالة غير مؤرخة. وما يشغل باله وهو فى أواخر العمر، من وحدة وعدم نشاط وانزواء عن مركز الحياة الأدبية وانحسار الأضواء عنه كما كان فى السابق. وهى بشكل عام تعرض لحال صاحب القلم عندما يشيخ..

«أما أنا فقد أصبحت ومنذ ٣ سنوات تقريباً لا شغلة لى ولا مشغلة. وأحاول أن أحاسب نفسى وأعللها وأقول: يحق لمن بلغ السبعين وكانت حياته نوعاً من الجهاد لا ينقطع أن يخلد إلى الراحة».

يقولها الرجل وفى نفسه أشياء من الزمن والناس والمجتمع ونفسه أيضاً.

ويذكر كاتبنا أنه كان يجلس يوماً بجانب الدكتورة بنت الشاطئ (عائشة عبدالرحمن) فى سيارتها، وكانت هى أيضاً قد تعدت الستين، فقالت له: «يحسن بأصحاب الأقلام إذا شاخوا أن يسدلوا الستار بأنفسهم على مسرحهم صوناً لهم من إنتاج أعمال مصابة بالجفاف والسعال والروماتيزم».

وبالرغم من أن القضية عامة، إلا أن حقى استشعر أن زميلته تقصده هو شخصياً! ويشير أديبنا الكبير أيضاً فى نفس الموضع، إلى أن اشتعال الفكر ونضارته ونشاطه، تستمر عند البعض طوال العمر وإلى آخر دقيقة فى تنفسهم. والمثال لذلك عندنا دكتور حسين فوزى، ولكنه يعترف أنه ليس مثله فى أعصابه وينهى كلمته بقوله: «ويبقى السؤال الذى حير الإنسان منذ بدء الخليقة: هل نستطيع أن نتحكم فى أقدارنا؟»! ■

رباعيات الخيام.. روحٌ شرقية

أحمد درويش

تنتمى رباعيات الخيام إلى روائع الأدب العالمى، وهى واحدة من الأعمال الشرقية الكبرى التى عرفت طريقها إلى معظم آداب العالم، واكتسبت فى كل أدب مذاقًا خاصاً من خلال عدد هائل من الترجمات التى كان يحرص أصحابها غالبًا على أن يتحرروا قليلاً من جاذبية قيود المقابلات الحرفية، لكى يصلوا إلى المدار الذى ارتقى إليه الشاعر عمر الخيام ومن هناك يحاولون أن يتمثلوا جوهر دفء الروح الإنسانية الخالدة كما تمثلها، وأن ينقلوا إلى قارئ لغاتهم بعضاً من حُميا الخيام التى ما تلبث أن تسرى فى عروق كلماتهم.

كان الأدب الفارسى قد قدم للعالم الومضات الأولى لهذه الرباعيات فى أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن السادس للهجرة، فى شكل شعر غنائى حائر يثير ألف سؤال وسؤالاً وكان قد قدم قبل ذلك بنحو قرنين أو يزيد عملاً قصصياً رائعاً، قُدر له كذلك أن يجتاح العالم الوسيط والمعاصر حاملاً معه ألف حكاية وحكاية تروى فى «ألف ليلة وليلة» من خلال صفحات الكتاب الفارسى «هزار أفسانة» الذى حمل قدراً من «الخرافات» الشائعة إلى الرواة العرب، فطوروها وقلبوها نحو ستة قرون، قبل أن تستقر على أيدى الرواة المصريين فى شكل «ألف ليلة وليلة» فى صياغتها الأخيرة فى القرن السادس عشر الميلادى، وهى الصياغة التى اجتاحت ترجماتها آداب العالم، حاملة معها ألف حكاية وحكاية، كما ستحمل الرباعيات لاحقًا ألف سؤال وسؤالاً.

ولم تكن آداب العالم، وهى تتمتع بمذاق هذين العملين القادمين من الأدب الفارسى وهما يرصدان حيرة الروح الإنسانية شعراً، وخيالات هذه الروح نثراً، لم تكن هذه الآداب قد نسيت مذاق عمل ثالث كبير قدم من نفس دروب الحكمة الشرقية الهندية والفارسية والعربية وهو «كليلة ودمنة» الذى لم يتوقف عند رصد روح الحيرة والأحلام والطموح والإحباط فى روح الإنسان وعقله وإنما امتد إلى عالم الحيوان كى تتحرك الرموز على مرآته فى أفق أكثر رحابة يتجاوز لغات بنى الإنسان، ويفتح المجال لما لا نهاية له من التأويلات والمتع التى تكاد تبلغ «ألف متعة ومتعة».

ومن اللافت للنظر أن نرى هالة كبيرة من الغموض المهيب، تحيط بمنابع هذه الأعمال الكبيرة، وصلتها بمؤلفيها حتى كان التاريخ يكاد أن يضن بالتسليم بنسبتها إلى مؤلف واحد بعينه، وأحيانًا إلى جيل واحد بعينه، وكأنها نتاج للروح الإنسانية أكثر من كونها نتاجًا للعبقرية الفردية، «فكليلة ودمنة» أقدم هذه الآثار تمتد جذورها الأولى إلى اللغة السنسكريتية فى الهند ممثلة فى كتاب «البانجا تانترا» أو الحكايات الخمس التى ينسب لحكيم البراهمة القديم «بيدبا» وهو شخصية نصف أسطورية تسرد حكاياتها بين القرن الثالث قبل الميلاد منبعاً والقرن الثالث بعد الميلاد صياغة، ومع ذلك فكتابه قد فُقد، بعد أن قيل إنه قد ترجم إلى الفارسية فى عهد كسرى أنوشروان على يد طبيبه «برزويه» الذى فُقدت ترجمته كذلك، بعد أن نقلها إلى العربية عبد الله بن المقفع، حفيد بيدبا الذى أصبح أباً شرعياً لكتاب حمل اسمه واسم الأدب العربى معه إلى آفاق العالم، دون أن يُعلم على وجه التحديد ما الذى أضافته هذه الترجمة الرائعة إلى أصول بعيدة ربما كانت أقل عمقًا أو أكثر ذيوعاً.

وكذلك كان الشأن فى أمر الكتاب الثانى «هزار أفسانه» الذى أشار المسعودى فى القرن الرابع الهجرى إلى أنه «حكايات باردة» تُرجمت عن الفارسية دون أن يشير إلى اسم المؤلف أو المُترجم، ولسوف تُصبح هالة الغموض المتصلة بهذا الكتاب أشد، ويبقى النص فيه مفتوحاً ينتقل من الحكايات المترجمة عن الفارسية إلى الحكايات البغدادية وليالى هارون الرشيد إلى الحكايات القاهرية، مع أبو حير وأبو صير ومعروف الإسكافى وغيرهما وعندما تغلق دائرةُ النص المفتوح، فإنه لن يكتب على النص اسم مؤلف أو مترجم بل سيترك منسوبًا للروح الإنسانية التى أبدعته ويكتفى له بأن يحمل عنوان «ألف ليلة وليلة».

أما مظاهر هالة الغموض المهيمنة فيما يخص «رباعيات الخيام» فتتحقق على نحو قد يختلف قليلاً ولكنه يلتقى فى كثير من النقاط مع الأثرين السابقين، فشخصية «الخيام» شخصية تاريخية عُرفت باسم «غياث الدين أبو الفتح، عمر بن إبراهيم الخيام» المتوفى فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى حوالى ١١٢٣م، لكن هذه الشخصية عُرفت بالنبوغ والتفوق فى كثير من ألوان المعارف والعلوم، ولم يكن الشعر فى مقدمة هذه الألوان، وإنما يكاد أن يختفى من سيرته، ويجىء فى بعض الأحيان، فى ذيل السيرة عرضًا أو تعريضاً، فلم يكن الخيام يُحسب من كبار شعراء الفرس كالفردوسى أو فريد الدين العطار أو جلال الدين الرومى، أو عبد الرحمن جامى أو غيرهم، وإنما كان يحسب من كبار الفلاسفة والفلكيين والكيمائيين، وقد عُرف بأنه من أنبغ تلاميذ الشيخ الرئيس ابن سينا، وأنّهُ ربما يكون قد التقى بأبى حامد الغزالى، وأنه كان من أبرع علماء الفلك والنجوم فى عصره، وقد أنشأ له صديقه «نظام الملك» رجل الدولة البارع مرصداً فلكياً كبيراً، استطاع من خلاله أن يضع التقويم الفارسى الجديد الذى ينسب إلى عصر السلطان ملكشاه، ويحمل اسمه بدءاً من شهر مارس عام ١٠٧٩م، وأنه كان إلى جانب ذلك صاحب مؤلفات علمية شهيرة منها رسالة فى الجبر والمقابلة كتبها باللغة العربية التى كان يكتب بها إلى جانب الفارسية إضافة إلى رسائل أخرى فى المساحة والمكعبات والعلوم الطبيعية وما وراء الطبيعة. وعندما كان تلاميذه يعرفون به، كما فعل تلميذه الشاعر خوجه نظامى، كانوا يجعلونه فى المرتبة العليا بين الفلكيين وأساطين العلم ويلقبونه بحجة الحق، أو يتحدثون عن ذكائه وقوة حفظه وبراعته فى علوم الشريعة والفلسفة، ومن هنا، أطلق عليه فى عصره عدة ألقاب، منها «الإمام، والدستور، وفيلسوف العالم، وسيد حكماء المشرق والمغرب، وتلو ابن سينا، وعديم القرين فى علم النجوم والحكمة» إلى غير ذلك من الألقاب التى تأتى فى كتب البيهقى والقفطى والعماد الأصفهانى وغيرهم من مؤرخى الفرس والعرب.

كانت الإشارة إلى شعر عمر الخيام باللغة الفارسية أو العربية تأتى على أقلام المعرفين به، لكن فى مرحلة تالية لصفاته العلمية الغالبة، فلم يؤثر عنه ديوان شعر مكتوب، وإنما أبيات متفرقة ولعل العماد الأصفهانى صاحب كتاب «خريدة القصر»، والذى ألفه بعد نحو نصف قرن من وفاة عمر الخيام، لعله أول من أشار إلى الخيام شاعراً، بل وأورد له بعض أبيات كتبها من الشعر العربى مثل قوله:

إذا رضيت نفسى بميسور بُلغَةٍ
يحصلها بالكد كفى وساعدى
أمنتُ تصاريف الحوادث كلها
فَكُنْ يا زمانى مُوعدى أو مُواعِدى

وحتى الذين كانوا يشيرون إلى كتابة هذا العالم الفلكى الرياضى لبعض الرباعيات باللغة الفارسية، كانوا يدركون أن الكتابة على نظام «الرباعيات» لا تُدخل صاحبها فى مصاف الشعراء الكبار، فقد كان ذلك الوزن شبيهاً . إلى حد ما . من حيث القيمة الشعرية بوزن «الرجز» فى القصيدة العربية، الذى يدرج الشعر الذى يكتب عليه فى باب «الأراجيز» لا فى باب «القصائد». ومن هنا فإن الرباعيات كانت أقرب إلى تسجيل الخاطرة فى قالب مكثف محدود الحجم،

يبدو أن عمر الخيام بالفعل كان يكتب هذه الرباعيات أو الخواطر لنفسه على فترات متباعدة بعد كد العمل الفلسفى والرياضى والفلكى، وأنه كان يحتفظ بمخطوطته للرباعيات قريبة منه، حيثما حلَّ أو ارتحل، ولقد كان أمر هذه المخطوطة وارتحالها وفقدانها والبحث عنها والعثور عليها موضوعاً لعمل روائى جميل كتبه بالفرنسية أمين معلوف

ليست لديه فرصة الاسترسال، والنفس الطويل الملحمى، كما كان الشأن فى الأعمال الكبيرة فى الأدب الفارسى مثل «الشاهنامة»، وغيرها من الأعمال المشهورة[1]، ويبدو أن عمر الخيام بالفعل كان يكتب هذه الرباعيات أو الخواطر لنفسه على فترات متباعدة بعد كد العمل الفلسفى والرياضى والفلكى، وأنه كان يحتفظ بمخطوطته للرباعيات قريبة منه، حيثما حل أو ارتحل. ولقد كان أمر هذه المخطوطة وارتحالها وفقدانها والبحث عنها والعثور عليها موضوعاً لعمل روائى جميل كتبه بالفرنسية أمين معلوف تحت عنوان «سمرقند»، وترجمه إلى العربية الدكتور عفيف دمشقية عام ١٩٩١م. ولقد ساعدت هذه الهالة من الغموض المهيب، فى علاقة الخيام بالرباعيات على نسبة مئات من الرباعيات التى لم يكتبها الخيام إليه، وعلى رسم صور له، من خلال ذلك، شديدة التناقض تنتقل من قمة الصفاء والتصوف، إلى قمة الإلحاد والجحود مروراً بصور اللذة والخمر، والتشاؤم، والتفاؤل، والسمو والتدنى. ولقد بذل العلماء المستشرقون والفرس ابتداء من القرن التاسع عشر على نحو خاص جهوداً مضنية، لحل مشكلات التناقض والانتحال وكشف الغموض المهيب فى رباعيات الخيام.

هنالك ظاهرة أخرى لافتة للنظر، فى مرحلة انتقال هذه الأعمال الأدبية الكبيرة من النطاق المحلى إلى النطاق العالمى، وقدرتها على التغلب على الحواجز الفاصلة بين اللغات والتى تحول فى كثير من الأحيان، دون نقل الإحساس بجانب كبير من متعة النص من خلال الترجمة، ذلك أن الترجمة فى مجالات مثل علوم الرياضيات والفيزياء وما شاكلها يمكن أن تنجح إلى حد كبير فى توصيل رسالة بين لغتين مختلفتين، لكن الترجمة الأدبية والشعرية خاصة، غالباً ما تصطدم بعقبة «شكل المعنى» الذى يحمل مذاقاً خاصاً فى كل لغة، ويشكل جانباً رئيسياً من متعة النص، فكيف تمكنت هذه الأعمال الكبرى من اجتياز هذه العقبة، وحققت من خلال الترجمة، نجاحاً باهراً جعلها تتصدر قوائم المطبوعات فى اللغات التى ترجمت إليها؟ ولقد سئل بالفعل أحد الناشرين فى لندن عن أكثر الكتب رواجاً بعد الكتاب المقدس، فأجاب دون تردد: رباعيات الخيام.

إننا يمكن أن نلاحظ أن ظاهرة «الترجمة الحرة» يمكن أن تقدم جانباً من الإجابة عن هذه التساؤلات. لقد كان يقال فى المثل الإيطالى: «إن المترجم والخائن وجهان لعملة واحدة»، وكان يقال أيضاً: «إن الترجمة مثل المرأة يصعب أن تكون جميلة ووفية فى وقت واحد»، فى رأى الإيطاليين. وعندما توجد بعض الاستثناءات، فإنها قد تؤكد القاعدة وبصرف النظر عما يقال، فإن التاريخ العملى لترجمات هذه الأعمال الكبيرة لافت للأنظار فى هذا المجال، فكليلة ودمنة عرفت أكثر من سبعين ترجمة مباشرة أو غير مباشرة للآداب الوسيطة أو الحديثة. لكن أكثر الترجمات تأثيراً كانت تلك التى عقدت الصلة بين ابن المقفع ولافونتين، وهى صلة تمت على مرحلتين، الأولى فى شكل «ترجمة حرة» من العربية إلى الفارسية قام بها حسين فايز كاشف فى القرن الخامس عشر الميلادى، وحملت عنوان «أنوار سهيلى»، والثانية «ترجمة حرة» كذلك من الفارسية إلى الفرنسية، قام بها داود الأصفهانى فى النصف الأول من القرن السابع عشر ونقل خلالها ترجمة كاشف إلى الفرنسية تحت عنوان «كتاب الأنوار أو مرشد الملوك»، وهى الترجمة الحرة التى وقعت فى يد جون دى لافونتين، فأعجب بها واستفاد منها فى حكاياته على ألسنة الحيوانات (Les Fables).

إن نفس الظاهرة تكاد تتكرر مع «ألف ليلة وليلة» فى مطلع القرن الثامن عشر حين يقوم «أنطوان جالون» بنشر ترجمته الفرنسية لهذا العمل الكبير فتلقى نجاحاً كبيراً فى نقل متعة العمل الشرقى إلى القارئ الغربى من خلال «فرنسة» تقتبس جوهر العمل وروحه، لكنها تهب لنفسها بعض الحرية فى توسيع المدى أمام جناحى الترجمة الحرة لكى تستطيع التحليق فى فضاء جديد ساعدها على الانتشار فى كثير من آفاق اللغات الأخرى.

وما صنعته ترجمة أنطوان جالون الفرنسى مع ألف ليلة وليلة فى أوائل القرن الثامن عشر، صنعه «فيتزجيرالد» الإنجليزى فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر مع رباعيات الخيام.

كان الأديب الإنجليزى إدوارد جون بورسيل (١٨٠٩.١٨٨٣) الذى اشتهر بلقب فيتزجيرالد، محباً للآداب الشرقية، وقد تعلم الفارسية، وترجم منها قصة «سلامان وأبسال» لعبد الرحمن جامى ١٨٥٦، قبل أن يشرع فى ترجمة بعض الرباعيات التى حصل عليها لعمر الخيام. وكان المستشرق «وليم كوفيل» قد عثر فى مكتبة بودليان بأكسفورد فى أواسط القرن التاسع عشر على نسخة خطية بالفارسية لرباعيات الخيام، فنشر مقالاً حولها، ثم كتب إلى صديقه الشاعر والمستشرق فيتزجيرالد، عن هذه

تسرى فى الآداب العالمية



النسخة، وقدمها له، فأعجب بها وقرر أن يترجمها وكان الخيام قد اكتشف شهرته باعتباره عالم فلك ورياضيات، انطلاقاً من مؤلفاته العلمية التى كان يكتبها باللغة العربية، التى كانت لغة العلماء والمسلمين، عرباً أو غير عرب، فى هذه الفترة، وبهذه اللغة أيضاً، كان يكتب بعض أشعاره التى أشارت إليها المراجع العربية، أما الرباعيات فهى تأملات خاصة، كان قد آثر كتابتها باللغة الفارسية ولم يكن يتحمس لإذاعتها ونشرها، ومن هنا فإن أول ما ترجم له إلى اللغات الأوروبية كان كتابه «فى الجبر»، وقد ترجم عام ١٨٥١م، وعندما أتم فيتزجيرالد ترجمة مجموعة من الرباعيات المختارة عام ١٨٥٩، والتى لم يشأ أن يكتب عليها اسمه مترجماً، وترك هذه المهمة لأصدقائه الذين أضافوه فيما بعد، لم يتحمس الناشرون لها، ووافق أحدهم بعد عناء على إصدار طبعة محدودة من مائتين وخمسين نسخة، ومع ذلك فلم يبرح الكتاب إلا فى أيدى أصدقاء المترجم القليلين الذين تلقوا نسخهم على سبيل الإهداء، وظلت بقية النسخ راكدة عند الناشر حتى بعد أن خفض ثمنها من «شلن» إلى «بنس» واحد، ومات فيتزجيرالد عام ١٨٨٣م، وترجمته لا تكاد تُعرف، غير أن الشاعر الفريد تينسون أشاد عام ١٨٨٥، بهذه الترجمة الرائعة، وأهدى ديوانه إلى المترجم الذى كان قد رحل، وتخاطفت الأيدى النسخ القليلة، وأعيدت طباعة الترجمة مرات عديدة، وسرت موجات الإعجاب بها، فى إنجلترا وأمريكا، حتى بيعت إحدى النسخ بعد نحو خمسين عاماً من موت المترجم بنحو ثمانية آلاف دولار، كما سرت كذلك موجة من ترجمة الرباعيات إلى اللغات الأخرى، انطلاقاً من ترجمة فيتزجيرالد، التى كان فيها قدر كبير من الحرية، سواء فى الانتقاء، أو التعبير والتصوير، مع المحافظة على الروح الأساسية، حتى لقد قيل إن عمل فيتزجيرالد لا يقل روعة عن عمل الخيام نفسه، ولسوف نرى أن هذه الترجمة كانت مصدراً مهماً من مصادر تعرف اللغة العربية على رباعيات الخيام على امتداد الربع الأول من القرن العشرين، بل ومن أسباب شهرة الخيام شاعراً فى اللغة الفارسية ذاتها التى كانت شهرة الخيام فيها تصب على مؤلفاته العلمية والفلكية والتى كتب معظمها بالعربية.

وقد عرفت الفرنسية بدورها اهتماماً مبكراً بترجمة رباعيات الخيام، وكان الإمبراطور نابليون الثالث هو الذى رغب فى إصدار ترجمة للرباعيات، قدمها جون باتيست نيكولا على ١٨٦٧م، وتوالت بعد ذلك ترجمات كثيرة للرباعيات إلى الفرنسية، أمثال ترجمة جون مارك برنار، وكلود أنى وشارل جرولو وآرثر جى وغيرهم.

وفى خط مواز لحركة ترجمة الرباعيات فى الآداب العالمية، وجدت حركة واسعة لتمحيص النصوص المترجمة، وبيان مدى دقة انتسابها إلى الخيام أو انتحالها عليه، وقد كان من أوائل الدراسات فى هذا المجال، ما كتبه المستشرق جوفسكى Zukowsky عام ١٨٩٧، محاولاً تمحيص الرباعيات التى وردت فى ترجمة نيكولا الفرنسية، والتى بلغ عددها ٤٦٤ رباعية، وقد استطاع أن يخرج منها ٨٢ رباعية ردّها إلى شعراء آخرين من الفرس، وحاول التأمل فى هذه الرباعيات المنتحلة من خلال تقسيمها إلى حقول معنوية، فوجد أن كثيراً منها يجسد النزعة الأبيقورية (الميل إلى الانغماس فى الملذات) أو النزعة التجديفية، وهى رباعيات كان ينسبها بعض المتصوفة أو أصحاب العلوم الدينية إلى الخيام الذى لم يكن بينه وبينهم وفاق من أجل تشويه صورته فى أذهان الناس.

وقد تنبه إلى هذا، بعض مترجمى الرباعيات إلى العربية وأمسكوا عن ترجمة بعض ما ينسب إلى الخيام من رباعيات، يقول الأستاذ إبراهيم العريض «لقد اقتصرت.. على تلك الرباعيات التى تشهد على نفسها أنها للخيام لا سواه، وأعرضت عن الهزليات المدسوسة فى شعر الخيام، التى هى أبعد ما تكون عن روحه، وهى التى اعتز بها الصافى النجفى كثيراً فى تعريبه مثل: «نحن وإن جئنا إلى المسجد خاشعين، فما ذلك رغبة منا فى الصلاة، وإنما كنا سرقنا من هنا سجادة، وقد عفاها البلى فعدنا كجارى عاداتنا»، أو مثل: «جنحت نفسى مرة إلى الصوم والصلاة، فقلت الحمد لله، تم لى الفوز، ولكنى أسف، فقد نقض وضوئى بنسمة، وبطل صومى بنصف جرعة خمر».

وقد تعددت اتجاهات تمحيص رباعيات الخيام لدى الدارسين الغربيين، فها هو المستشرق الألمانى شايدر Schaeder، يذهب إلى أقصى درجات الشك، فيرى أنه ليست هناك رباعيات للخيام على الإطلاق، وينبغى حذف اسمه من تاريخ الأدب الفارسى، ويعلل وجهة نظره بعدة أدلة، منها، أنه لم تصلنا أية مخطوطات من عصر الخيام، وأقدم مخطوطة للرباعيات وهى التى اعتمد عليها فيتزجيرالد، كتبت بعد ٣٠٠ سنة من وفاة الخيام الفلكى الرياضى، وأن عدد الرباعيات يتزايد فى المخطوطات الحديثة بالقياس إلى القديمة مما يدل على تنامى الانتحال ولا شك أن وراء اختفاء كثير من آثار هذا العصر، الهجوم المغولى الذى دمّر كثيراً من آثاره، غير أن آرثر كريستنسن Arthur Christensen يقدم عام ١٩٢٧ تحليلاً آخر، يثبت من خلاله أن ١٢١ رباعية على الأقل، يمكن نسبتها إلى الخيام أما آرثر آربرى Arberry، فقد اكتشف عام ١٩٥٠م مخطوطة قديمة للرباعيات تعود إلى ٦٥٨هـ، ١٢٥٦م وتحتوى على ١٧٢ رباعية ويقول راوى المخطوطة إنه «اختارها» ومعنى ذلك أن العدد الأصلى يفوق ذلك الرقم ولم تكد تكتشف هذه المخطوطة، حتى اكتشفت مخطوطة أخرى فى إيران أقدم منها، تعود إلى ٦٠٤هـ، ١٢١٦م وتحتوى على ٢٥٢ رباعية.

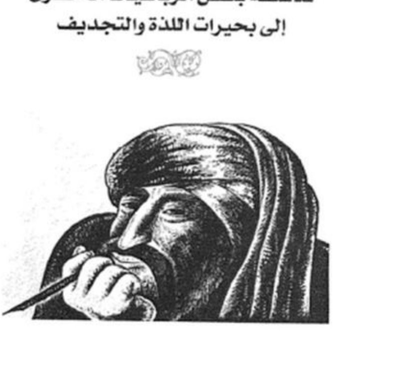
لكن ظلت مشكلة التناقض الظاهرى بين بعض الرباعيات وبعضها الآخر قائمة، حيث يقترب بعضها بالخيام من شواطئ الإيمان والمناجاة، فى حين تدفعه بعض الرباعيات الأخرى إلى بحيرات اللذة والتجديف، لكن الفرنسى بيير سالى Pierre Saley وهو مثل الخيام، فلكى وعالم وأديب ينظر إلى الرباعيات من منظور آخر، فلا يرى فيها تناقضاً، وإنما يراها تعبيراً عن مراحل متعددة متعاقبة أو متداخلة، مرت بها حياة عمر الخيام، وهو يقسّم هذه المراحل إلى تسع مراحل هى:

١. الشاعر والإله، وهى مرحلة إيمانية سادت فى بدايات حياته، وإليها تنسب معظم الرباعيات.
٢. الحب ورموزه.
٣. وحدة الأديان، وفيها يتغنى الخيام بالمسجد والكنيسة والبيعة، كما كان يفعل ابن عربى أو أبو العلاء المعرى.
٤. مرحلة القلم واللوح، وهى مرحلة القضاء والقدر وإليها تنسب كثير من الرباعيات.
٥. مرحلة التشاؤم العدمى.
٦. مرحلة التأمل فى الخلق والإبداع.
٧. مرحلة الفلكية والاهتمام بالنجوم.
٨. مرحلة الخمريات الخالدة.
٩. مرحلة الحلول والاتحاد.

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقف فيها أحد العلماء الدارسين أمام المراحل المختلفة لحياة الخيام وانعكاساتها على رباعياته.

وإلى جانب موجات ترجمة الرباعيات ونقد النصوص وتمحيصها، سرت موجة أخرى من التأثر بها فى إبداعات الأدباء الغربيين، ومن بين الأعمال التى تأثرت برباعيات الخيام ديوان الكاتب الفرنسى الكسندر أرنو Alexandre Arnoux الذى نشره عام ١٩٤٣م بعنوان «مائة وسبع رباعيات»، وظهر فيها بوضوح تأثره بفلسفة الموت والخلود، وموقف الإنسان أمام مظاهر الكون، ومقارنته بها على النحو الذى وردت به عند الخيام، ويتردد كثيراً فى رباعياته مقولات خيامية مثل: «فى مواجهة الفناء يتساوى البحر العتى الذى يزمجر، والإنسان الضعيف الذى يتحسر»، أو قوله: «لقد خرجنا جميعاً من الأرض وإليها جميعاً نعود، ولسوف يطوينا النسيان عما قريب، كأننا رحلنا

ظلت مشكلة التناقض الظاهرى بين بعض الرباعيات وبعضها الآخر قائمة، حيث يقترب بعضها بالخيام من شواطئ الإيمان والمناجاة، فى حين تدفعه بعض الرباعيات الأخرى إلى بحيرات اللذة والتجديف



منذ الاف السنين (فقد تساوى فى الثرى راحل، غداً وماضٍ من ألوف السنين) وقد يمر ذات يوم واحد أمام قبورنا، فيهمهم ببعض الكلمات العابرة، أو قوله: «إننا منذ أن نفتح عيوننا على الحياة نبحث عن الموت دون أن ندرى، حتى تمتد أياديه إلينا، وتشتد حيرة أرنو وثورته فى بعض المراحل فيتساءل: «لم كل هذا؟ ألم يكن فى الإمكان وجود عالم أفضل من هذا العالم يستطيع الإنسان فيه أن يحس بلحظات أكثر سعادة؟»، ثم تهدأ ثورته بعد حين فيقول: «ربما ينبغى أن ننسى طرح السؤال: «لماذا؟»، لأن أحداً لا يستطيع الإجابة عليه، ولأنه يهدد بتحطيم سعادتنا ذاتها، ثم إن الموت لن ينتصر أبداً على خلود الروح، وسوف يأتى يوم تنطفئ فيه الشمس، وتندك السماء، وتصير الأرض غباراً، ويمد الموت جناحه على كل شىء، لكن خلود الروح لن ينهزم أبداً».

إن تأثير الخيام يمتد كذلك فى الأدب الفرنسى إلى صنّاع الحكايات الشعبية على ألسنة الحيوانات Les Fabulistes ومن هؤلاء الإخوة تارو Tharaud فى المجموعة القصصية التى صدرت عنهم عام ١٩٤٣م بعنوان: «حكايات نوتردام»، وهى تحكى عن حمار مؤدب مطيع كان يحرص على أن يمشى هادئًا حتى لا تسقط حمولته المرتفعة من الأوانى الفخارية الفارغة، لكنه يسمع أثناء سيره حوار الأوانى وهى تتساءل فيما بينها: لماذا يقلل البشر من شأننا وإذا وصفوا إنسانًا بالغباء شبّهوه بالإناء الفارغ، فأجاب بعضهم: لأن الإنسان نفسه فارغ يملأ عقله وجوفه بأشياء مختلطة متنافرة، وتحدثت كأس ناعمة فأشارت إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يحس بلحظات سروره إلا من خلالها هى وأخواتها، ومن خلالهن يتمكن المبدعون من بنى البشر أن يصلوا إلى أجمل أسرار الحياة، ثم جرت همهمة بين الجميع: ما الفرق بين الخزف والخزّاف؟ بين الإنسان والآنية؟ ألسنا جميعاً من الطين؟

وعلى نفس الطريقة الخيامية فى محاربة نوازع الشر والغرور فى الإنسان، يسير شاعر فرنسى آخر، هو «جون كوبس» Jean Kobs فى مجموعته «ورود الليل» Roses de la Nuit، التى يجعل ذرات التراب تتحدث فيها، وهى ترقب خطى قافلة بنى الإنسان وهى تسير فى صحراء العالم، وأفرادها يهتدون بالكتب والنجوم ليستريحوا من تعب الرحلة، لكن الواحة الوحيدة التى تقابلهم ويتمنون الراحة فيها، يكتشفون أنها واحة الموت، ويكتشفون أن الحياة حلم ينعكس فى مرآة ليست إلا وهماً، وأن الإنسان يدور حول نفسه يبحث عن نفسه.

فى عام ١٩٥٩م، احتفلت الأوساط الأدبية فى العالم، بمرور قرن كامل على ظهور ترجمة فيتزجيرالد لرباعيات الخيام، وأعطت هذه المناسبة قوة دفع جديدة للروح الخيامية فى الآداب الغربية، ففى هذا العام قدّم جيو دى سايكس Guillot de Saix وهو أحد كبار دارسى الآداب الفارسية فى فرنسا، قدّم من خلال كتابه: «إلى حديقة سعدى» تأملات فى رباعيات الخيام ومحاكاة لها فى مثل قوله:

لماذا جئت إلى هذا العالم؟ وإلى أين أمضى

لماذا يتوقف الربيع عن مواصلة الابتسام

لماذا تنغلق شفاهه الرقيقة المفعمة بالعطور

لماذا يصمت العندليب الذى يغنى لأغصان الشجر فى أبريل

من أين كان قد جاء؟ وإلى أين فر واختفى؟ من يستطيع أن يجيب؟

وفى هذا العام كذلك، قدّم إميل ديزيرون Emil Desiron، وهو مستشرق كان يحب العربية والفارسية، ترجمة جديدة لمختارات من رباعيات الخيام، وأهداها إلى فيتزجيرالد، كما قدّم كذلك «إيف جيرا، لودونتديك Yeves - Gerard le Daniec ترجمة للرباعيات صدرها بمقدمة عن أهمية ترجمة فيتزجيرالد التى كشفت للعالم عن وجه هذه الصفحة الشعرية الجميلة.

أما الآداب الروسية فقد افتتنت بدورها برباعيات الخيام منذ أواخر القرن التاسع عشر وعلى امتداد القرن العشرين، كما يقول الناقد الروسى س.ب: فيلو نينكو[٢].

وكانت الترجمة الأولى للرباعيات، قد قدمها إلى الروسية فيلكوه Velicko عام ١٨٩٠م، وتوالت بعدها الترجمات التى اتخذت فى معظم الأحايين شكل الترجمات الشعرية، وتركت الباب مفتوحاً لرؤية الشاعر المترجم لكى تتمازج مع رؤية الشاعر المترجم عنه، ومن هنا فقد كانت هذه الترجمات فرصة لكى يطرح الأدباء الروس أسئلتهم الكبرى فى فترة التحولات فى القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، وحملت لهم الرباعيات كثيراً من الأفكار والصور التى ساعدتهم على طرح أسئلة الإنسان عن نفسه وعن الآخرين وعن الكون وعن ما وراء الطبيعة بل إن شعراء الرمزيين الروس فى الربع الأول من القرن العشرين وجدوا عند الخيام، كما يقول فيلونينكو، استلهامات كثيرة وولدت لديهم إحساساً بالحداثة، ومن تجليات هذا الإحساس ما ظهر فى ترجمة تخورزيفسكى Tkhorzevski عام ١٩٢٨م، وقد صدرها بمقدمة أشار فيها إلى ما أسماه «شباب وطزاجة الرباعيات»، وأخذ على فيتزجيرالد أنه وهو يترجم الرباعيات ركّز على «الاعترافات الغنائية لشيخ عجوز»، ولم ينتبه إلى فورة الطزاجة والشباب وكان الشعراء الروس من أوائل من تنبّه إلى فلسفة الشكل فى بناء الرباعيات ودلالاتها العميقة فقد لاحظوا أنها تجمع بين إنجاز الشكل

إن تأثير الخيام يمتد كذلك فى الأدب الفرنسى إلى صنّاع الحكايات الشعبية على ألسنة الحيوانات Les Fabulistes ومن هؤلاء الإخوة تارو Tharaud فى المجموعة القصصية التى صدرت عنهم عام ١٩٤٣م بعنوان: «حكايات نوتردام»



وتركيز التفكير ووقفوا كثيراً أمام السمة الرياضية لمعمار الرباعيات، وهو المعمار الذى اعتبر اكتشافاً بالنسبة للشعراء الغربيين بصفة عامة، وحاولت دراسات كثيرة مثل دراسات هنرى ماسى وغيره أن تقيم المقارنات بين بنية الرباعيات والفكر الرياضى والفلسفى لعمر الخيام، ومن هذه الناحية فقد استقبلت الرباعيات على أنها إبداع شعرى وتأملات فلسفية فى وقت واحد.

وبصفة عامة فإن رباعيات الخيام، جعلت الأدب الروسى، وهو أدب حائر بين انتماءاته الغربية والشرقية، ينفتح على لغة وصورة وأفكار وشاعرية أكثر شرقية، وساعدته كما يقول فيلونينكو على أن يطور شاعريته فى مواجهة العالم، كما أن المستشرقين الروس، كانوا من أوائل من فتحوا باب الحوار حول قضية الأصالة والانتحال فى الرباعيات المنسوبة لعمر الخيام ورأى، وفقاً للمنهج التاريخى، أن ٨٢ رباعية منها مشكوك فى نسبتها إليه ويمكن نسبتها إلى شعراء آخرين، وقسّمها إلى حقول معنوية تبرز انتحالها عليه من قبل أعدائه فى عصره والعصور اللاحقة عليه.

إن الفكرة التى التقطها الأدب الروسى وطوّرها عن «حداثة» الرباعيات وقابليتها لأن تحمل أفكار التطور الهائلة التى عايشها القرن التاسع عشر والعشرون، لم تكن غائبة عن الآداب الأوروبية الأخرى، بل إنها فى الواقع شكّلت مرتكزاً من مرتكزات النظرة الفرنسية التى اختلفت بدرجة أو بأخرى عن النظرة الإنجليزية للرباعيات والتى شكلتها ترجمة فيتزجيرالد، أولى الترجمات العالمية لها، ومنذ ترجم قنصل فرنسا القديم فى روسيا وسفيرها فى إيران جون باتيست نيكولا عام ١٨٦٧م أربعمائة وخمسا وعشرين رباعية للخيام، انطلاقاً من مخطوطة بمكتبة طهران، تنبّه الدارسون الفرنسيون إلى القيمة الفكرية الكبيرة لهذه الرباعيات، وكتب كبار الأدباء والفلاسفة الفرنسيين يحتفون بهذا العمل الرائع، هكذا عبر تيوفيل جوتييه Theophile Gautier فى مقال نشره فى ديسمبر عام ١٨٦٧م فى جريدة المرشد العالمى Moniteur Universel بعنوان: «هل قرأت عمر الخيام؟» عن إعجابه الشديد بما تحمل الرباعيات من فكر حداثى سبق عصره بقرون وهكذا شاركه النظرة المستشرق المشهور إرنست دى رينان فى مقال له فى «الجريدة الآسيوية le Journal Asiatique» عام ١٨٦٨م، وظلت نظرة المفكرين والمترجمين الفرنسيين، فى كثير من الأحايين، إلى الترجمة الإنجليزية الشهيرة لفيتزجيرالد، قائمة على أنها ترجمة ناجحة شهيرة، تسببت دون شك فى

لفت نظر العالم إلى هذه الرباعيات، ولكنها فى الوقت ذاته «غربت» نصًا شرقيًا، وأفقدته كثيراً من خصائصه الأصلية، وقد ظل الحوار حول هذه القضية متجدداً حتى العصر الحاضر، عندما صدرت عام ١٩٧٨م ترجمة فرنسية جديدة لرباعيات الخيام انطلاقاً من مخطوطة أكسفورد وكتب شارل جرولو Ch. Groleau فى مقدمة الترجمة، يوجه النقد إلى فيتزجيرالد ويتهمه بأنه غيّر من طبيعة روح هذا النص الفارسى، وأنتج بدلاً منه نصاً غريباً، وأصبح عمر الخيام فى نص فيتزجيرالد شبيهاً بالشعراء الأوروبيين من أمثال: هن وسوينبر وبودلير.. بل إنه أصبح. كما يقول جرولو . أخًا لهاملت.

إن جذور الاختلاف النسبى بين النظرتين الفرنسية والإنجليزية، جاءت من هذا القدر الكبير من المعرفة بالحياة الفارسية الذى أتيح لمترجم الرباعيات الأول إلى الفرنسية، جون باتيلست نيكولا من خلال إجادته للفارسية وعمله سفيراً لفرنسا فى إيران، وهو قدر أتاح له أن يفهم معنى التصوف ويستشف معانى رموز الخمر والجمال، ومن هنا ظهر الخيام فى ترجمته صوفيًا على عكس فيتزجيرالد الذي أظهر الخيام فيلسوفًا لم يجد شفاء لآلامه الميتافيزيقية إلا فى الخمر والحب، وهى النظرة التى تأثر بها مستشرقون أوروبيون آخرون، ناقشهم نيكولا فى مقدمة ترجمته من أمثال المستشرق النمساوى فون هامير الذى كان يجنح إلى نظرة فيتزجيرالد.

بدأت رحلة رباعيات الخيام مترجمة إلى اللغة العربية المعاصرة متأخرة بضعة عقود عن نظائرها فى الآداب الغربية.

ولم تكن العربية فى القرون التى تلت الخيام، تعرف من ترجمات رباعياته شيئًا فيما عدا ترجمة لرباعيات واحدة، قام بها فارسى من أصفهان فى القرن السابع الهجرى هو محمد بن إسحاق بن مظهر، المعروف بنظام الدين الأصفهانى والذى كان قاضيًا لأصفهان وشاعراً لكتب القصائد فى مدح الخليفة المستنصر العباسى، ولم يكن معجباً بالرباعيات ولا راضياً عنها، وقد أورد ترجمة لرباعية واحدة فى معرض نقضها والرد عليها بأربع رباعيات من تأليفه ورباعية الخيام المترجمة هى:

الصانع إذا أحسن فى التركيب
لِمَ يُخرج نظمه عن الترتيب؟!
إن شاء فمن أحقُ بالتثريب
أو أحسن ما الحكمة فى التخريب؟!

وفيما عدا هذه المحاولة، صمت الأدب العربى أكثر من ستة قرون، فلم يعرف عن رباعيات الخيام شيئًا، وإن كان اسم عمر الخيام نفسه يتردد بين المشهورين من علماء الحضارة العربية الإسلامية لأن أكثر مؤلفاته فى الفلك والرياضيات والفلسفة كتبت بالعربية، ونشر بها قليل من شعره كما أشرنا من قبل.

وعندما استأنف الأدب العربى الحديث فى مطلع القرن العشرين الالتفات إلى رباعيات الخيام، كان متأثراً بأصداء اهتمامات الآداب الغربية بالرباعيات وترجمتها إليها، خاصة الترجمة الإنجليزية لفيتزجيرالد التى تأثرت بها حركة ترجمة الرباعيات إلى العربية كثيراً، خاصة فى الربع الأول من القرن العشرين، وربما كانت مقدمة وديع البستانى لترجمته الشعرية للرباعيات التى ظهرت عام ١٩١٢م معبّرة عن هذا الانبهار الذى أحاط بالأدباء العرب من جراء الاهتمام الغربى الكبير بالرباعيات، يقول البستانى[٣]: «وإذا أردت الإلماع إلى غرام الإنجليز والأمريكان برباعيات الخيام، إن لم أقل ولوعهم وهيامهم فيها، وإكرامهم لها، وإعجابهم بها، فحسبى أن أخبر بما شهدته ورأيته وعرفته بنفسى أثناء إقامتى مدة وجيزة فى لندرا.. دخلت مكتبة المتحف الإنجليزى.. وتناولت برنامجها وفتحت اسم عمر الخيام فعددت مائة وثلاثة وخمسين كتابًا، بعضها طبعات مختلفة من ترجمة فيتزجيرالد مزخرفة وغير مزخرفة، ومصورة وغير مصورة، ومشروحة وغير مشروحة، والبعض الآخر ترجمات متنوعة لأدباء مختلفين هذه شعرية، وأخرى نثرية، وهذه منقولة بتصرف وتلك بدون تصرف، وهذه مترجمة عن النسخة الأوسلية وتلك عن النسخة الكلكتية.. إلخ. ثم يضيف فى فقرة لاحقة: أسماء بعض العمريين الذين قرأ نثرهم وشعرهم واستعان بهم فى درس عمر ورباعياته: «فمنهم ادورد هرون ألن، وادوارد برون، ونيكلسن، وشيرازى، وهوينفلد، ونمارتر، وميكارت، وهنرى فرنان، ونيقولاس، ولوران نابلاد، وجارسان دى تسى، ومسز جى، ومسز بورين، فضلاً عن فيتزجيرالد الذى يعتبره محور المحاور، وإذا كان هذا هو الشأن عند شاعر لبنانى مثل وديع البستانى فى العقد الثانى من القرن العشرين، فإننا نجد نفس نقطة الانطلاق عند شاعر بحرينى فى العقد الرابع هو إبراهيم العريض، ومع أن العريض قدم ترجمته عام ١٩٣٣م فى نهاية المطاف عن الفارسية التى كان يجيدها فإنه يعترف أن بداية إعجابه بالرباعيات كانت من خلال قراءته لترجمة فيتزجيرالد، يقول العريض فى بداية مقدمته للترجمة[٤]: «كان أول اطلاعى على معانى الخيام الفلسفية، لما كنت تلميذاً فى الهند ناشئًا وذلك من خلال ترجمة فيتزجيرالد الشهيرة، فقد كنت أترنم بأبياتها شغفًا فى خلواتى، حتى لأذكر أنى ما كنت فى إنشاده أبلغ (أبياتًا معينة) حتى تهطل دموعى وأجهش، لما كان يغمرنى من شعور ببطلان الحياة ويتولانى من حسرة زوال الآثار».

ولقد كثرت ترجمات رباعيات الخيام إلى العربية وتنوعت، وقد استطاع الدكتور بكار أن يحصى خمسًا وخمسين ترجمة لاثنين وخمسين مترجمًا من بينهم ١٩ مصريًا و١٥ عراقيًا وخمسة لبنانيين ويتوزع الباقون على الأردن وسوريا وفلسطين والبحرين والسعودية والمغرب، ويعود ما يقرب من ثلث هذه الترجمات إلى الترجمة الإنجليزية لفيتزجيرالد، على حين تبدأ موجة الترجمات التى تعود إلى الفارسية مباشرة بالترجمة الشعرية الجميلة لأحمد رامى عام ١٩٢٤م، وتتزايد هذه الموجة بعد ذلك خاصة مع الشعراء والأدباء العراقيين من أمثال جميل صدقى الزهاوى وأحمد الصافى النجفى، وأحمد حامد الصراف، وطالب الحيدرى، وعبدالحق فاضل، ومهدى جاسم حتى تبلغ الترجمات عن الفارسية مباشرة نحو إحدى وعشرين ترجمة، وهناك ترجمات كانت تتم من خلال لغات أخرى وسيطة مثل التركية والإيطالية. وكما تنوعت مصادر الترجمة فى الرباعيات تنوعت الأشكال الفنية التى تجلت فيها الترجمة، وكان من الطبيعى أن يحتل الشعر بألوانه المختلفة مركز الصدارة حيث جاءت أكثر من ثلاثين ترجمة فى ثوب شعرى، سواء كان ذلك من خلال الترجمة الشعرية المباشرة، أو النظم الشعرى لترجمة نثرية سابقة أو الترجمة من خلال شعر التفعيلة وداخل هذا التنوع الشعرى، يتنوع آخر من حيث مدى الالتزام بالبحر الشعرى، وعدد الأبيات فى كل مقطع شعرى، وهو العدد الذى من خلال نشأ مصطلح «الرباعية» فى الأصل، ومدى الالتزام بالقافية الموحدة أو التنويع فيها، فترجمة عيسى إسكندر المعلوف عام ١٩٠٤م، لست رباعيات جاءت موحدة القافية فى شكل ثنائيات أو ثلاثيات، ونوّع فيها بين بحور الكامل والوافر والرمل. أما البستانى الذى ترجم ثمانين رباعية فقد اختار لها قالب السباعيات من بحر الخفيف مع تطريز فى القوافى يقترب به من نظام الموشحات، وقد أطلق بالفعل مصطلح «الموشحة» على الأناشيد الرئيسية فى ترجمته.

وقد تابع عبدالرحمن شكرى فى الرباعيات الثلاث عشرة التى ترجمها، تابع البستانى فى اختياره لبحر الخفيف، ولكنه ارتضى لكل رباعية قافية موحدة.

أما محمد السباعى الذى يعد أول من تجاوز المائة رباعية فى ترجماته الشعرية عام ١٩١٧م، فقد اختار قالبًا شعرياً طريفًا، تمثل فى فن «المخمسات» على بحر الرمل، فجاءت كل رباعية من خمسة أشطر على هذا النحو:

قال قوم أعطنا الدنيا نصيبًا
حبذا الدنيا لمشتاق حبيبا
وفريق ظلّ للأخرى طلوبًا
ضلة للمرء يسلو عاجلاً

فى القرون التى تلت الخيام، لم تكن العربية تعرف من ترجمات رباعياته شيئًا فيما عدا ترجمة لرباعيات واحدة، قام بها فارسى من أصفهان فى القرن السابع الهجرى هو محمد بن إسحاق بن مظهر، المعروف بنظام الدين الأصفهانى



من نعيم لسراب ذى خداع

أما أحمد رامى الذى قدم عام ١٩٢٤م، أول ترجمة مباشرة عن الأدب الفارسى، اختار من خلالها مائة وثمانى وستين رباعية، فقد شكلت ترجمته منعطفاً مهماً، فى اتجاه ترجمة الرباعيات. فمع أن رامى قد بدأت صلته بالرباعيات فى مرحلة مبكرة عندما قرأ الترجمة الشعرية لوديع البستانى، وأعجب بها، وسعى إلى قراءة النص الإنجليزى فى مرحلة لاحقة فازداد إعجاباً، لكنه ظل يتطلع إلى التعرف على النص فى لغته الأولى، الفارسية، لغة الخيام نفسه، ومن المصادفات اللافتة للنظر أن يتم إيفاد رامى إلى باريس، لدراسة اللغة الفارسية فى مدرسة اللغات الشرقية هناك، ويتاح له من ثم، تعلم الفارسية والاطلاع على الترجمات الفرنسية للرباعيات بدءاً من ترجمة جون باتيست نيكولا، والواقع أنه بهذا الاطلاع، قد أتيح له التعرف على وجهة النظر الفرنسية فى تأويل الخيام والتى تنظر إليه على أنه متصوف، وتفسر خمرياته وتساؤلاته وشكوكه، تأويلاً رمزياً فى هذا الاتجاه، وهى نظرة تقابل التأويل الإنجليزى الذى اختارته ترجمة فيتزجيرالد، والتى ظهر الخيام من خلالها فيلسوفاً شاكاً حائراً، لا يجد إلا فى قنينة الخمر ملجأ من حيرته.

ولقد اختار رامى التأويل الفرنسى، ودعمه بالعودة إلى الأصل الفارسى الذى لم تكن تتم العودة إليه فى الترجمات العربية السابقة، وهو يقول فى مقدمة ترجمته «وجدت نسخة رباعيات الخيام التى قام بنشرها عام ١٨٦٧م المستشرق الفرنسى نيقولا عن نسخة طهران، فانقطعت لقراءتها، وتوفرت على درسها، حتى إذا انتهيت منها، دار بخلدى أن أنقلها عن الفارسية إلى الشعر العربى، فى رباعيات كما نظمها الخيام، وشجعنى على ذلك افتقار اللغة العربية فى ذلك العهد، إلى هذه الرباعيات منقولة عن الفارسية»[٥].

ولا شك أن بعض الملابسات التى أحاطت بترجمة رامى للرباعيات، قد ساعدت على شدة التحامه بها وتمثله لها، ومن هذه الملابسات ما أشار إليه رامى فى المقدمة من تلقيه نبأ وفاة شقيقه محمود، وهو فى غربته فى باريس قبيل شروعه فى ترجمة النص يقول: «فاستمددت من حزنى عليه، قوة على تصوير آلام الخيام، وظهر لعينى بطلان الحياة التى نعى عليها فى رباعياته، فحسبتنى وأنا أترجم، أنظم رباعيات جديدة، أودعها حزنى على أخى الراحل، فى نظرة الشباب، وأصبر نفسى، بقرضها، على فقده».

ولقد أثر رامى من ناحية البناء الشعرى أن يحافظ للرباعيات على سمتها العددية الأولى، فصاغ الرباعيات المائة والثمانى والستين التى اختارها، فى شكل القالب الرباعى، فجعل كل واحدة، أربعة أشطر من بحر السريع، وجعل لكل رباعية قافية موحدة يلتقى فيها الأبيات الأول والثانى، والرابع، وينفرد الثالث بقافية خاصة، وهو نظام يسمى فى علم العروض، بنظام الرباعى الأعرج مثل:

لا تشغل البال بماضى الزمان
ولا بآتى العيش قبل الأوان
وأغنم من الحاضر لذاته
فليس فى طبع الليالى الأمان

ولا شك أن جوانب القوة فى الانتقاء من خلال الرجوع إلى الأصل، مع الإلمام بوجهات النظر المختلفة فى الآداب العالمية حول تأويله، مضافاً إليها شدة الالتحام بالنص وتمثله، والتركيز على جوانب الحيرة الخلاقة، وتأملات العشق والجمال، والمناجاة الإلهية، لا شك أن هذه الجوانب جميعاً أضيف إليها ما تفرد به النص من اختيار سيدة الغناء العربى فى القرن العشرين أم كلثوم، لترجمة رامى، فى لحن أمتع ملايين المستمعين العرب، وعشاق الغناء العربى، عقوداً طويلة، وهو قابل بخلوده الفنى لأن يمتعهم عقوداً أطول وأطول، لأنه يستجيب لكثير من خفقات القلب الإنسانى، ويتجاوب مع أشواقه وضراعاته:

أولى بهذا القلب أن يخفقا
وفى ضرام الحب أن يحرقا
ما أضيع اليوم الذى مر بى
من غير أن أهوى وأن أعشقا

***

وكم توالى الليل بعد النهار
وطال بالأنجم هذا المدار
فامش الهوينا إن هذا الثرى
من أعين ساحرة الأحورار

***

يا عالم الأسرار علم اليقين
يا كاشف الضر عن البائسين
يا قابل الأعذار فئنا إلى
ظلك فاقبل توبة التائبين

***

إن لم أكن أخلصت فى طاعتك
فإننى أطمع فى رحمتك
وإنما يشفع لى أننى
قد عشت لا أشرك فى وحدتك

اكتسبت ترجمة أحمد رامى هذه المكانة المتميزة لاتصالها المباشر بالأصل الفارسى ولمعايشة المترجم للرباعيات معايشة فكرية ووجدانية، ولسمو المستوى الشعرى لرامى الذى كان يعد فى طائفة كبار الشعراء الغنائيين فى العصر.

والحق أن معظم الشعراء البارزين فى العالم العربى قد ساهموا بطريقة أو أخرى فى تقديم ترجمات جزئية أو كلية للرباعيات، بدءاً من ترجمة رباعية واحدة على يد العقاد إلى ترجمة مائة وثلاثين رباعية على يد جميل صدقى الزهاوى، وصولاً إلى ثلاثمائة وواحد وخمسين رباعية على يد أحمد الصافى النجفى أو ثلاثمائة وإحدى وثمانين رباعية على يد عبد الحق فاضل مروراً بأعداد متفاوتة عند أحمد زكى أبو شادى وعامر بحيرى وإبراهيم المازنى ومصطفى التل ومحمد السباعى وغيرهم من مشاهير الشعراء العرب فى القرن العشرين.

ولم يكن نصيب النثر العربى بأقل حظاً فى ترجمة الرباعيات التى كانت تترجم أحياناً على يد المترجم الواحد، مرتين، إحداهما نثرية والأخرى شعرية، كما حدث مع جميل صدقى الزهاوى، أو مصطفى وهبى التل أو أن تكون الترجمة النثرية أصلاً لترجمة شعرية على يد مترجم آخر، كما حدث مع ترجمة أحمد حامد الصراف النثرية التى ترجمها شعراً محمد الهاشمى البغدادى، وقد تكون الترجمة النثرية على يد الأدباء الأكاديميين كما كان الشأن فى ترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال لثلاث وعشرين رباعية فى مختاراته من الأدب الفارسى.

ولم تقتصر ترجمة الرباعيات على الشعر والنثر فى اللغة الفصحى، بل ترجمت إلى الشعر العامى فى مصر ولبنان والعراق، كما هو الشأن فى ترجمة حسين مظلوم رياض إلى العامية المصرية وعباس الترجمان إلى العامية العراقية وأرثر ضو إلى العامية اللبنانية.

وهكذا تمكن هذا العمل الشعرى الفارسى أن يصحو بعد غفوة امتدت نحو ثمانية قرون لكى يجتاح آداب العالم فى شرقه وغربه مؤكداً أن روح الأعمال الخالدة تستعصى دائماً على الفناء. ■

لم يكن نصيب النثر العربى بأقل حظاً فى ترجمة الرباعيات التى كانت تترجم أحياناً على يد المترجم الواحد، مرتين، إحداهما نثرية والأخرى شعرية، كما حدث مع جميل صدقى الزهاوى، أو مصطفى وهبى التل



الهوامش:

(١) تم طبع رباعيات الخيام باللغة الفارسية للمرة الأولى فى فيينا عام ١٨٠٤م على يد المستشرق النمساوى ف: دومباى F. Dombay، وكانت شهرة الخيام العلمية قد سبقت شهرته الشعرية حتى إن كتابه فى «الجبر» ترجم إلى اللغات الأوروبية عام ١٨٥١م، قبل أن تترجم الرباعيات للمرة الأولى عام ١٨٥٩م.

(٢) Philonenko. Les R obai d.B.S Omer Khayyam et leurs Traductions russes Luqman N. 1, - 2001 - 2002 Paris

(٣) رباعيات عمر الخيام، الفلكى الشاعر الفيلسوف الفارسى، معربة نظماً بقلم وديع البستانى عربى، إنجليزى، فرنسى، فارسى، أردنى، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت ص ٢٤.

(٤) رباعيات الخيام (١٥٢ رباعية) ترجمة إبراهيم العريض، المكتبة الوطنية وفروعها، البحرين عام ١٩٨٤م.

(٥) أحمد رامى: رباعيات الخيام، مكتبة غريب، القاهرة ١٩٨٥م.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

العـــراق المعاصـــر

عبد الوهاب حميد رشيد
دمشق: دار المدى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ٤٧٢ صفحة



يتابع الكتاب مسيرة أنظمة الحكم والأحزاب السياسية العراقية لأكثر من نصف قرن، بما أفرزته هذه الفترة من دروس وتجارب طبعت أفكار وممارسات المجتمع العراقى بأفراده ومؤسساته ومنظماته، بالعلاقة مع أزمة الديمقراطية فى العراق، كما أنه بحث فى سبل تطوير الخطاب السياسى للأحزاب العراقية، باتجاه العلنية والتعامل السلمى والقبول بالشرعية الدستورية تحت مظلة الاستقلال الوطنى، وباتجاه تبنى القيم والممارسات الديمقراطية فى سبيل بلوغ أهدافها السياسية وتطبيق برامجها الاجتماعية.

بدأ الكتاب بمناقشة نظرية موجزة لأنظمة الحكم والديمقراطية والأحزاب السياسية، من حيث مفاهيمها ومكوناتها وعلاقاتها. ثم تضمن القسم الأول المسيرة التاريخية المعاصرة لأنظمة الحكم والأحزاب السياسية العراقية، فى العهدين: الليبرالى الملكى، والشمولى الجمهورى، وما خلفته من مواريث طبعت العملية السياسية العراقية حتى الوقت الحاضر. وفى القسم الثانى عالج الباحث موضوع أزمة الديمقراطية ومكوناتها التاريخية والاجتماعية، بدءاً بدراسة الأزمة على المستوى العربى بعامة، وحتى أزمة الديمقراطية فى العراق فى صورتها الخصوصية. وأما القسم الثالث فكان مخصصاً لدراسة وتحليل أوضاع الأحزاب العراقية من زوايا ثلاث: آثار المسيرة التاريخية المعاصرة فى صيرورة هذه التنظيمات السياسية، من حيث صفاتها ومواصفاتها وممارساتها، وطبيعة هذه الكينونات كما تجسدها أنظمتها الداخلية وبرامجها الوثائقية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ثم آراء عينة من المثقفين العراقيين بالعملية الحزبية السياسية العراقية. ثم جرت فى القسم الرابع والأخير، محاولة لاستثمار حصيلة هذه الاتجاهات الثلاثة، لحصر مشكلات الأحزاب العراقية وبحث إمكانيات تطوير خطابها السياسى لصالح التحول الديمقراطى.

■

هل تلاعب رشيد رضا بسيرة «الإمام» ليجعل من المناضل الليبرالى مثقفًا سلفيًا؟

عدة قذائف صدامية يفاجئك بها مؤلف الكتاب، أولها أن سيرة الإمام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) تم التلاعب بها. فقد انتظر رشيد رضا ٢٦ عاماً بعد وفاة الإمام كى يكتبها، وخلال هذه السنوات توفى كل أعضاء اللجنة التى تشكلت لكتابة سيرة الإمام بعد وفاته: سعد زغلول وقاسم أمين وعبد الكريم سلمان وحسن عبد الرازق، وحين كتبها رضا، فإنه أضاف وحذف وحرف، كى يبدو محمد عبده أكثر سلفية مما كان عليه فى الواقع. وهو ما يتواءم مع اتجاه رشيد رضا نفسه الذى شايع الوهابية بقوة حتى آخر حياته، وقد سعى رضا أيضاً إلى التقليل من العداوة التى كانت قائمة بين الإمام والخديوى عباس حلمى الثانى، وهى العداوة التى دفعت الإمام إلى أن يكون فى كثير من الأحيان على علاقة بالإنجليز أقوى من علاقته بالقصر، وقد قام رشيد رضا بذلك مدفوعاً بعدة دوافع، أولها ألا تصادر صحيفته «المنار» وألا تلحقه نقمة الخديوى بعد أن فقد حماية الإمام بوفاته، وأصبح عرضة للإبعاد عن البلاد بوصفه غير مصرى، وثانيها أنه كان يرغب فى تأسيس مدرسة للدعوة وكان بحاجة لدعم الخديوى فتم له ما أراد وفتحت المدرسة أبوابها عام ١٩١٢ لكنها لم تعمر طويلاً، وقد خدمت الظروف السياسية رشيد رضا، إذ انشغل رفاق عبده بالأحداث السياسية المتلاحقة آنذاك، كما أنهم آثروا ألا يرتبطوا بسيرة الإمام بعد وفاته، كى لا يشار إليهم بوصفهم «حزب الإمام»، مع ما توحى به هذه التسمية من ميل إلى معاداة الأسرة الخديوية ومهادنة الحماية البريطانية، وهم الذين كانوا يطالبون باستقلال مصر عن بريطانيا باسم العرش الخديوى، وبشكل عام، فإن رضا لم يكن من تلاميذ الإمام المقربين، ولم يرافقه سوى ٧ سنوات فقط. يجزم المؤلف أيضاً أن محمد عبده لم يكن سلفياً، فهو لم يختزل الإسلام فى مرجعية نصية صلبة، وكان قليل اللجوء إلى الأحاديث النبوية، ودعا إلى دولة قوية تنهض بالشرقيين فى إطار من الوحدة الوطنية، وفى ظل نظام نيابى متدرج يتسع شيئاً فشيئاً للمشاركة الشعبية، بعد أن ينتشر التعليم والتهذيب بين الناس، ونخبة وطنية تحل محل أهل الحل والعقد، وتتولى عملية التسيير والتشريع، ونظام قانونى يراعى المصالح، وهى الأفكار ذاتها التى تبنتها النخبة الليبرالية آنذاك. وهو ما يضع عبده ضمن المصلحين الليبراليين من مجايليه، أكثر مما يعيده إلى المصلحين الدينيين وخصوصاً السلفيين منهم.

«الروحانية المناضلة» هى التسمية التى يطلقها المؤلف على مشروع محمد عبده، الذى عاش ممزقاً بين السياسة كما تمارس فعلاً، والسياسة كما يتخيلها رجل الأخلاق والإصلاح.

ويميز المؤلف بين مرحلتين فى الخطاب الإصلاحى للإمام: مرحلة الشباب وتمثل خطاباً ثرياً جريئاً مباشراً وحيوياً، وتمثلها بشكل واضح تعليقات الإمام على «شرح الدوانى»، أما المرحلة الثانية، فتمثلها «رسالة التوحيد» و«تفسير القرآن»، وانحصرت فيها كتابات الإمام بين ثنائية جدل أو تقرير، أما سبب حيوية كتابات مرحلة الشباب، فهى أن محمد عبده كان متحرراً من وظيفة الإفتاء الرسمية، كما لم يكن مقيداً بمجمل الظروف السياسية والاجتماعية آنذاك، بعكس كتاباته فى مرحلة النضج، وبعد عديد من الضربات التى تلقتها الحركة الوطنية، ما جعل طموحات الإمام أكثر تواضعاً .. «وتخلى عن مشروعه النقدى للموروث الفلسفى والكلامى والصوفى، وعن الالتزام السياسى بقضية الحرية، وربما كان هذا هو الدرس الذى وعاه خلفاء عبده من المشايخ، خصوصاً الشيخ المراغى، وقد خففوا جميعاً من دعوات عبده السياسية والدينية، حتى أوشكوا أن يجعلوه أزهرياً خالصاً وخديوياً أميناً.

أما الخطاب الدينى المعاصر فقد تبنى كتابات مرحلة النضج، فطبعت رسالة التوحيد عشرات المرات وترجمت إلى عدة لغات وأدرجت فى المقررات الدراسية، فيما تم تهميش مؤلفات مرحلة الشباب، بما يعنى أن الدوافع الأيديولوجية مازالت ضرورة مقدمة على حتمية الاجتهاد.

عمـــاد الغـــزالى

محمد عبده
قراءة جديدة فى خطاب الإصلاح الدينى
محمد الحداد
بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٣، ٢٤٠صفحة

الخطاب الروائى عند غسان كنفانى

منار فتح الباب
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣، ٤٤٨ صفحة



تعنى هذه الدراسة بالمضمون والبناء الروائى للأديب الفلسطينى غسان كنفانى،

والدراسة أسلوبية تطبيقية تستند أساساً إلى المنهج البنيوى فى التحليل النقدى، مقتربة من روح النص وعمقه.

وفى محاولة لفك رموز عالم اللغة الشعرية المكثفة وتيار الوعى المتدفق فى الخطاب الروائى، عمدت الباحثة إلى تفتيت دلالات النص وتتبع خصائصه.

وإلى جانب ما توصلت إليه الدراسة من نتائج مهمة، منها التقاء نتائج الدراسة الأسلوبية الإحصائية للخطاب الروائى مع نسق الطابع العام المشكل لحضارات منطقة الهلال الخصيب، وهو النسق الزراعى القائم على الجدل والدوران فى ثلاثية متميزة: حياة، موت، حياة أخرى، وكذلك كشفت الباحثة عن تطابق النسق البنيوى للموروث الكنعانى القديم مع مثيله لدى غسان كنفانى، وهذا كشف مهم فيما يتصل بأدب غسان كنفانى، إذ ركز كل الباحثين على سيرة حياة كنفانى كأديب ومناضل بالدرجة ذاتها.

ومن ثم ترى المؤلفة أن دراستها تصب فى بوتقة الخطاب النقدى المضاد لحركة الخطاب الصهيونى الذى يسعى حثيثاً لتشويه وتدمير التراث الفلسطينى.

■

سياسات الأديان

الصراعات وضرورات الإصلاح
نبيل عبدالفتاح
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ٦٩٥ صفحة



تبدو هموم الإصلاح والتجديد غالبة على فصول الكتاب التى تدور كلها حول

مشاكل وأزمات وقضايا دور الأديان فى النزاعات الكونية، والإسلام وإشكاليات الحداثة، ومشكلات الاندماج القومى فى السياقات العولمية والإقليمية المتغيرة، والحاجة ـ بالتالى ـ إلى إصلاحات دينية وسياسية وقانونية، وهى دراسات وأوراق بحثية، شارك بها المؤلف فى منتديات دولية وعربية. والكتاب يضم أقساماً ستة تشمل نحو ثلاثين فصلاً، بين عناوينها: الأديان والنزاعات العولمية، الإسلام وإشكاليات الحداثة فى عالم متحول، أزمات الاندماج القومى المصرى، نحو إحياء وإصلاح علوم الدين.

ويجمع الكتاب بين التحليل النظرى والتطبيقات العملية، أى أنه لا يكتفى فحسب بانتقاد الأوضاع القائمة، لكنه يمارس دوراً أبعد باقتراح حلول لمعظم المشكلات التى يعالجها بطريقة هيكلية قابلة للتطبيق.

■

تونى بوزان

الرياض: مكتبة جرير، ٢٠٠٣، ١٩٥ صفحة



فى هذه الطبعة الألفية لكتاب «استخدم ذاكرتك» الذى قامت BBC الكلاسيكية بطبعه، يكشف تونى بوزان بطريقة مذهلة عن أسرار كيفية تنمية ذاكرتك.

وهو يعلمك كيف تنمى ذاكرتك فيما يتعلق بالأسماء، الأرقام، التواريخ والقوائم، وأيضاً الأحاديث، والمقالات، والشعر والكتب بأكملها. ويوجد فى الكتاب أجزاء: للاعبى الورق، ولمن يتعلمون لغات جديدة ولهؤلاء الذين يذاكرون استعداداً للامتحانات، وأيضاً فصل شيق عن كيف تتذكر أحلامك.

إن كتاب كيف تستخدم ذاكرتك سيكون ذا جدوى بصفة خاصة لطلاب الجامعات والمدارس خلال دراستهم، وخاصة خلال أوقات الامتحانات والمراجعة، وسيكون مفيداً أيضاً لرجال الأعمال ولهؤلاء الذين يرغبون فى تنمية قدرتهم الذهنية عندما تتقدم بهم السن، ولأى شخص ينضم لرياضيى الذهن الذين يزداد عددهم بسرعة كبيرة، والذين يعدون أنفسهم لخوض منافسات وبطولات الذاكرة. هذا الكتاب يتناول بالشرح كل أنظمة الذاكرة الكلاسيكية، هذا بالطبع بالإضافة إلى تقنيات خرائط الذهن الشهيرة التى قام بإعدادها تونى بوزان.

■

أمكنة (دورية)

الإسكندرية: أكتوبر، ٢٠٠٣، ٢٨٠ صفحة



لن نمل إعلان فرحتنا كلما صدر عدد جديد من هذه الدورية التى نتمنى أن تستمر بالقدر ذاته من الإبهار والتفوق والاستقلالية، وميزة هذه الدورية وبين أيدينا عددها الخامس، ليس فقط موضوعها الفريد وصياغتها الراقية وارتيادها لمساحات مجهولة، أو كانت كذلك، وإنما فى إصرار مجموعة الشباب القائمين عليها أن تظل موجودة، وأن تتواصل مع قارئها عبر انشغالها الحميم والحقيقى بثقافة المكان.

يتضمن العدد الجديد حواراً مع النحات الراحل محمد مرسى، الذى رحل فى العام الماضى عن ٨٢ عاماً، والذى ظل حتى الأيام الأخيرة من حياته ـ ورغم وهن جسده ـ يواصل الحفر على الجرانيت والرخام والخشب، حوار كلامه قليل، وفوتوغرافيا إسلام العزازى تثريه بما يغنى عن أى قول.

الملف الرئيسى للعدد حمل عنوان «البطل» ويتضمن مقالات: أبطال المدن الصغيرة، حكايات المرأة البحرية، حضور الظل، البطل والعذراء فى الزجاج الكبير، البطل كان الطفل والخامة معاً، مملكة الكلام وغيرها.

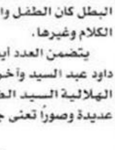
يتضمن العدد أيضاً حواراً مع المخرج داود عبد السيد وآخر مع شاعر السيرة الهلالية السيد الضوى، وموضوعات عديدة وصوراً تعنى جميعاً بثقافة المكان.

■

فى غربة الشمس

سليم الرافعى

طرابلس ـ لبنان: المؤلف، ٢٠٠٣، ١٥٨ صفحة



نصوص من الشعر الكلاسيكى، إضافة إلى كتابات نثرية تتناول قضايا عديدة سياسية واجتماعية وفكرية، يكتب المؤلف عنها بروح فلسفية تنشد الحكمة وتتطلع إلى الكمال.

من أجواء الكتاب:

هبة النيل هل سلوت الحوارا

صرخ العاشق الذى لا يدارى

النظام السياسى فى الإسلام بين برهان غليون وسليم العوا!

بعد الثناء على ما يمثله محمد سليم العوا من اجتهاد عقلى حديث «يدفع بالفكر الإسلامى المعاصر نحو آفاق ديمقراطية»، يبدأ برهان غليون سلسلة من الانتقادات تنسف الفكرة التى قام عليها من الأساس خطاب «العوا» عن النظام السياسى فى الإسلام، مؤكداً على ضعف الاتساق النظرى الذى يميز هذا الخطاب، ولضيق المساحة، سنكتفى بإشارات سريعة تلخص الجدل فى هذا الموضوع المهم، أولها أن «العوا» يختصر مسألة السياسة فى الإسلام فى مفهوم السلطة الإسلامية، دون أن يكون للفرد أو للمجتمع عنده أى أثر، والديمقراطية الإسلامية التى يعدنا بها لا تمانع فى الاختلاف والتعددية لكن بشرط أن تبقى ضمن المرجعية الإسلامية، وهذه الرؤية ـ بحسب «غليون» ـ تلغى نظرية الدولة الحديثة وتقيم دولة دينية بالمعنى الحرفى للكلمة، دولة عقيدية كما كانت دولة البعث فى العراق وسورية، ويعيب «غليون» على «العوا» خلطه بين مفهومى الدولة والأمة، وخصوصاً أن الأمة التى يقصدها «العوا» ليست سوى «الأمة الإسلامية»، كما أن مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى يعده القيمة الأساسية فى السياسة الإسلامية، يصطدم بتجربة غير مشجعة (الوهابية)، فضلاً عن إمكانية إساءة استخدامه من قبل الحاكم فى مواجهة معترضيه للإطاحة بهم، ونفس الشىء ينطبق على الشورى التى ـ بدون نظام للدولة الحديثة ـ تبقى مرهونة بمزاج الحاكم وتصوراته، من ناحية أخرى فإن هذه الرؤية تغيب الفرد المواطن، وحريته وحقوقه هى شرط أساسى فى قيام دولة حديثة لا تنتمى إلى أسر أو مذاهب أو طوائف حاكمة، وتختفى فكرة المواطنية الفردية لحساب «الجماعة المتحدة بالدين»، ويرى «غليون» فى مطابقة «العوا» بين مصطلحى الشريعة والقانون خطراً ماثلاً، وإن كان «العوا» يختلف عن عديد من المفكرين الإسلاميين فى أنه يتحدث عن «شريعة قانونية» وهذا ـ برأى «غليون» ـ خلط كبير، فالشريعة موجهة للجماعة والقانون موجه للدولة، وليس صحيحاً أن المجتمع الإسلامى لم يعرف التمييز بين الأحكام المرتبطة بالدين والاعتقاد الدينى، والخلاف ليس فى مكانة الشريعة ولا مكانة القانون، وإنما بتنظيم النشاطات الإنسانية العمومية، وهذا هو مجال السياسة لا الدين والمعتقد، وحيادية الدولة فى هذا الإطار ليست قيداً على الدين وإنما «تحرير للدين من استخداماته المسيئة من قبل السلطة والدولة»، هذه مجرد عينة من انتقادات «غليون» على طرح «العوا» الذى يراه دعوة «لديمقراطية ملغمة مفرغة من مضمونها السياسى والاجتماعى».

من جهته، يلمح «العوا» إلى تناقض بين اعتبار «غليون» النص القرآنى مقدساً، ثم نفى أى قدسية عنه فى السياق ذاته، كما يرفض استنتاج «غليون» من أن اجتهادات العلماء وتفسيراتهم فى النص القرآنى، أوجدت نصاً موازياً طغى فى فترات تاريخية عديدة على النص الأصلى، وكذلك الحال فى اعتباره الفقه والشريعة نصاً موازياً للقرآن ومختلفاً عنه، وكلاهما مصدرهما القرآن، وانطلاقاً من هذه الفرضيات التى رآها «العوا» خاطئة، فإن الحديث عن النزوع للتسلط والعدوانية لدى حكام المسلمين استناداً إلى التأييد الربانى كما يقول غليون، تبدو من وجهة نظر العوا بحاجة إلى مراجعة ونظر جديد، وكذلك الحال بالنسبة لمقولات عديدة يرددها «برهان»، يراها «العوا» انتقادات واجهها الفكر الأوروبى لآثار سيطرة الكنيسة على الإنسان المسيحى، ولا صلة لها بالمجتمع ولا بالفكر الإسلامى، ويعيب «العوا» على «غليون» ترديده لعبارات تفتقر إلى دلائل تثبت صدقها، مثل شعور جمهور كبير من المسلمين بالغبن من بيعة أبى بكر، وميل هذا الجمهور لأهل البيت، أو أن عمر بن الخطاب أجبر الجميع على الاقتداء به، أو أن النبوة ولدت عند العرب بوصفها حركة ثورية.. «فمحمد نبى وخاتم المرسلين وليس قائد ثورة (...) كما أن العرب كلهم لم تكن لديهم دولة ليواجهها الإسلام بالثورة، حتى تكون النبوة ثورة مقابلة للدولة»، كما أن الدولة الإسلامية الأولى أقامها النبى غداة هجرته إلى المدينة، ولم تقم «بعملية قيصرية من رحم الحرب الأهلية التى تمخض عنها أول حكم سياسى مستقل فى الإسلام هو السلطة الأموية، كما يذهب غليون».

هذا بعض من جدل كبير مهم حول موضوع شائك لم يتوقف الجدل بشأنه لقرون، وما يثيره المفكران الكبيران عبر هذه السلسلة الجادة «حوارات القرن»، يبقى صالحاً لمزيد من الاجتهاد من آخرين شرقاً وغرباً.

النظام السياسى فى الإسلام

برهان غليون ـ محمد سليم العوا

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤، ٣١٢ صفحة

يقرأ الموج قصة وحبيبا
ويفوح الحبيب عطرا ونارا
إنه الموكب المضيء تمادى
فى الليالى وعانق الأدهارا
وحديث من الروائع ينمو
كل يوم تسترا وجهارا
مزق الصمت أيها الحب
فى قلوب العشاق غير العذارى؟

■

حكومة العالم السرية

فيجاى براشاد
ترجمة: فاطمة نصر
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٣، ٢٨٤ صفحة



بشكل ما، مثل انهيار «إنرون» النفطية العملاقة انهياراً لليبرالية الجديدة (المتوحشة)، تلك التى ولدت الفقر وهى تنشر شعاراتها المبتذلة عن الأسواق المفتوحة.

جسدت «إنرون» بكل ما جرى فيها وكل ما قيل عنها إمبريالية الولايات المتحدة الأمريكية، جوع القطط السمان ولهاث الكلاب التابعة للاستحواذ على ثروات العالم.

وقد حولت ليبرالية العالم المفرط فى النمو الديمقراطية إلى سلعة، وممثلى الشعب إلى موظفين لديها.

جاء بوش وتشينى إلى البيت الأبيض بفضل الدعم السخى للشركات العملاقة.

قصة إنرون هى قصة تحويل ما كان ملكية عامة ومرافق خدمية إلى سلعة قابلة لارتفاع سعرها، بل واحتكارها.

منذ الثلاثينيات وحتى السبعينيات، تكفلت الديمقراطية الاجتماعية بمعالجة مثل هذه الأطماع.

لكن التسعينيات التى شهدت تحولات مهمة ومؤثرة فى العالم كله، حملت أشكالاً جديدة من الاحتكارات ونزعات مبتكرة للهيمنة عبر الحدود.

وقد سعت الإمبريالية الجديدة إلى تقليص فكرة الناس عن الرفاهية الاجتماعية، بعد ما تمكنت الإمبريالية خلال العقود الثلاثة الماضية من بسط السيادة على الأرض.

بحسب المؤلف، نحن نعيش اليوم مرحلة إرهاب الشركات، والكتاب يفضح الأساليب التى تتبعها هذه الشبكة العنكبوتية ومن يقفون وراءها.

■

القانون فى خدمة مَنْ؟

محمد نور فرحات
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٤، ٤٢٢ صفحة



تحولت المحاكم والنظام القضائى إلى بؤرة صراع سياسى مكثف فى العالم العربى، احتدم لما يزيد على القرن فى بعض الأماكن. فالقضايا القانونية ترتبط بشدة بتحديد القوى السياسية وأدائها فى المجتمع. والمواطنون العرب يقيمون وزنا للمحاكم والنظام القانونى فى كثير من شئونهم، ويلجأون إلى المحاكم بمعدلات كبيرة. وهذه الدراسة تهتم بدور المحاكم فى الحياة الاجتماعية والسياسية فى العالم العربى مع التركيز على مصر. ويتضمن الكتاب ثمانية فصول تبدأ برؤية مقارنة للمحاكم العربية ودور النظم القانونية فى هذه المجتمعات، ثم النظام القانونى المصرى الحديث من ١٨٧٦، ١٩٣٧، ثم المحاكم المصرية ٣٧، ١٩٧١، والمحاكم المصرية ٧١، ١٩٩٦، والإصلاح القانونى فى دول الخليج العربى ويخصص لهذا الموضوع فصلين مركزًا على الكويت وقطر، حيث يدرس استقلال القضاء فى الكويت والمحاكم الاستثنائية فيها، ودور المحاكم وآفاق الشرعية الليبرالية فى قطر، وأجهزة القضاء فى الخليج والتجربة المصرية.

وينتهى المؤلف إلى نتيجة غير مبشرة، ففى رأيه أن العلاقة بين القانون والمشروعية فى البلدان العربية هى أضعف بكثير مما توقعه المنظرون القانونيون، فالحكام والمحكومون كل من موقعه، نظر إلى القانون والمحاكم بعيون نفعية تماماً.

■

موسوعة الحرف التقليدية بالقاهرة التاريخية

مجموعة من الباحثين
تحرير/ عزالدين نجيب
القاهرة: أصالة لرعاية الفنون، مؤسسة أغاخان للخدمة الثقافية، ٢٠٠٤، ٢٠٠ صفحة



تواجه عديد من الحرف الفنية التى

محاكمة تاريخية لرواية صنع الله (أمرى كان لى)!

ثمة فروق مهمة بين عمل يستوحى التاريخ، وآخر يستنسخه أو يتكئ عليه، ويعرف تاريخ السرد العربى أعمالاً مهمة صنفت ضمن الرواية التاريخية، «رادوبيس» مثلاً أو «كفاح طيبة» لنجيب محفوظ، أو مسرح شعرى كما فى «قمبيز» لأمير الشعراء أحمد شوقى، أو بعض أعمال باكثير والسحار، وأعمال نجيب محفوظ فى مجملها لا يغيب عنها التاريخ بمعناه الأشمل، السياسى والاقتصادى والاجتماعى. تحليلات عميقة لواقع معاصر كما رأتها عين الأديب، هكذا يمكن أن تقرأ «الثلاثية» و«ثرثرة فوق النيل» و«ميرامار» و«الطريق» و«زقاق المدق» وكذلك «القاهرة ٣٠» و«اللص والكلاب» وصولاً إلى «الكرنك»، والرواية وليدة مجتمع مدنى، نبت تحولات وصراعات وتشابكات بين فئات وطبقات اجتماعية مختلفة، باختصار: يحضر التاريخ أينما حضرت.

ليس مما يدهش كثيراً إذن أن تناقش رواية فى جمعية تهتم بالدراسات التاريخية، تزول الدهشة إذا كانت الرواية هى «أمريكانلى» آخر أعمال الأديب صنع الله ابراهيم، والتى يخطو بها خطوة أبعد مما ذهب إليه فى أعماله السابقة، المستندة إلى التوثيق واستدعاء الإحالات التاريخية والمعاصرة، من الصحف والدوريات وكتب التاريخ، وهو الاتجاه الذى توطد منذ روايته «ذات» (١٩٩٢)، والتى مثلت اتجاهاً نوعياً للمؤلف فى هذا الاتجاه، إذ خلافاً لـ «اللجنة» و«تلك الرائحة» وحتى «بيروت بيروت» «نجمة أغسطس»، بدا أنه يعتمد كليًا على التوثيق، وفى روايته تلك «أمريكانلى» التى ناقشها مؤرخون فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، يجعل صنع الله بطله أستاذاً للتاريخ المقارن يحصل على منحة تؤهله لدورة تدريسية فى معهد متخصص فى الدراسات العربية بجامعة سان فرانسيسكو، وكما هو متوقع، سيبهره النظام والنظافة واحترام الإنسان واتساع الشوارع وعلو المبانى، وسيقارن بسرعة بين الحال هنا والحال هناك، وستتولد الإحباطات الملازمة لهذا الشعور الضاغط بالدونية والانسحاق، والتى ستجد تجلياتها فى الجنس بالذات، بوصفة حالة شرقية بامتياز، لكن الأستاذ شكرى، سيكون عليه من ناحية ثانية، أن يواجه هذا المجتمع الصراعى القائم على النفعية والمغامرة، والحديث نسبيا قياساً إلى مصر القادم منها الأستاذ شكرى، ذات الحضارة العريقة، سيكون عليه أن يواجهها بمخزونه الحضارى والإنسانى والثقافى الموغل فى القدم، كى يعوض هذا الشعور بالانسحاق تجاه هذه الحضارة الحديثة.

المهم أن صنع الله إبراهيم، عودة إلى الندوة، حدد مفاصل عدة للتعاطى مع روايته تاريخيًا: لماذا انهارت الدولة الفرعونية، الغزو العربى لمصر، محمد على وبدايات النهضة، بدايات تكوين الشخصية المصرية الحديثة، حركة الجيش فى يوليو ٥٢، وفتح الباب للمناقشين المؤرخين الدكتور محمود إسماعيل والدكتور عاصم الدسوقى، فإذا بالأول يغرق فى الإشادة بأهمية المادية الجدلية فى فهم التاريخ، وبالمفاتيح العديدة التى يقدمها الكنز المعرفى للماركسية بعيداً عن سياق الرواية. أما الدكتور عاصم الدسوقى فقد تعامل مع مقولات شخوص الرواية بوصفها، جميعا، آراء المؤلف نفسه، وهذا خطأ فادح فى التعاطى مع عمل أدبى، إذ حتى الراوى نفسه، فى كثير من الروايات، لا يمكن أن نضعه فى حالة «تماهى» كلى مع المؤلف، مالم تكن الرواية سيرة ذاتية لصاحبها، وقد ترتب على هذا الخطأ المبدئى، سلسلة متتالية من الأخطاء، وقدم المؤرخان الكبيران، بعيداً أيضاً عن سياق الرواية، رؤيتين متضادتين للتاريخ المصرى ونضال المصريين عبره، إذ رأى إسماعيل أسباباً تدعو للمفاخرة والزهو، حيث حضارة زاهرة وكفاح متواصل لتحقيق الغايات الكبرى، فيما رآه الدسوقى تاريخًا من الخنوع والخيبة، وأما التحولات العظمى فكانت فوقية لا يد للمصريين فيها.

وبدأت سلسلة من التصويبات التاريخية، قدمها المناقشان والحضور، تعلق بعضها «بالسياقات» و«الدوافع» وصولاً إلى النتائج، واعترض عالم الآثار الدكتور جاب الله على جاب الله الذى كان أميناً للمجلس الأعلى للآثار سابقًا، على عدد معتبر من المعلومات الأثرية المغلوطة الواردة فى الرواية، ويبدو أن هذا هو قدر السرد القائم على الغزارة المعلوماتية، والذى يحاكى عصر الصورة والكمبيوتر والإنترنت.

رافقت الإنسان المصرى منذ آلاف السنين متكاملة مع حياته اليومية خطر الانقراض، فى غياب معرفة مرجعية لها ممثلة فى مراجع او موسوعات او كتب او افلام تسجيلية فى وقت اتجهت فيه كثير من الدول إلى توثيق ما لديها من حرف وصناعات، على قلتها، بشتى السبل، وبأعلى مستوى من البحث العلمى والإخراج الفنى، وفى استثمارها ثقافياً واقتصادياً، ما جعل هذه الحرف مصدراً مهماً من مصادر الدخل القومى.

ويمثل هذا الجزء الأول من موسوعة الحرف التقليدية بادرة مهمة فى اتجاه توثيق هذه الحرف التى أوشكت على الانقراض، وقد بدأ مشروع التوثيق فى الشهور الأولى من عام ٢٠٠٣ بفريق من الخبراء المتخصصين فى أربعة حرف هى الخرط اليدوى والتطعيم فى الخشب والخيامية والمصاغ الشعبى، بمساعدة مجموعة من شباب الباحثين الذين يقيم معظمهم فى المناطق التى توجد بها ورش الحرفيين.

وإلى جانب الدراسة الميدانية، استعان الباحثون بمراجع تاريخية موثوق بها، كى تكتمل الصورة حول العلاقة بين هذه الحرف والتطورات الاجتماعية والمؤثرات الثقافية فى المجتمع المصرى.

■

الفنان وديع شنودة

الإسكندرية: دار الثقافة، ٢٠٠٣



عبر رحلة عمر قصيرة عاشها الفنان (١٧ نوفمبر ١٩٢٣ - ٥ سبتمبر ١٩٦٩)، قدم أعمالاً رائعة برهنت على موهبته الأصيلة وانشغاله بهموم الإنسان فى كل مكان.

وقد وجد وديع أن الأسلوب الأكاديمى الذى درسه فى مدرسة الفنون الجميلة العليا التى تخرج فيها عام ١٩٥٠ لن يساعده فى رسالته الإنسانية.

فأخذ يبحث عن أسلوب بسيط يساعده فى هذا الاتجاه، ووجده فى التلقائية التى لاذ بها، وفى تقسيم مساحة اللوحة إلى مربعات ومثلثات، وأن يمنح الألوان دلالات رمزية وليست ألواناً واقعية.

وهذا الكتاب التذكارى يضم إلى جانب الدراسات عن مسيرة الفنان وتطور أسلوبه وإبداعاته بشتى الخامات، بعض ما كتب عنه من نقاده ودارسيه وزملائه، وندوة عنه شارك فيها كثيرون من محبى فنه.

■

الإدمان

عبدالهادى مصباح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٤، ٣٠٣ صفحات



هل يمكن أن يؤدى التقدم العلمى المذهل الذى نشهده، والثورة العلمية المتسارعة التى أدت إلى اكتشاف الخريطة الجينية للإنسان، إلى اكتشاف جينات مسئولة بشكل مباشر عن سلوكيات الإنسان ومزاجه النفسى؟ هل يمكن أن نكتشف الجينات المسئولة عن الإدمان والجريمة والعنف والخجل والسمنة والذكاء والعبقرية والميل الجنسى بأنواعه.

المؤلف يناقش هذه القضية ذات الطبيعة العلمية والفلسفية فى آن معاً من عدة وجوه، بادئاً بالإدمان فى هذا الكتاب.

■

وفاة الأمم المتحدة

سعيد اللاوندى

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٤، ٣٥٠ صفحة



لم تعد الأمم المتحدة صوتاً للمجتمع الدولى أو ممثلاً للشرعية الدولية، وإنما قصارى أمرها أن تكون أداة لإضفاء الشرعية على القرارات الأمريكية. هذا بعض ما قاله الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة كورت فالدهايم تعبيراً عما آل إليه حال المنظمة الدولية فى أعقاب انتهاء الحرب الباردة وسيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على مقادير العالم.

وواقع اليوم كما يرى المؤلف، يفرض على المنظمة أن تدرك المتغيرات التى جرت فليس هناك سوى قوة عظمى وحيدة تعيش حرباً باردة جديدة تقف فيها هذه القوة فى ناحية، بينما تقف دول العالم أجمع فى الناحية المقابلة.

المؤلف يرصد ما آل إليه حال الأمم المتحدة، وانهيارها الذى تأكد فى عديد من المناسبات الدولية.

وأخيراً هل بالإمكان إصلاح حال الأمم المتحدة، أم علينا أن ننتظر انهيارها غداً أو بعد غد؟

الخلاصة التى يقدمها المؤلف أن الأمم المتحدة بصورتها الحالية لم يعد أحد فى حاجة إليها، لأنها أصبحت تابعاً لا متبوعاً، ولئن كانت تريد البقاء حارساً أميناً على السلام العالمى، فيجب أن تتوفر لها كل الضمانات لكى تعود إلى موقع السائق، وإلا فإن منطق القوة العمياء الباطشة هو الذى سيسود.

■

لا إكراه فى الدين

إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام حتى اليوم

طه جابر العلوانى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣



المسألة الأساسية التى يعالجها المؤلف هنا هى الردة الفردية، أى تغيير الإنسان لعقيدته، دون أن يقرن ذلك بخروج على نظام الجماعة وإمامتها وقيادتها الشرعية، ولم يقطع الطريق أو يرفع السلاح فى وجه الجماعة ولم ينضم إلى أعدائها، وكل ما فعله هو تغييره لعقيدته، فهل لمثل هذا شرع الله حداً هو القتل بعد الاستتابة أو بدونها، وإذا قتله أحد أبناء الأمة فلا يقتص منه اكتفاء بعقوبة الافتئات على الحاكم، وهل يجب على الأمة أن تكره هذا وأمثاله على الرجوع إلى الإسلام بالقوة، وهل لو حدث هذا يعد من قبيل الإكراه فى الدين الذى نفاه القرآن المجيد، وهل القول بوجوب قتل المرتد أمر مجمع عليه فى كل العصور، وهل إذا قيل بوجود قتل المرتد، فهل يعنى ذلك أن الكفر المجرد يصلح لأن يكون سبباً لإيقاع عقوبة القتل شرعاً، وهل الردة تعد خروجاً من الإسلام أو خروجاً عليه.

هذه أسئلة الكتاب الأساسية التى يسعى المؤلف للإجابة عنها.

■

حلف الإرهاب

عبدالرحيم على

القاهرة: دار المحروسة، ٢٠٠٤، ٣ أجزاء



فى مواجهة حلف القوى الغربية المعادى للإسلام أو «التجمع الكفرى العالمى، كما يسميه أيمن الظواهرى الرجل الثانى فى تنظيم القاعدة، والذى يضم أمريكا وإسرائيل وروسيا، أعلن الظواهرى فى وصيته «فرسان تحت راية النبى»، عن حلف أصولى يضم قوى تنمو وتتجمع تحت راية الجهاد فى سبيل الله خارج قانون النظام العالمى الجديد، تتحفز للانتقام من رؤوس التجمع الكفرى العالمى.

والمؤلف يتابع فى هذا الكتاب نشأة وتطور هذا الحلف فى كتاب من ثلاثة أجزاء، منذ كان الحلف فكرة فى ذهن مؤسسه الأول عبدالله عزام حتى تطور إلى واقع ملموس على يد أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى، حيث يقدم المنهج الفكرى لهذا التنظيم الذى اصطلح على تسميته بتنظيم القاعدة، ويناقش أكثر من ثلاثين وثيقة فكرية تتضمن أهم ما أنتجه القادة الثلاثة للتنظيم.

■

التحديات التى تواجه العالم الإسلامى

توحيد الزهيرى

القاهرة: دار الجميل، ٢٠٠٣، ٢٤٠ صفحة



أسباب عديدة تقف وراء الأزمة التى يعانيها العالم الإسلامى، بعضها يعود إلى خلل فى البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلدان الإسلامية.

وبعضها يمكن رده إلى ميراث الاستعمار الطويل الذى رزحت تلك البلدان تحته، والذى نهب ثرواتها وعطل إمكانات التقدم فيها عشرات السنين.

هذا الكتاب، ومؤلفه طبيب بشرى فاز بالمركز الأول فى مسابقة أقيمت تحت رعاية الأزهر الشريف، يخلص إلى أن سر الأزمة التى يعانيها العالم الإسلامى، إنما يكمن فى علاقته المريضة غير السوية مع المشروع الحضارى للغرب، حسب تعبير المؤلف، الذى يشير إلى أربعة تحديات ينبغى على العالم الإسلامى أن يواجهها وهى: التبعية للغرب وهى تحدى الرسالة الإسلامية، التغريب وهو تحدى الهوية الإسلامية، التمزيق السياسى وهو تحدى الوحدة الإسلامية، إسرائيل أو المشروع الصهيونى فى قلب العالم الإسلامى والذى يجسد ذروة الصراع المحتدم بين الإسلام والغرب.

وهو يناقش تفصيلاً عبر صفحات الكتاب تلك الإشكاليات ويقترح سبل الخلاص.

■

الكلمات تستطيع أن تقتل

.. وأن تشفى أيضا!

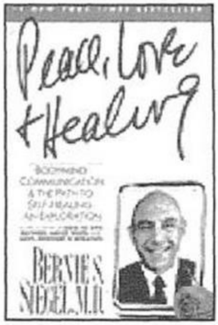
هناك صور متعددة للتواصل مع أنفسنا. إن مشاعرنا هى الوسائل الأولية فى التواصل معها: فالمشاعر التى يثيرها تلامس الأيدى عند بعض الناس وصوت الموسيقى ورائحة الزهرة والغروب الجميل للشمس والعمل الفنى والحب والضحك والأمل والإيمان: كلها يؤثر على الجوانب الشعورية واللاشعورية جميعاً فى النفس. وللمشاعر نتائج فسيولوجية أيضاً، بل إن للحيوانات الأليفة فى بيوتنا بعض الأثر على سلامتنا الصحية. وقد لخص تقرير حديث من المعاهد القومية للصحة نتائج بعض الباحثين، وتبين أن للحيوانات الأليفة قدرة التأثير على سرعة القلب وضغط الدم عند أصحابها.

وربما كانت الكلمات التى نوحى بها إلى أنفسنا هى أشد الوسائل تأثيراً فنياً من الناحية الاختيارية المباشرة.

ولكن كيف تنفذ الكلمات إلى أعماقنا. وكيف تتم ترجمة لغة الألفاظ إلى أحداث فسيولوجية؟ إن الصور الذهنية هى جسور الاتصال وفقاً لما تذكره جين أخترييرج Jeanne Achterbery: Imagery in Healing فى كتابها: التصور ودوره فى الشفاء. وتعتقد أخترييرج أن كلمات الرسائل «يجب أن يترجمها المخ فى نصفه الكروى الأيمن إلى مصطلحات غير لفظية أو مصطلحات صورية قبل أن يفهمها الجهاز العصبى اللاإرادى أو التلقائى».

إن هذه الكلمات التى نوحى بها إلى أنفسنا تصبح مفهومة للبيئة الجسمية الداخلية بعد تحويل مسميات الألفاظ أو أوصافها إلى صور ذهنية. وإذا سلمنا بذلك فإن لنا نصيباً كبيراً من السيطرة على الصور الذهنية التى نخلقها فى أذهاننا نتيجة لإيحاء الكلمات. وعلينا دائماً أن نتأكد من استخدامها فى رسم الصور الذهنية التى تؤكد الحياة وتزيدها ثراء. إن تحقيق نبوءاتنا حقيقة واقعة: ويمكن أن نستغلها فى مصالحنا، ونستطيع أحياناً أن نجعلها حقيقة فسيولوجية.

وتشير أخترييرج ـ تدعيماً لآرائها ـ إلى دراسات تبين أثر التصور على العمليات الفسيولوجية كاختلاف اللعاب وسرعة القلب والتوتر العضلى ومقاومة الجلد ومستوى السكر فى الدم ونشاط



غلاف الطبعة الإنجليزية

الجهاز الهضمى وتكوين النقطات الجلدية وضغط الدم والتنفس. وتشمل هذه القائمة من التأثيرات جميع التغييرات فى الجهاز العصبى التلقائى، ونحن نعتبرها فى الأحوال العادية خارج نطاق السيطرة الشعورية. كما تشمل التأثيرات ما يحدث من التغيرات فى الجهاز العضلى الحركى. إن قائمة مشابهة من عمليات الشفاء موجودة فى كتاب إرنست روسى Ernest Rossi: The Psychobiology of Mind-Body Healing وعنوانه البيولوجيا السيكولوجية لشفاء العقل والجسم، وترجع القائمة إلى أبحاث ت. باربر T. Barber وهو إخصائى فى العلاج بالتنويم المغناطيسى. ويجوز أن تحدث كل التغييرات المذكورة نتيجة الاستجابة لأنواع من التصورات العقلية. وذلك عندما نطلب من العقل تصور الأحداث أو الأشياء (أو سماعها أو شمها أو لمسها أو تذوقها). ومازالت هذه التغييرات نتيجة للإيحاءات غير واضحة، وربما حدثت نتيجة الاختلاف فى سريان الدم كما تظن باربر، أو نتيجة للتغير فى مستوى الببتيدات العصبية. أما أن التغييرات تحدث فعلاً فهو أمر لا شك فيه.

والغالب مع ذلك أننا نعوق أنفسنا بالرسائل السلبية الصادرة منا أو من الشخصيات التى تمثل السلطة، وذلك بدلاً من دعم أنفسنا بالرسائل الإيجابية، ولا يأخذ معظمنا مأخذ الجد ما فى الكلمات من قوة التصوير. وتستطيع الكلمات أن تقتل، كما تستطيع الشفاء. ويحتاج كثير من الأطباء إلى إدراك تلك الحقائق.

فما الذى يجعلنا ـ نحن الأطباء ـ نقاوم النجاح، ولماذا يجب علينا إنكار الحكايات النادرة؟ إنى أطالب كل طبيب



.. وغلاف الطبعة العربية

وأقول: أرجوك ألاّ تنكر إحدى الحكايات النادرة إذا دخلت فى عيادتك. وإذا نجح الناس فى إنجاز الأمور وهى تخالف معتقداتك فعليك أن تتقبلهم وتحبهم، ولو كنت تخالفهم فى خياراتهم. وسوف يستريح المرضى ويشعرون بالرعاية الطبية لهم على هذا النحو. كما يقدرون على الإفادة من جميع الخيارات المتاحة أمامهم. وفى إمكانهم أن يحتملوا الخلاف فى الرأى لا التدمير.

ولا يرفض كلام الطبيب المدمّر إلاّ مريضٌ شديد البأس بالغ الاعتماد على نفسه. وكثير من الناس عاجز عن ذلك. وقد سمعت ـ من عهد قريب ـ طريقة خاصة، وقد ابتكرها واحد من الناس حتى يواجه السلبيات التى دأب الأطباء والممرضات على بثها فى سبيله.

وكان المريض أهلاً للالتحاق بأحد البرامج العلاجية التجريبية بالمواد الكيماوية: فقد كان مصاباً بنوع نادر من السرطان، وقيل له إنه سيموت فى فترة تتراوح بين ثلاثة أشهر وعام.

ويبدو أن الهيئة الطبية تجاوزت حدودها: فأكدت له أن الفرص ضئيلة فى علاجه، وأن علاجه بالإشعاع عديم الفائدة، وأن الآثار الجانبية للعلاج الكيماوى فظيعة، وذلك بدلاً من تشجيعه على كل حال، بل ذكروا هذه الآثار الجانبية قبل ظهورها.

ولذلك تجشمت إحدى الممرضات عبء الإشارة إلى الزمن الطويل قبل ظهور الأعراض على بعض الناس أحياناً.

وكتب المريض بياناً للدفاع عن نفسه ثم ألصقه بالحائط:

«عقيدة إدوارد وهى موجهة إلى طبيب جديد يتابع حالتى، وإنى أعرف الأمور الآتية:

١ ـ أنا مصاب بسرطان ردىء، كما قرأت بروتوكول العلاج، وأعرف أنه قد يقتلنى.

٢ ـ أعرف مدى الرداءة فى هذا السرطان، فقد تعودت على العمل فى إدارة المستشفيات.

٣ ـ أعلم أن جميع العلاجات لا تخلو من الأخطار، وهى تشمل الموت.

وبناء على ذلك:

١ ـ لا حاجة لإعادة ما سبق.

٢ ـ إن الأفكار الطيبة والصداقة والنصيحة والتشجيع والأمل والحب والنشاط والابتسامات أتقبلها جميعاً بالامتنان.

وأرجو أن تتخلى عند باب الدخول عما لديك من التشاؤم وعوامل التثبيط والمرارة والأسى والوعظ السلبى دون أن تتخلى بالطبع عن أمانتك.

إنى أرجو أن تعلم عنى ما يلى:

١ ـ أعرف قدرتك على تقديم المساعدة الإيجابية إذا أردت، ولكنى أرجو أن تذكر مع ذلك أن حياتى تخصنى كما تخص الذين أتبادل الحب معهم.

٢ ـ إننى وزوجتى نعرف أن تأثير الدواء الجيد يتفوق على المعلومات المهمة جداً والمهارات والمواد الكيماوية وجبلّة الخلايا. ونؤمن كذلك بالقدرات العقلية والمناعية للجسم، فضلاً عن القدرات الروحية.

ونحن فى حاجة إلى كل المساعدات الممكنة حتى نجمع كل هذه الموارد فى حل مشكلتى ونساعدك على تقديم العون لنا.

٣ ـ إن لدىّ أهدافاً كثيرة أحيا من أجلها، وأبذل جهداً بالغ المشقة كى أعمل كل ما أستطيع من الناحية العقلية والجسمية حتى تصبح إرشاداتك فعالة قدر الإمكان.

٤ ـ إنى أعرف شخصياً أناساً من المصابين بمرضى، وقد تحسنوا على الرغم من الفرص الضئيلة، وإنى أنوى ذلك أيضاً باستغلال أقصى ما عندى من الزمن الطيب فى سبيل الخير لى ولأحبائى.

وذلك ما دعانى إلى الحضور هنا، ولولاه ما جئت.

٥ ـ إن فى قلبى أملاً هناك، وهو ألاّ تفعل شيئاً يشجع على التشاؤم والمرارة بدلاً من الأمل، لأن ذلك سوف يُقلِّل من تهدئتى النفسية ويزيد حالتى سوءاً دون ريب».

وأود أن يقرأ الأطباء والمرضى جميعاً عقيدة إدوارد حتى يقلع الأطباء عن كلماتهم المدمرة، وهى تفسد المنافع الممكنة لأدويتهم، وسوف تلهم المرضى عصيان أولئك الأطباء الذين يُصدرون أحكام الموت عليهم.

صفحات من كتاب:
السلام والحب والشفاء
تأليف: د. بيرنى سيجل
ترجمة: د. عزت شعلان
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣

La Marche Des Idees Histoire des Intellectuels, histoire Intellectuelle

(مسيرة الأفكار، تاريخ المفكرين)

Francois Dosse

La Decouverte, SArmillaire, 360PP



رغم اتهامهم من جانب بعض الدوائر الفرنسية «بالتملص» من ممارسة مهامهم و«بعدم المسئولية» وتعرضهم لموجة من الرفض من أكثر الأقسام راديكالية فى شباب الطلاب الفرنسيين.. يبدو أن المفكرين أصبحوا، مع انتهاء ربيع عام ١٩٦٨ هدفاً لإزالة الشرعية عنهم فى عدة جوانب: فقد تزعزعت سلطتهم الأخلاقية بفعل ماتعرضوا له من اتهامات بإثارة الفوضى وطالب بعض شباب المفكرين بأن يمارسوا، بدلاً منهم، مهمتهم السياسية كحراس لمعبد القيم والوعى الناقد بعد أن أنكروا عليهم حقهم فى التحدث «باسم الجماهير». وأخيراً، واجهت سلطتهم الاجتماعية المنافسة من قبل «المفكرين الجدد» الذين ارتقوا إلى منزلة «الحلفاء الموضوعيين» لطبقة العمال أى الطلائع الجدد للتحولات الاجتماعية والسياسية المستقبلية.

فى فرنسا، يبدو المفكر شخصية مألوفة للغاية حتى أنه من الشائع اعتباره «تخصص من ينتمى لهذه الأرض». إنه «المفكر على الطراز الفرنسى» كما يطلق عليه. إلا أن المؤرخين صرفوا اهتمامهم عنه لأمد طويل، ولم يبدأ «تاريخ المفكرين» فى التبلور بحق إلا مع بداية الثمانينيات من القرن الماضى. وهو لم يزل بعد يمثل «مادة تعليمية شابة» كما أوضح مؤخراً مؤلف جماعى متميز عبر عن «الأوضاع الدولية». ونشر هذا المؤلف تحت إشراف ميشيل لومارى وجان فرانسوا سرينللى.

ويرتكز المؤلف فرانسوا دوس فى تفكيره على نفس هذا التناقض الظاهرى حيث يقول أن «تاريخ الأفكار فى فرنسا لا يتمتع بسمعة طيبة فى حين تتم ممارسته بلا مواربة فى أماكن أخرى».

وفيما يتعلق بتاريخ المفكرين الفرنسيين يشير فرانسوا دوس إلى نقطتين مهمتين تتمثلان أولاً فى الدور الحاسم الذى قامت به فى هذا المجال مؤسسة مثل كلية «العلوم السياسية» منذ أن أعطى جان توشار ولويس بودان «بداية الانطلاق» الخاصة بها فى عام ١٩٥٠ وحتى قيام باسكال أوربى وجان فرانسوا سرينللى بهيكلة هذا المجال البحثى فى الثمانينيات من نفس القرن. أضف إلى ذلك المكانة المحورية لقضية درايفوس التى يحظى نموذجها المؤسس ببنية راسخة فى فرنسا حتى أن «المؤرخين يفضلون تناول المفكرين وفقاً لالتزاماتهم السياسية المختلفة».

■

Egypt In The Twenty-First Century: Challenges For Development

(مصر فى القرن الواحد والعشرين، تحديات التنمية)

Routledge Curzon

Edited by: Riad El-Ghonemy

London & New York, 245PP, £ 65.00



فى هذا الكتاب يقوم محمد رياض الغنيمى الأستاذ الزائر بجامعة أكسفورد بانجلترا، وبمشاركة فريق متخصص فى الجوانب المتعددة للتنمية فى مصر، بتحليل التجربة المصرية خلال الخمسين سنة الماضية مع التركيز على فترة الإصلاحات الهيكلية فى العقدين الماضيين. ويستخلص الغنيمى ومن أسهم معه الدروس المستفادة والإصلاحات المكملة لتحقيق خطة التنمية حتى عام ٢٠١٧ وما بعدها. ومن هذا التحليل الشامل يتم تعريف التحديات التى تواجه مسيرة التنمية بجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مع التأكيد على ضرورة إزالة المعوقات المؤسسية التى أدت إلى القصور فى الإنتاج والاستثمار والتجارة الخارجية بصفة عامة.

وفى مقدمة الكتاب يحدد الغنيمى ما اتفق عليه المساهمون من قضايا تنموية أساسية أوجزها فى أربعة بنود: (١) ضعف إنتاجية الفرد وارتباطها بخلل نظام الأجور وسوق العمل وبالتالى ضعف القوة الشرائية وازدياد عدد الفقراء، (٢) الخلل فى تطبيق الإصلاحات الهيكلية وفى تقرير تتابع تنفيذها مع إهمال إزالة المعوقات المؤسسية، (٣) ضعف التنافسية فى الأنشطة الاقتصادية وفى المشاركة السياسية، (٤) حتمية تكامل الإصلاح السياسى والإصلاحات الهيكلية لاعتماد تحقيق التنمية على هذا التكامل الذى يجمع بين الحرية السياسية وتحرير اقتصاد السوق.

وركز الفصل الختامى على هذا البند الرابع الأخير مستدلاً بتجارب دول شرق آسيا فى تكامل الإصلاحات السياسية والاقتصادية وتلاقيها فى تحقيق معدلات نمو سريعة.

■

Cosa Nostra: A History of the Sicilian Mafia

(كوسا نوسترا، تاريخ المافيا الصقلية)

John Diekie

Hodder, 2004, 352PP.



ظهر عجز الدولة عن فرض القانون والنظام فى جزيرة صقلية منذ السنوات التى تلت توحيد إيطاليا عام ١٨٦٠. أصبح العنف والقدرة على استخدام القوة عنصراً رئيسياً فى أى مشروع أو منشأة تجارية فى صقلية وكأنه جزء من رأس المال الأساسى. وقد ولد تنظيم المافيا الشهير فى تلك السنوات ولم تتغير مبادئه على مدار قرن ونصف.

يتتبع هذا الكتاب تاريخ المافيا الصقلية، وخاصة الحرب التى اشتعلت عام ١٩٨١ بين عائلة كورلبونى الصقلية وممثلى الدولة من ساسة وقضاة ورجال بوليس وحتى الصحفيين.. وتمت تصفية كل من رفض استغلال وظيفته العامة لخدمة المافيا بشتى أنواع القتل.

وإلى جانب معارك المافيا مع السلطات الإيطالية التى يتناولها الكتاب بجولاتها المثيرة، يحاول المؤلف الاقتراب من القيم الغريبة وقواعد «الشرف» الملزمة لأعضاء المافيا التى تربطهم ببعض، والتى قد تتضمن قتل طفل إن كان ذلك سوف يحمى أحد الأعضاء.

■

The Culture of Defeat

(ثقافة الهزيمة)

Wolfgang Schivelbusch

Trans: Jefferson Chase

Cranta, 2003, 403PP.



كيف أثرت الهزيمة على مختلف المجتمعات؟ هذا هو موضوع الكتاب الذى وإن كان يقتصر على تناول الهزيمة فى التاريخ الحديث للغرب إلا أن دروسه تصلح لكافة الأمم المنهزمة. تكشف الدراسة كيف أن حياة الأمم كثيراً ما تكون قائمة على الوهم، سواء كان الوهم صادراً عن نشوة الانتصار، أو نتيجة للمبررات التى تفسر بها الهزيمة.. فالعقلانية يتم خلطها باللاعقلانية بنسبة تغلب فيها الأخيرة. وتتركز الطاقات السياسية والفكرية للشعب لا فى محاولة الوقوف على الحقائق التى أدت إلى الهزيمة، وإنما فى نسج الخيالات والقصص المخترعة.

فعلى سبيل المثال، عندما هزمت فرنسا أمام بروسيا عام ١٨٧٠، اخترعت حقيقة بديلة أكثر إراحة إذ أقنع الفرنسيون أنفسهم أن ما حدث كان «تراجعاً» وليس «هزيمة».

وفى الهزيمة أيضاً يتم الترويج لنظرية أن شيئاً «راقياً» انهزم أمام شىء غاشم. فمثلاً فروسية الجنوب الأمريكى فى الحرب الأهلية الأمريكية فى مقابل كفاءة الآلات الحربية فى الشمال، أو الروح الفرنسية فى مقابل جمود الالتزام الألمانى.

كذلك تطفو نظريات أخرى عن أن الهزيمة تنقى الأمة، بينما يحدث الانتصار غروراً يفضى إلى السقوط.

وعند فداحة الهزيمة، تلجأ الأمم إلى تاريخها القديم وتراثها الأدبى الذى يجعلها تفهم وتعى ذاتها.

فمثلاً فيكتور هوجو أشاع فى أدبه المعاصر للهزيمة مفهوم أن فرنسا هى مرادف الحضارة، وتم استحضار جان دارك من التاريخ القديم إذ لم يكن أحد يتذكرها قبل هزيمة ١٨٧٠.

هكذا يزخر الكتاب بالعديد من الأمثلة التى يسوقها وولفجانج شيفلبوش المؤلف الألمانى المتخصص فى التاريخ الثقافى، ليخرج منها بتحليلات واستنتاجات تبعث على التفكير وتحث القارئ على المقارنة.

■

World on Fire

(العالم يحترق)

Amy Chua

Heinemann, 2004, 346PP.



ظاهرة إثنية تتفاقم فى دول العالم النامى ويتجاهلها الغرب، تسلط عليها الضوء مؤلفة صينية، فلبينية فى هذا الكتاب.

فهى ترصد نموذجاً متكرراً فى دول جنوب شرق آسيا ودول أمريكا اللاتينية وبعض الدول الأفريقية حيث تتمتع أقلية إثنية بالغة الصغر فى غالبية الثروة والنفوذ الاقتصادى فى الدولة.

على سبيل المثال، تشكل الأقلية الصينية فى الفلبين مالا يزيد على واحد بالمائة من نسبة السكان، بينما تمتلك أكثر من نصف الثروة الاقتصادية.

ويتسيد الصينيون التجارة والصناعة، ويرجع جميع الأثرياء الفلبينيين إلى أصول صينية، وبينما يعمل الفلبينيون لدى الصينيين فى أعمال خدمية صغيرة، فإن العكس غير وارد ولا يحدث اختلاط اجتماعى أو تزاوج بين العنصرين.

مثل هذا النموذج الصارخ للوضع المميز للأقليات الصينية يتكرر بنسب متفاوتة فى كل من إندونيسيا وبورما وتايلاند ولاوس وماليزيا وفيتنام. وفى دول أمريكا اللاتينية، تتمتع الأقليات البيضاء بوضع شبيه وكذلك فى دول أفريقيا الجنوبية.

تقول المؤلفة إن ذلك الانفصال الحاد، والوضع غير المتكافئ إثنياً واقتصادياً واجتماعياً يصبح مصدراً لعدم الاستقرار السياسى، حيث تزداد الكراهية وتصل إلى درجة القتل، كما حدث فى إندونيسيا وزمبابوى وإلى حد ما، ماحدث للتوتسى فى رواندا والكروات فى صربيا.

وتؤدى العولمة وسياسات اقتصاد السوق والديمقراطية التى تدفع بها الدول الغربية إلى تعميق تلك الفجوات، الأمر الذى قد يصل إلى حد الكارثة إذا لم تلتفت دول الغرب إلى تباين ظروف دول العالم النامى عنها، فهو لم يخضع لنفس مراحل النمو الرأسمالى والتطور الديمقراطى الذى حدث فى الغرب.

■

Slow Food: The Case For Taste
(الطعام البطىء: دفاعًا عن الذوق)
Carlo Petrini
Transl: William McCuaig
Columbia, 2004, 155PP.



بدأت حركة الدفاع عن «الطعام البطىء» فى شمال إيطاليا على يد مجموعة من اليساريين عام ١٩٨٦، ولكنها ما لبثت أن أصبحت حركة مستقلة جمعت مائة ألف فرد من ٤٧ دولة (بلا ميول يسارية بالضرورة) التفوا حول الفكرة وأسسوا لها ثلاث مجلات (بخمس لغات) ودار نشر وجامعة وصلات بقنوات تليفزيونية.. إلخ. همهم الرئيسى إنقاذ بعض أنواع الطعام المهددة بالانقراض، وإنقاذ الوصفات وأساليب الطهى القديمة.

يكتب كارلو بترينى تاريخاً مختصراً للحركة ومبادئها وأهدافها مبيناً الفارق بينها وبين الحركة العنيفة التى يقودها الفرنسى جوزيه بوفيه ضد ماكدونالدز ومطاعم الوجبات السريعة.

ويبين بيترينى كيف أن حركة «الطعام البطىء» مرتبطة أكثر بالتعليم والثقافة والتهذيب وتنمية الذوق السليم والإحساس الرفيع.

■

Islamica Magazine
(مجلة إسلاميكا)
Amman: Winter 2003, Issue 10



بعد فترة من التوقف، تعود دورية إسلاميكا الفصلية للصدور مرة أخرى بعددها العاشر (شتاء ٢٠٠٣) لتخاطب العالم بعد أحداث ١١ سبتمبر.

تقول افتتاحية المجلة التى تنطلق باللغة الإنجليزية أن «إسلاميكا» تتيح منبراً للأصوات التقليدية لتقديم وجهات النظر حول قضايا العقيدة والعالم.

وذلك فى محاولة للحفاظ على الخطاب الإسلامى التقليدى من الحركات الهامشية سواء كانت «حرفية، سلفية، أو حداثية».

هكذا ترى المجلة أنها تعبر عن تيار «الإسلام التقليدى» كما تسميه ضد ما تسميه بالتيار «الإصلاحى - الحداثى» الذى تعتبره غربى المنشأ ذو أصول بروتستانتية، وضد تيار «الحرفيين» السلفى المغلق وأيضاً ضد تيار «الإسلام السياسى».

يضم العدد مقالات عن العالم بعد ١١ سبتمبر لكل من على مزروعى وكريستوفر ألين وعبد الحكيم مراد وغيرهم.

بالإضافة إلى مقال عن المواقع المقدسة فى العراق والحب فى الإسلام ومقال تأبينى عن إدوارد سعيد المفكر والاكاديمى الفلسطينى الراحل.

يقع العنوان التجارى للمجلة فى لندن، ويقع عنوانها التحريرى فى عمّان وتطبع فى تركيا.

يشترك فى التحرير كل من سهيل ناخودة ويوسف زانيللا وسارة لويز ناخودة وجبريل جميل.

■

La Modernite De L'Esclavage: Essai sur la Servitude au Coeur du Capitalisme
(حداثة العبودية: رسالة عن الرق فى النظام الرأسمالى)
DYves Benot
La Decouverte, 2003, 300PP., 22 Euros



«إن الجنود الأطفال الذين يخوضون غمار الحروب الأهلية الأفريقية والأطفال العاملين فى صناعة النسيج فى شبه الجزيرة الهندية ليقدمون خير دليل على أن العبودية لم تختلف؛ حتى وإن كان شكلها قد بات الآن مخالفاً عما كانت عليه فى الماضى فى العهد اليونانى الرومانى أو فى زمن النخاسة الذى أفضى إلى موت آلاف الأفارقة فى مزارع جزر اللاتينى وفى أمريكا».

بهذه العبارات، يختتم إيفل بونو كتابه. فلقد كانت جميع الأحقاب والبلدان شاهداً على الرق منذ بدء الخليقة.

ويذكر لنا حامورابى فى قانونه أن العبودية كانت شائعة فى بلاد ما بين النهرين قبل ظهور المسيحية بعهد سحيق أما أرسطو وسانت أوجستين فقد قدما تفسيرهما للعبودية دون أن يقصدا إدانتها من وراء ذلك.

فلقد كانت متوائمة للغاية مع النظام السائد.

ظهرت أولى بشائر الرفض مع حلول القرن الثامن عشر حيث تمكن أنصار الإلغاء من تحقيق انتصار لقضيتهم فى جزر اللاتينى وفى الولايات المتحدة وأخيراً فى البرازيل التى تعد آخر دول العالم الغربى حظراً للعبودية.

يستعرض ايف بونو تاريخ العبودية كله عبر ما أثارته من جدل وكتابات بل وثورات.

فهو يحدثنا عن العديد من الثورات الأسطورية مثل ثورة المصارع سبارتاكوس الذى هَزم للخلاص من آلاف المصلوبين بطول الطريق الأبينى، وثورة السود (الزنج)، وهم الأسرى الذين تم استعبادهم فى مستنقعات البصرة فى القرن التاسع الميلادى، وتم سحقهم بعد قتال دام ما يزيد على عشر سنوات وثورة العبيد السمر فى العالم الجديد والذين قاوموا المستعمر البرتغالى فى الفترة من ١٦٣٠ وحتى ١٦٩٤.

واختتم استعراضه بالثورة الوحيدة الناجحة والتى قام بها سكان هايتى فى توسان لوفرتور.

وقد تعمّق الكاتب فى دراسة كتابات من أعلنوا بقوة مناهضتهم للعبودية مثل جان بودان الذى خبت ذكراه اليوم بعض الشىء من خلال كتبه الستة عن الجمهورية والتى نشرت فى عام ١٥٧٦.

ولا يفوت إف بونو فى كتابه أن يقوم بتحليل الدوافع الاقتصادية للنخاسة والعبودية فى مزارع اللاتينى.

ويقول إريك وليامز رئيس الوزراء الأسبق لترينيداد وتوباجو فى كتابه «الرأسمالية والعبودية» أن الرق كان وسيلة من وسائل تمويل الثورة الصناعية فى أوروبا.

■

The Big Ugly Monster and The Little Stone Rabbit
(الوحش الضخم القبيح والأرنب الحجرى)
Chris Wormell
Cape, 2004, £10.99



تزخر رفوف المكتبات البريطانية والغربية عموماً بكتب الأطفال التى تعتمد أساساً على الرسوم التوضيحية وهو أمر محبب ومطلوب للأطفال.

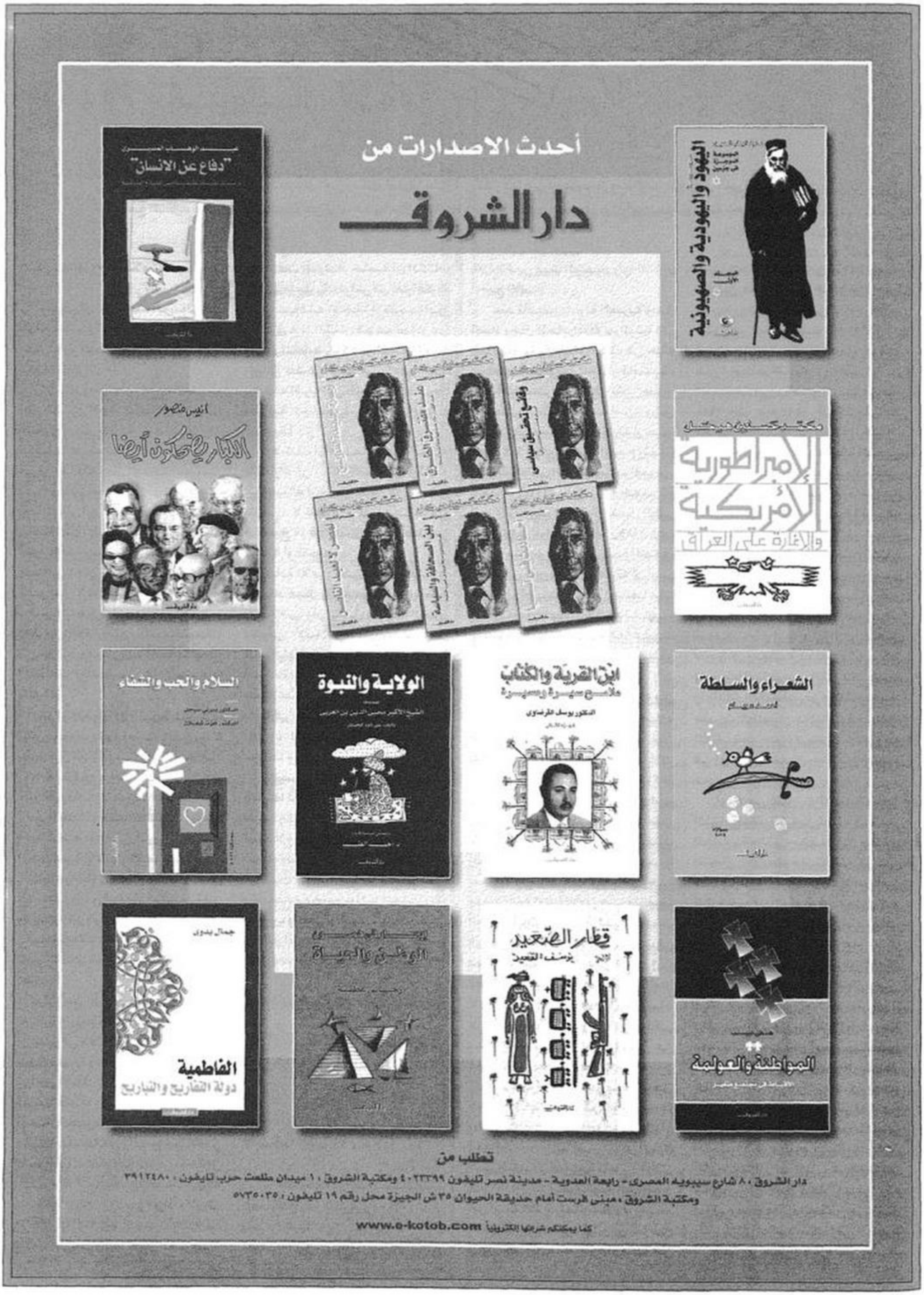
ومؤلف هذا الكتاب كريس وورميل ربما ليس من أكثر كتاب قصص الأطفال المشهورين فى بريطانيا إلا أنه من المتميزين فى هذا المجال بشهادة النقاد البريطانيين.

ويحكى الكتاب قصة وحش قبيح الشكل لدرجة أنه عندما ينظر إلى السماء الزرقاء فإن الطقس يتغير إلى الأسوأ، وبالرغم من أن المخلوقات من الحيوانات الأخرى تهرب فور أن تراه بسبب منظر شعره البشع إلا أن هذا الوحش سرعان ما يلهم خيال القارئ.

إنه وحش وحيد يعيش معزولاً عن الآخرين ويتمنى أن يتحدث مع مخلوق آخر.

ويصور الكتاب كيف أصبحت حياة هذا المخلوق التعس أى الوحش سعيدة عندما لاحظ أن أرنباً حجرياً لا يفر أو يشمئز من رائحته القذرة. ويصبح الأرنب رفيق الوحش بقية حياته رغم أن استجابة الأرنب لكل ما يأتى به الوحش من أفعال أو كلام ضئيلة للغاية.

ويقول النقاد أن الكتاب طريف للغاية ومفيد للأطفال للتعرف على هذه المخلوقات الغريبة كما أنه ملىء بالأفكار والنصائح وأهمها أن لا يحكم الإنسان على غيره بمجرد النظر إلى شكله. وهو يتحدث عن الصداقة وكيف تنقلب الحياة الكئيبة إلى سعادة بهذه الصداقة.



أحدث الاصدارات من
دار الشروق
"دفاع عن الانسان"
عبد الوهاب المسيري
اليهود واليهودية والصهيونية
أنيس منصور
الكبار يضحكون أيضا
محمد حسنين هيكل
الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق
السلام والحب والشفاء
الولاية والنبوة
ابن القرية والكتاب
ملامح سيرة ومسيرة
الدكتور يوسف القرضاوي
الشعراء والسلطة
جمال بدوي
الفاطمية
دولة التفاريح والتباريح
قطار الصعيد
يوسف القعيد
المواطنة والعولمة
تطلب من
دار الشروق، ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق، ١ ميدان طلعت حرب تليفون، ٣٩١٢٤٨٠
ومكتبة الشروق، مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون، ٥٧٣٥٠٣٥
كما يمكنكم شرائها إلكترونيا www.e-kotob.com

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

هيكل.. والطرح الإسلامى

يسرنى أن أبعث هذه الرسالة إلى الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل، عبر مجلتكم الغراء «الكتب.. وجهات نظر».

الأستاذ واحد من ألمع الصحفيين على المستوى العربى والعالمى، ومن أبرز منظرى الفكر القومى ومفكريه. وقد حزنت لما علمته من أن «الأستاذ» اعتذر عن تأليف كتاب عن الإسلام السياسى وهو موضوع يحتاج إلى أن نعرف رأيه فيه، لأننى أرى أن الطرح الإسلامى . خاصة الذى يتبناه تيار الوسطية . قد تطور وتقدم بصورة تفوق بل تناقض ما رسخ فى أذهان الكثيرين، من أنه تيار يدعو إلى الانعزالية، وتكفير المجتمع، ورفض الحضارة الغربية إجمالاً، وغير ذلك من الأفكار التى سادت مجتمعاتنا فى ظل تجربة وظروف خاصة، لا يصح أن تسحب أو تعمم على كل الأطروحات والأوقات.

ثم إن الحملة الأمريكية الشرسة، التى يتعرض لها وطننا العربى، لا تفرق بين تيار قومى، وآخر إسلامى، مادامًا يقفان حجر عثرة فى طريق إمبراطوريتها المنشودة، مما يستلزم جمع الكلمة، وحشد الطاقات، وإعلاء مصلحة الوطن فوق المصالح الشخصية والاختلافات الفكرية، والتنبيه دائماً إلى أن الانشغال بمثل هذه الفروق، وإعطاءها الأولوية فى حياتنا، هو نوع من الترف الفكرى والسياسى، الذى لا يتناسب وضخامة المصير الذى نحن . جميعاً . مقبلون عليه.

ولا أحب أن أسترسل فى الحديث عن تيار الوسطية الإسلامى، إنما أحب أن أشير فى ذلك إلى كتابى الدكتور/ محمد عمارة «معالم المنهج الإسلامى» و«الحل الإسلامى، لماذا؟ وكيف؟»، فهو قد بيّن فيهما رؤية الطرح الإسلامى للحياة العقلية والتعددية الفكرية، وللنظام السياسى والشورى وتكوين الأحزاب، وللنظام الاجتماعى وتحقيق العدالة الاجتماعية، وللحريات العامة وحقوق الإنسان وتحرير المرأة، ولدوائر الانتماء والموقف من الوطنية والقومية والإسلامية، وللسياسة الخارجية والعلاقات الدولية، خاصة أن الكتاب الأول تحديداً، قد نوقش فى ندوة فكرية قبل صياغته الأخيرة، ضمت أبرز مفكرى هذا التيار، ثم هو صادر عن الأزهر الشريف بالاشتراك مع المعهد العالمى للفكر الإسلامى، الأمر الذى يجعله أقرب إلى «المشروع الفكرى» والرؤية الجماعية، منه إلى الرؤية الفردية.

ولا شك أن السماح لهذا التيار بالمشاركة فى العمل السياسى، وإتاحة الفرصة له لتحويل هذه «الأفكار» إلى «برامج»، لا شك أن ذلك سيساعد فى تصحيح ما قد يعترى هذه الأفكار من مثالية أو نقصان.

غاية الأمر، أننى أحب أن يكتب الأستاذ هيكل رؤيته عن تيار الوسطية الإسلامى، وأن يكمل بذلك، الحوار القومى . الإسلامى، الذى بدأ فى أوائل التسعينيات تحت رعاية «مركز دراسات الوحدة العربية» فى بيروت، آملاً أن يسهم هذا فى حشد طاقات الأمة لصد المخاطر الخارجية وفى مقدمتها المشروع الصهيونى، وأن يعيد لأمتنا مجدها ومكانتها بين الأمم.

وليس هذا، بحال من الأحوال، استباقًا لرأى الأستاذ هيكل، أو تحديداً له فى إطار معين، إنما هو حرص على استطلاع رأى مفكر، طالما عُرف بتحرى الدقة، ونشدان الحقيقة، وإعلاء قيمة الإنسان، خاصة ونحن بصدد أمر، يتحدد به مصير عالمنا العربى، بل ويحارب وتحتل أراضيه بزعم أنه يتبنى ويصدر الإرهاب، وأنه عاجز عن متابعة تيار الحداثة، وقيم العالم الحر!!

السنوسى محمد السنوسى
باحث فى الشئون العربية
محافظة الغربية

لا صحوة ضمير ولا يحزنون

أختلف مع «قراءة» الأستاذ أيمن الصياد (عدد فبراير ٢٠٠٤) والتى يتساءل فيها عن مستقبل إسرائيل، منوهاً بما رددته وسائل الإعلام عن بيان قادة الشين بيت الشهير وأود هنا أن أوضح الآتى:

عند تأسيس الدولة العبرية وصل تعداد رجال المخابرات الإسرائيلية إلى ١٨٤ شخصاً وقد شكل هؤلاء فى حينه وحدة عسكرية تابعة للجيش قامت بناء على أمر عسكرى أسمته «الشين بيت»، اختصاراً لكلمة «خدمة أمن». ورأس الوحدة فى حينه أيسر هرئيل حتى العام ١٩٥٢ وفيما بعد أصبح رئيساً للموساد. وكان الشين بيت يراقب فى العقد الأول لقيام الدولة العبرية تحركات خصوم حركة العمل التى حكمت إسرائيل حتى العام ١٩٧٧، إبان صعود مناحم بيغن إلى سدة الحكم. ويروى بن غوريون فى يومياته أن أيسر هرئيل كان يشارك فى اجتماعات سكرتاريا «المباى» ويقدم تقاريره وتصوراته عن السياسة الداخلية. استطاع حزب العمل خلال هذه السنين الطويلة أن يحول «الشين بيت» إلى أسطورة إسرائيلية تحمى البلاد من «المؤامرات الداخلية» (عملاء للسوفييت) ومن المتسللين والفدائيين العرب الذين بدأوا يعبرون الأسلاك الشائكة فى الاتجاهين. كانت تحركات «الشين بيت» سرية للغاية حتى أن اسم رئيسها لم يعرف للجمهور، وعملت طوال السنين تحت مسئولية مكتب رئيس الحكومة بعد أن كانت وحدة عسكرية وتحولت فيما بعد إلى وحدة مدنية تابعة لوزارة الأمن حتى منتصف الخمسينيات، فالسرية التى تحكمت فى ظروف عمل الشين بيت ساهمت فى صنع «الأسطورة» مما شوق الناس إلى معرفة ما يدور داخل هذا الجهاز الذى لا يحكم سلوكه أى قانون كان، وقليلة هى الأدبيات والمنشورات الصادرة فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى عن عمل الشين بيت و«بطولات رجاله».

اختفت كلمة «شين بيت» وحل محلها «شاباك»، وتعنى «خدمة أمن عام» أو شين بيت عام، بعد انفضاح عدوانية رجالها أمام الرأى العام الإسرائيلى فى فضيحة باص ٣٠٠ فى عام ١٩٨٦. وقد أسفرت هذه الفضيحة عن استقالة إبراهام شالوم، رئيس الشاباك، بعدها بدأت تنشر فى إسرائيل روايات عن الشاباك والموساد منها من كتبها باحثون ومنها من كتبها رؤساء سابقون، فقد قرأنا فى السنوات الأخيرة ما رواه يعقوب بيرى فى كتابه «الآتى ليقتلك» (إصدار كيشت عام ١٩٩٩) عن أصوله «المبائية»، وقد بدأ عمله موظفاً فى أرشيف المخابرات فى أوائل الستينيات إلى أن أصبح رئيسها فى عام ١٩٨٨ حتى عام ١٩٩٤. فى كتابه تجد قصصاً «بوليسية» عن علاقة المخابرات بالاحتلال وعمله فى منطقة القدس فى السبعينيات وتحقيقه مع معتقلى الخلايا الفدائية وكيفية التعامل مع الانتفاضة الأولى وبعدها أوسلو ولقاءاته الأولى مع السلطة الفلسطينية. ولا يخفى فى الكتاب نقاشه مع اسحق شامير، رئيس الحكومة الإسرائيلية أواخر الثمانينيات، ويذكر أن المخابرات ساهمت مع إيهود باراك واسحق مردخاى وموشيه يعلون بتأسيس وحدات المستعربين التى اختطفت واعتقلت الفلسطينيين وقتلت بدم بارد عشرات المطلوبين. بالمناسبة فى هذا الكتاب تجد صورة ليعقوب بيرى وهو فى زى عربى بعد أن رجع من «مهمة مخابراتية».

أما كرمى غليون، والذى استخلص النتائج بعد تشكيل لجنة شمغار الرسمية والتى حققت فى مقتل اسحاق رابين فقدم استقالته كرئيس للشاباك باعتباره مسئولاً عن أمن الشخصيات العامة، فإنه يروى هو الآخر روايته «الشاباك بين التمزقات» (إصدار يديعوت أحرونوت عام ٢٠٠٠) عن نشأته المبائية فى رحافيا فى القدس الغربية و«بطولاته» منها اغتيال يحيى عياش وموقفه مع العرب فى إسرائيل ويتباهى أنه توقع من خلال أطروحة ماجستير قدمها لجامعة حيفا عن «الإرهاب اليهودى» وعن الاغتيال السياسى القادم فى إسرائيل. يوجه سهامه نحو لجنة شمغار التى لم تتورع عن أن تمد يدها إلى الجمر الملتهب ويقصد الأجواء التحريضية ضد رابين التى سادت فى إسرائيل عشية مقتله. جاءت روايته أصلاً ليعلن مسئوليته ويوضح موقفه أمام الجمهور من مقتل رابين الذى اعتبره «سكيناً فى الظهر». نسوق هذا الكلام عن رؤساء

رسائل وجهات نظر

الشاباك، ثلاثة منهم عملوا فى المؤسسة الأمنية منذ بداية حياتهم، تربوا فى أجواء سيطرة الحزب الواحد ونشوة انتصار إسرائيل على العرب فى العام ١٩٦٧، اعتقدوا دائماً أن الأمن فوق الديمقراطية، اشتركوا فى عملية جباية الاعترافات بالقوة والتعذيب ودون رقابة تذكر، ثقافتهم جعلتهم ينتمون لمدرسة أمنية واحدة تربط السياسة بالأمن والحنكة المبانية وفنون الكذب وأن أمن إسرائيل فوق كل شىء حتى لو تناقض مع أسس الديمقراطية (انظر قرارات حكم بشأن الإبعاد الجماعى فى الثمانينيات وأوائل التسعينيات). ويختلف هؤلاء مع شارون حول حدود القوة التى يمكن استعمالها ناهيك عن الاختلاف السياسى فمعظمهم من مؤيدى أوسلو وهم معنيون بالتوصل إلى حل مع الفلسطينيين وفق شروط إسرائيلية. أما شارون فهو يملك حلاً واحداً، تدمير وقتل وتخويف وترهيب وخنق وجدار فصل عنصرى، وتأجيل الحل وفق شروط استسلامية مهينة. ما الذى جرى فى الإعلام العربى؟ لماذا التهويل والانفعال؟ لأن رؤساء الشاباك قالوا بالحرف الواحد «نحن متجهون نحو الكارثة» (يديعوت أحرونوت ١٤ . ١١ . ٢٠٠٣)؟

لماذا يحتفل بعض المحللين العرب أن هناك صحوة ضمير والبعض الآخر يهلل أن إسرائيل فى طريقها للانهيار، ناهيك عن بعض «المستعربين» العرب الذين يتغنون بالسلام والأخوة فلم يبخلوا فى رفع تحيات الإكبار لجرأة لقاء شخصيات أمنية إسرائيلية تشعر أنها فقدت السيطرة والقرار ولم تعد «رجالات مهمة». لا حاجة للرقص والغناء بالموال، لقد تجند هؤلاء المسئولون لإنقاذ «الأخلاق» الأمنية الإسرائيلية وفق تصوراتهم وتربيتهم.

لفت انتباهى ما قاله إبراهام شالوم «علينا أن ندرك كمجتمع أننا جئنا للعالم العربى وليس العكس»، هذا الكلام الذى قيل اضطراراً لمعرفته الأكيدة بما أنجزه غسيل الدماغ للمجتمع الإسرائيلى والذى استمر لسنوات. إنها ليس صحوة ضمير ولا يحزنون، إنها صحوة متأخرة لحركة العمل الإسرائيلية للخروج من مأزقها ومحاولة إنقاذها من وحلها لمواجهة اليمين الإسرائيلى، إنها صحوة متأخرة بعد «خراب البصرة». على كل حال، التصريحات الأخيرة تنطوى تحت سقف النقاش الأمنى الداخلى.

أحمد أبو حسين
رئيس مجلس الإدارة
Arabs48.com

العلمانية

إعجابى بمجلتكم بلا حدود! وأرجو أن يتسع صدركم لكى أدلى برأيى فى قضية يجرى النقاش حولها كثيرا وهى العلمانية.. معظم المتحدثين يتلفظون بها بطريقة تجعلها تفهم بأن لها علاقة بالعلم.. أى يقولونها وكأنها مشتقة من العلم، أى بكسر العين وتسكين اللام وفتح الميم.. والواقع أنها يجب أن تنطق بما يجعلها مشتقة من العالم وليس العلم، أى العلمانية بتسكين اللام وفتح الميم.. إن لفظ العلمانية وكأنها من العلم وليس العالم يسىء فهمها لدى العامة ويجعلها ذات علاقة بالعلم وليس الروحانيات وهذا مرفوض لدى ضمائر العوام.. لكن واقع الحال وحسب معرفتى المتواضعة بأن العلمانية من العالم هى تعبير كنسى أطلق على الناس خارج الكهنوت لأنهم من العالم وليسوا من الملكوت.. ومازال هذا اللقب يطلق على رعايا الكنائس العربية.. أى كانت ومازالت الكنيسة تفصل بين الملكوت والناسوت.. أى تفصل بين اتباعها وبين كهنتها.. وقد استعير مجازاً ما أطلقته الكنيسة ليطلق فى مفهوم الدولة الأوروبية الحديثة للفصل بين الدين والدولة.. ليس أكثر من استعارة للمدلول وليس للنسبة.. أى ليست النسبة للعلم.. وقد اختلط الأمر نتيجة لنطق كلمة العلمانية دون تشكيلها وفى زمن ظهرت فيه النظريات المادية الرافضة للروحانيات.. والتى ارتبط اسم العالم بها لخدمة أهدافها ليس إلا.. وربما أن لفظ العلمانية من العلم أكثر سلاسة فى وقعها على السمع.. وأكون سعيداً لو أصبحت أسمع كلمة العلمانية من العالم وليس العلم.

المهندس: أكرم ف. عباسى
عمان. الأردن

كتاب الزاوية

مذكرات الأميرة جويدان

٥ - أرامل إسماعيل

وفى فيشى رأينا أرملتى إسماعيل باشا جالستين فى شرفة الفندق وعلى وجهيهما النقاب الأبيض وهما تدخنان وتستمعان إلى نغمات الموسيقى.

كان لإسماعيل باشا أربع زوجات. وعلى عكس المألوف كانت هؤلاء الزوجات صديقات لا شحناء بينهن ولا بغضاء، وقد ألف بينهن حبهن لرجل واحد.. هو إسماعيل.

كان إسماعيل إذا أحب لم يترك لمحب بعده مجالاً. وإذا أهدى أغدق حتى أغرق. وإذا أراد البناء فإنه يهدم حيًا بأكمله ليشيد عليه ما يريد ويستعمل آلاف الأيدى فى البناء يعملون على ضوء الشمس نهارًا وتضاء لهم المشاعل ليلاً. وعلى هذا المنوال قامت سراى الجزيرة التى بناها خصيصًا للإمبراطورة أوجينى لتكون لها مقامًا أثناء زيارتها لمصر. ولو استطاع لأحال مصر كلها إلى روضة غناء تخطر فيها هذه الملكة الجميلة.

ولما أبدت الإمبراطورة رغبتها فى الطواف بالقاهرة على ظهر حمار رافقها الخديوى فى هذا الطواف. ولما رجعنا من النزهة كان حريم إسماعيل على استعداد لاستقبال الإمبراطورة ولم تشعر إحداهن بغيرة أو حسد.

وقد احتفظت أرامل إسماعيل بعاداتهن حتى فى أوروبا، فكن دائمًا مقنعات ويأخذن الجوارى والأغوات معهن. فإذا ركبن عربة جلس الأغا دائمًا إلى جانب السائق.

قـــــراءة ..

حاضـر لا يـرى.. ومسـتقبل يرتجـف

تستحقُ الصورةُ.. وهى بألف كلمة كما يقولون، أن نخلى لها الصفحة كاملة. لتلخص - ربما - بظلالها وألوانها وشخوصها - المشهدَ العربىَ كلَه بين عامين؛ عامٌ مضى (٢٠٠٣) اختيرت فيه من بين آلاف الصور لتصبح صورته الصحفية، وعامٌ آتى (٢٠٠٤) تتسول فيه «القمة العربية» مكاناً لانعقادها، وتنشر فيه الدوائر الأمريكية مبادرتها «للشرق الأوسط الكبير»، لا لتسوقها، بل لتفرضها، وبصراحة - دون موارية - عبر ترويج مفاهيم يسهل ابتلاعها، أو تبليعها لأولئك المجبرين على ابتلاع ألسنتهم.

دعونا بدايةً نعترف بأن ليس كل ما جاء فى ديباجة المبادرة (من اننا نفتقر إلى الحرية والمعرفة..) كفراً. رغم كل ما فيها من قصور وفوقية وبرغم كل ما وراءها من أسباب إقليمية أو انتخابية. ولكننا كما نعترف، نعرف بأن حسن النية غير مضمون، وأن القصد - وما وراء القصد - غير مبرأ بالضرورة.

والحاصل أنه بين بريق المبادرات المنهمرة «بوعدها ووعيدها»، بدا أن الأبصار قد زاغت «خوفاً وطمعاً». بداية من مبادرة باول إلى مشروع الشرق الأوسط الكبير. مروراً ببرنامج الدعم الذى أطلقته تشينى (الابنة)، وقمة التعليم المقترحة التى تستهدف حسبما أعلنوا «بحث بواعث القلق إزاء نظم التعليم ومحتواه فى المنطقة».

ها هى الصورة إذن. الأب المكبل بين الأسلاك أعموا عينيه وغيبوا رأسه. والابن الخائف سيرسمون له مستقبلَه ويشكلون له رأسَه فى عاصمة ثلجية بعيدة.

ها هى الصورة (٢٠٠٣) وها نحن.

بين أحاسيس الخيبة والإحباط والفشل، وأحاديث اللحاق بالركب، تبدو الأنظار تائهة. كأنه كما للنصر سكرةٌ فللهزيمة كذلك. ففى عالمنا العربى المرتبك - كما لم يحدث من قبل، تبدو كل الرؤى غائمة. والرؤوس كأنما غيبتها سكرةُ الهزيمة، وثقافة الهروب والانسحاب. والعيون أعماها طمعٌ فى «جزرة»، أو خوفٌ من «عصا». والطامعون والخائفون - كلاهما - يلوح لهم بهذه أو تلك بين حين وآخر.. لا فرق. فأكثر المتشددين تطرفاً بدا - فجأة - طيباً و«عاقلاً». ورايات الإصلاح والتنوير و«التمكين» ارتفعت متزاحمةً لتغطى - فجأة - قرص الشمس.

وبدا المشهدُ كلُه فى ذروته «دراميا». بين القاعدين «يأساً».. والمهرولين «ارتباكاً» فى كل اتجاه.

ويكفى أن تنظر إلى مثقفى الأمة الذين اختلفوا، أو بالأحرى تعاركوا حول كل شىء. بداية من «تقرير التنمية البشرية العربية» المتهم بالأمركة. وحتى الاتهامات بالمساندة «المدفوعة» للعراق.

كما يكفى أن تنظر إلى صيحات «جديدة»، وأخرى تم استخراجها من مدافنها مثل «الشرق اوسطية»، ومصر أولاً، والأردن أولاً. ونداءات بالواقعية تدلل على فشل أحلام المشاريع القديمة؛ من ناصرية إلى قومية أو إسلامية.

وسط كل هذا اللغط والخلط والضبابية، تعمى العيون وإن بدت مفتوحة، وتضيع معالم الطريق، مهما تعددت الأسهم، وتصايح المرشدون.

ثم يكفى أن تنظر إلى المواطن العادى فى كل موقع. يلعن الغرب وأمريكا كل صباح. دون أن يدرك أن التفانى فى العمل والتكيف مع التقنيات الجديدة هى شروط التواجد على خريطة اليوم. ودون أن يلحظ أن شارون «السفاح. لا خلاف» يمتثل مرغماً - وهو رئيسٌ للوزراء - لطلب الجهات المختصة للتحقيق معه فى قضية فساد. فى حين يُمنَع الناخبون فى ديمقراطيتنا، ببساطة بالغة، من الوصول إلى صناديق الاقتراع.

ثم يكفى أن نلحظ ما يجرى من تأجيج للصراعات العرقية والقبلية والمذهبية شرقاً (العراق) وغرباً (الجزائر) وجنوباً (السودان).

تبدو الصورة غائمةً وضبابية. وعندما تلجأ الأمةُ، كأى امة وقت الأزمات، إلى مثقفيها، تجد «الاستقطاب» حاداً. بين من يرفض - مثلاً - كل ما تأتى به الرياح من الغرب «كونها أتت من الغرب». وبين من يحاول أن يركب هذه الرياح «منتهزاً» عنفوانها وطغيانها. وخافياً مراكبه «فوق الموجة» تحت أشرعة براقة تتلون بأطياف المرحلة؛ من إصلاح وديموقراطية وتطوير للتعليم. وهكذا يتبدى الاستقطاب حاداً فى كل مناسبة. وليست آخر تلك المناسبات ذلك «التراشق» حول تقرير التنمية الإنسانية الأخير.

وهكذا.. تنتظر الأمة من مثقفيها هادياً ومرشداً. فلا تجد غير «الاستقطاب» حاداً وموتراً.

والحاصل - بحكم قوانين الفيزياء - أن «البوصلة» ترتبكُ حتماً بين كل استقطابين. فيغمُ على المستهدين الطريق.. وهكذا كان.

هانحن.. وهاهى الصورة..

جيلٌ أعياه قمعُ ماضيه، وارهقته مذلةُ حاضره، وأعماه تخبطُ نخبه ومثقفيه ومفكريه.

جيلٌ، بالطغيان والعدوان، حاصروه زمناً، وحصروه ظلماً، بين مطرقة المحتل وسندان الطاغية.

جيلٌ غمّوا عينيه. فصار لا يتبين كنه الشبح القادم، ولا يدرك حقائق - فضلاً عن معانى - ما يدور حوله. أو بالأحرى «ما يمور» حوله، بسرعة ربما لا تحتملها رتابةُ الصحراء، ولم يعتدها قطعاً إيقاعُ الحداة يمشون الهوينى بالقافلة تحت ضوء القمر.

هانحن.. وهاهى الصورةُ.. وها هى أيامنا.

حاضرٌ غمّوا عينيه، فلم يعد يرى غير خيالاته وكوابيسه وأوهامه. ومستقبلٌ «بكرٌ» بين يديه يرتجف.

هانحن.. وهاهى الصورة. لابد أن ندرك ونعترف. تحاصرنا الأسلاكُ الشائكةُ إذن. متشابكةً ومتداخلة. والحركةُ بين الأشواك تحتاج إلى حكمة وصبر.. وقبل ذلك حتماً إلى إرادة. إرادةُ الخروج إلى الفضاء الفسيح. والبحثُ عن الطريق الثالث. بعيداً عن المسبحين بحمد «من خلصنا من الطاغية». وبعيداً أيضاً عن من يتخيل أن الروزنامة يمكن لها أن تعودَ إلى ما قبل الحادى والعشرين من مارس ٢٠٠٣ أو الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

هناك قطعاً طريقٌ ثالث بين الانسحاقين؛ ديمقراطيةٌ حقيقية، واحترامٌ كاملٌ لحقوق الإنسان، ومنع الرشوة والفساد والمحسوبية. ونشر التعليم «الحقيقى» والمعرفة.

هناك حتماً طريقٌ ثالث بين ما «كان» وما يريدون له أن «يكون».

وكما أن الغد لا يشبه أبداً الأمس. يمكننا - إن توافرت حكمةُ الاختيار وإرادةُ العقل - أن نجعله حتماً أفضل من اليوم.

أيمـــن الصيـــاد



اختيرت هذه الصورة كأفضل صورة صحفية لعام ٢٠٠٣. وهى لمصور فرنسى Jean-Marc Bouju فاز بجائزة بوليتزر مرتين. وكان قد التقطها بالقرب من النجف يوم ٣١ مارس ٢٠٠٣ لطفل عراقى يرتجف بين يدى والده الذى اعتقله الأمريكيون وغطوا رأسه وعينيه بكيس من قماش قبل أن يضعوه خلف الأسلاك الشائكة.

السيدة الوزيرة Madam Secretary



سيرة ذاتية

تأليف : مادلين أولبرايت

تعريب : د. محمد توفيق البجيرمي

مادلين أولبرايت، الاسم الشهير الذي اقترن مع إدارة الرئيس كلنتون في فترتي رئاسته. كانت مُشاركةً فعّالة في أهم أحداث العصر الحديث في نهاية القرن العشرين؛ من ملاحقة عملية السلام في الشرق الأوسط إلى التدخل الإنساني خلف شمال الأطلسي في كوسوفا. وهي تقدم لنا الآن سيرة ذاتية صريحة كل الصراحة فتروي فيها قصّتها الأخّاذة. وتقدم نظرة مُقرَّبة من الداخل على قضايا العالم في فترة مضطربة لم يسبق لها مثيل. سلكت مادلين أولبرايت طريقاً متعرجاً إلى حياة عمليّة أوصلتها إلى الطبقة العليا من الدبلوماسية وصنع السياسة في الولايات المتحدة الأمريكية، فصارت أول امرأة تجلس على كرسي وزارة الخارجية الأمريكية وإحدى أكثر الشخصيات إثارة للإعجاب في عصرنا. وتقدم مادلين أولبرايت في كتابها، بصراحة مُنعشة، صوراً نابضة بالحياة لزعماء العالم الذين تعاملت معهم في سنوات عملها، والمعارك التي خاضتها كي تثبت موقعها في حلبة يسيطر عليها الذكور. تعرّفنا المؤلفة في كتابها أيضاً على مادلين الامرأة في حياتها الخاصّة، وتربيتها بناتها الثلاث، وانفصام مؤلم لزواجها من سليل إحدى الأسر الأمريكية البارزة في عالم الصحافة. واكتشافها في وقت متأخر من حياتها لأصولها اليهودية، وأن جدّيها قد لقيا حتفهما في معسكرات النازية. يجمع كتاب السيّدة الوزيرة بين حسّ الدعابة الدافئ والنظرات المتعمّقة، والشهادة الشخصيّة، مع إضافات آسرة إلى السجل التاريخي. فهو نسيج من الصور الحميمة والمناظر الشاملة الواسعة. إنها سيرة ذاتية خصبة يتوقع لها أن تصبح من الكتب الهامّة البارزة في القرن الحادي والعشرين.

❖ ثمن النسخة (مجلد) **$20.0** ❖ ثمن النسخة (غلاف) **$16.50**

سلسلة هارڤارد لأساسيات الأعمال
المصدر الذي يمكن أن يعتمد عليه المديرون المشغولون

إن هذه السلسلة مصممة لكي تزوّد بنصائح شاملة، وإرشاد شخصي، وخلفية من المعلومات، ودليل لمعظم المواضيع المتعلقة بممارسة العمل. هذه الإرشادات الدقيقة المأخوذة من المحتوى الغني لمنشورات كلية الأعمال في جامعة هارڤارد ومصادر أخرى، معمولةً بعناية لكي توفر مصدراً عملياً للقراء من جميع مستويات الخبرة. ولضمان النوعية والدقة، يخضع كل مجلد للمراجعة الفاحصة من قبل مشرف مُلمّ يعمل في كلية للأعمال ذات مستوى عالمي. وسواء أكنت مديراً جديداً لك اهتمام في توسعة مهاراتك أو مديراً تنفيذياً صاحب تجربة، فإن هذه الكتب التي تعتمد على الحلول تُلبّي رغبتك بكل سهولة للحصول على أجوبة شافية في متناول يدك. صدر منها هذا الشهر:

استخدام افضل الناس والاحتفاظ بهم



Hiring and Keeping The Best People

إن استعمال القوى العاملة المتميزة والاحتفاظ بها في موقع العمل الملائم يُشكّلُ تحدّياً يُواجه كلّ مؤسّسة. فالقوى العاملة الجيدة هي من أهم الأصول التي تمسك بها كل مؤسسة. يُزوّد هذا الكتاب المديرين وكلّ مسؤول في كلّ شركة ومؤسسة بالإرشاد والمشورة الكاملة للتعامل الإيجابي والفعّال مع أفضل العاملين معها وتوثيق الاحتفاظ بهم. مرشد السلسلة المشرف على الكتاب: البروفسور بيتر كابِلّي Peter Cappelli أستاذ الإدارة في كلية وارتُن Wharton الشهيرة في جامعة بنسلڤانيا، ومدير مركز مصادر القوى العاملة في الكلية.

❖ ثمن النسخة بالغلاف **$10.30**

الجغرافية الجديدة لتفاوت الدخل العالمي



THE NEW GEOGRAPHY OF GLOBAL INCOME INEQUALITY

تأليف: كلنْ فايرباو Gleen Firebaugh

تعريب: د. خضر الأحمد

إن النتيجة المفاجئة في هذا الكتاب هي أن تفاوتَ الدّخل العالمي آخذ في التناقص، خلافاً للاعتقاد السائد الذي يفيد أن هذا التفاوت آخذ في التزايد. ويؤمن منتقدو العولمة، وآخرون، بأن انتشار رأسمالية المستهلكين تستقطب، بوجْهٍ دراميٍّ، التوزُّع العالميّ للدّخل. لكن المؤلف، المتخصص بالديموغرافيّة (علم السكان)، يُبيّن بدقّة أن تفاوت الدخل العالمي بلَغ ذروته في أواخر القرن العشرين، ويسير الآن في طريق مُنْحَدِر، نتيجة انخفاض تفاوت الدخل بين الدُّوَل. ونَجِدُ، في الوقت نفسه، تفاوت الدّخل يزداد ارتفاعاً ضمن الدول، ولو أنّ هذا الارتفاع لا يحدث بسرعة. ويذهب المؤلف إلى أن هذا التحوّل التاريخي يمثل جغرافية جديدة لتفاوت الدخل العالمي في القرن الحادي والعشرين. يُوثّقُ هذا الكتاب هذه الجغرافية الجديدة، ويُعَلّلُ أسبابها، ويُفسّر السبَبَ الذي جعل المحلّلين الآخرين يغفلون عن واحدة من أهم السّمات لعصرنا ألا وهي الانتقال في التفاوت، الذي يُقلّل من أثر المكان الذي يولَدُ فيه الشخص عند تقرير مستوى رفاهيته في المستقبل. مؤلف الكتاب: كلنْ فايرباو، أستاذ ورئيس قسم علم الاجتماع في جامعة ولاية بِنْسلْڤانيا.

❖ ثمن النسخة (مجلد) **$13.25** ❖ ثمن النسخة (غلاف) **$11.20**

النقاط الأساسية في نمو الأطفال



Touchpoints Birth to 3

أكثر كتب العناية بالأطفال بيعاً في الولايات المتحدة الأمريكية (أعيد طبع الكتاب باللغة الإنكليزية أكثر من 30 طبعة)

تأليف: د. الطبيب ت. بري برازلتون،

عميد أطباء الأطفال الأمريكيين

T. Berry Brazelton, M.D.

يرسم المؤلف في هذا الكتاب مخططاً لمراحل تطور الوليد والطفل الصغير ويقدم لنا شرحاً لا مثيل له. لقد بنى المؤلف كتابه على خبرته التي امتدت أربعين سنة في ممارسة طب الأطفال في كلية الطب في جامعة هارڤارد. وقد صمّم هذا المخطّط للتطور العاطفي والسلوكي لمساعدة الأبوين على متابعة التطورات المتوقعة عند الطفل، ولفهم كل ما يستجد من أمور ترافق حدوث هذه التطورات عند كل أسرة. وبخلاف تطور جسم الطفل كازدياد طوله مثلاً، وهو الأمر الذي يراقبه الأبوان بمتعة واهتمام كبيرين، فإن التطور الروحي له عدة أبعاد. فهناك مراحل تراجع، ومراحل تقدم، إذ يتم النمو النفسي في عدة اتجاهات وفي أوقات متفاوتة. فكل إنجاز جديد قد يؤخر تقدم الطفل لحين ما، وربما يعيق تقدم الأسرة بكاملها. وربما يتراجع الطفل في اتجاهات عدّة ويصير فَهْمُهُ صَعْباً، وهنا يفقد الأبوان اتزانهما ويزداد تحفّزُهما.
يبحث الكتاب في ما يؤثر في نمو الطفل العاطفي والسلوكي. ويبحث في أمور لها أثرها في نشأة الطفل في سنواته الأولى، والطرق التي يتأثر بها تطور الطفل بمن حوله.

❖ ثمن النسخة **$19**

شركة الحوار الثقافي ش.م.م.

بيروت. ص.ب. 6750 - 13 لبنان

هاتف: +961-1-802444 • فاكس: +961-1-790718

E-mail: info@interculturalbooks.com

http://www.interculturalbooks.com

تُطلب كتب شركة الحوار الثقافي في جميع البلاد العربية من

دار الوراق للنشر والتوزيع - بيروت - لبنان

E-mail: warrak@interculturalbooks.com

كما تُطلب في الدول التالية من:

مصر : دار العلوم - القاهرة، هاتف : 5761400 وفي المملكة العربية السعودية من: دار الوراق ومن: مكتبة جرير في جميع فروعها. **وفي الكويت من:** مكتبة جرير ومن: الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات. **وفي قطر من:** مكتبة جرير. **وفي البحرين من:** المكتبة الوطنية، المنامة **وفي أبو ظبي من:** مكتبة الجامعة ومكتبة جرير. **وفي لبنان من:** دار الفرات للنشر والتوزيع 750054-1-961+. **وفي الأردن من:** الأهلية للنشر والتوزيع 4638688-6-962+. **وفي سورية:** من دار الشّيْرَنين، دمشق 2230914-11-963+. **وفي المغرب من:** المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.